



ملعون دوستوفسكي

رواية



ترجمة : راغدة خوري



عتيق رحيمي

ملعون دوستوفسكي

رواية

ترجمة: راغدة خوري



ملعون دوستوفسكي

■ عتيق رحيمي
■ ملعون دوستوفسكي
■ ترجمة: راغدة خوري
■ جميع الحقوق محفوظة للناشر©
■ الطبعة الأولى 2012
■ الإخراج الضوئي: هالا خليل
■ الناشـــر: دال للنشـــر والتوزيـــع
سـورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170
هاتف: 00963 944 464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

ما كاد رسول يرفع الفأس كي يضرب رأس المرأة العجوز حتى عبرت رواية الجريمة والعقاب في ذهنه. صعقته. ارتعشت ذراعاه، تمايلت ساقاه. أفلتت الفأس من يديه، فاخترقت جمجمة المرأة وانغرزت فيها. انهارت العجوز فوق السجادة الحمراء والسوداء دون أن تصدر أي صوت. يتطاير حجابها المطّبع بأزهار التفاح في الهواء قبل أن يسقط فوق جسدها الممتلئ والمترهل. اهتّزت بتشنجات، تنفست نفساً واحداً، أو ربما نفسين، حملقت عيناها الجاحظتان في وجه رسول المنتصب وسط الحجرة، مقطوع الأنفاس، أكثر شحوباً من جثة. سقط الباتو[1] الذي يرتديه من على كتفيه الناتئين، وهو مستغرق النظر في تدفق الدماء، تلك الدماء التي كانت تسيل من جمجمة العجوز، وتندمج بلون السجادة الحمراء، مغطية كذلك مساراتها السوداء، لتسيل بعد ذلك ببطء نحو اليد اللدنة للمرأة التي لم تزل تمسك بقوة رزمة من الأوراق المالية. والتي سوف تتلطخ لاحقاً بالدماء.

---

[1] الباتو: شال صوفي يتلحف به الرجل الأفغاني.

تحرك، رسول، هيا تحرك!

جمود تام.

رسول؟

ما الذي دهاه، بماذا يفكر؟

في الجريمة والعقاب، نعم، يفكر في راسكولينكوف ومصيره.

لكن ألم يفكر في هذا قبل أن يرتكب الجريمة، أو عندما نوى على ارتكابها؟

على ما يبدو لا.

أو ربما هذه القصة المتوارية عميقاً في داخله، هي من حرّضه على القتل.

أو ربما...

أو ربما... ماذا؟ هل هذا حقاً هو الوقت المناسب للتأمل في تصرفاته؟ الآن بعد أن قتل العجوز، لم يبق أمامه سوى أن يأخذ المال، والمجوهرات ويفر هارباً.

هيا اهرب!

إنه لا يتحرك، لم يزل واقفاً، جافاً مثل شجرة، شجرة ميتة زُرعت في أرض الدار، لم يزل نظره يلاحق خيط الدماء الذي يكاد يصل إلى يد المرأة، فلينسَ المال ويغادر هذا المنزل بسرعة، قبل أن تصل شقيقة المرأة العجوز إليها. شقيقة العجوز؟ هذه المرأة ليس لديها أخت، عندها ابنة.

بغض النظر إن كان لديها شقيقة أو ابنة، فهذا لن يغير من الأمر شيئاً. ففي هذه الحالة سوف يضطر رسول أن يقتل أي شخص يدخل المنزل.

قبل أن تلمس الدماء يد المرأة، انحرفت، وها هي تتدفق الآن وتسيل نحو جزء مرّقع من السجادة، بحيث تتجمع هناك بركة غير بعيدة عن علبة خشبية صغيرة ممتلئة بسلاسل وقلائد وأساور ذهبية، وساعات...

ما الذي تبغيه من كل هذه التفاصيل؟ هيا التقط صندوق المال!

يجلس القرفصاء، تتردد يده في المضي قدماً نحو المرأة من أجل انتزاع الأموال. تغدو قبضتها الآن قاسية وحازمة كما لو أنها لم تزل على قيد الحياة، وهي تمسك بالأوراق المالية. يحاول بإصرار، دون جدوى. مضطرباً، تسقط نظرته فوق عيني المرأة التي دون روح، فيرى انعكاس وجهه، تذكره عيناها الجاحظتان بأن المشهد الأخير الذي تحتفظ به الضحية لقاتلها يلتصق في بؤبؤ عينيها. يجتاحه الخوف. يتراجع. تأخذ صورته بالاختفاء شيئاً فشيئاً من عيني العجوز إلى ما وراء أجفانها.

«نانا عليا»؟ يصرخ صوت في المنزل. حسناً ها هي هنا. تلك التي لا يجب عليها الحضور. رسول. لقد انتهى كل شيء.

«نانا عليا؟» من الذي ينادي؟ ابنتها؟ كلا. فهذا ليس بصوت فتي. أيا كان، لا ينبغي لأحد دخول هذه الغرفة.

«نانا عليا» الصوت يقترب. «نانا عليا»؟ يصعد الدرج. هيا رسول، انطلق!

يقلع كما لو أنه قشة صغيرة، يهرع نحو النافذة، يفتحها، ويقفز على سطح المنزل المجاور مخلفاً وراءه الباتو، المال، المجوهرات، الفأس... وكل شيء.

عند وصوله لحافة السطح يتردد في القفز إلى الزقاق. لكن الصراخ

المخيف الذي يتردد صداه من داخل غرفة «نانا عليا» يخلّخل قدميه، سطح المنزل، والجبل. يرمي بنفسه ويهبط بعنف. يخترق ألم حاد كاحله، لم يعرْ هذا اهتماماً، يجب عليه النهوض، فالزقاق فارغ ويجب عليه الفرار.

ها هو يركض.

يركض دون أن يعرف إلى أين يذهب.

يتوقف قرب كومة من القمامة، تفوح من أحد الأكياس نتانة تحرق الخياشيم. لكنه لا يشعر بشيء، أو إنه لا يبالي. ها هو لم يزل هناك، متكئاً على الجدار، وصوت المرأة الصارخ ما يزال يرن في أذنيه.

إنه لا يعرف إن كانت هي لا يزال يعوي صارخاً، أو إن كان هو لم يزل مسكوناً بهذا الصراخ. يحبس أنفاسه. ترى، هل رأسه هو الذي يفرغ فجأة من الصراخ، أم الزقاق؟ يبتعد عن الحائط كي يتابع انطلاقه، يعيقه ألم كاحله عن متابعة السير. يتلوى وجهه من الألم. يستند من جديد على الحائط، يقعي كي يمسح قدمه. لكن شيئاً ما يأخذ في الغليان داخله، ينتابه الغثيان، ينحني قليلاً كي يتقيأ سائلاً أصفر اللون. يدور السائل مع كل تلك القاذورات ويلتف من حوله. يعقد يديه خلف رأسه، وينزلق على الأرض وهو لم يزل مستنداً على الجدار.

يبقى للحظات طويلة دون حراك، مغلق العينين، يحبس أنفاسه كما لو أنه يريد سماع صيحة، أو شكوى ما، آتية من منزل «نانا عليا». لكن لا شيء من هذا يحصل، لا شيء غير خفق نبض الدماء في صدغيه.

ربما يكون قد أغمي على المرأة لحظة اكتشفت الجثة.

لا، إنه يأمل.

من كانت تلك المرأة، تلك الشيطانة التي أفسدت الأمر كله؟

أهي حقاً المرأة أو... دوستوفسكي؟

نعم إنه هو، دوستوفسكي! بجريمته وعقابه، فقد صعقني وشلّ حركتي، ومنعني من متابعة مصير بطله راسكولنيكوف: وذلك بأن أقتل امرأة ثانية وهي بريئة. أسرق المال والمجوهرات التي ستبقى تذكرني بجريمتي، وأصبح فريسة الندم، وأنزلق إلى هاوية الشعور بالذنب، ومن ثم أنتهي في السجن.

وإن يكن؟ سيكون ذلك أفضل من الفرار كمغفل، كمجرم أبله، بدماء فوق يديه، لكن لا شيء في جيوبه.

ما هذا الهراء!

اللعنة على دوستوفسكي.

تحيط يداه وجهه بعصبية، ومن ثم تضيع داخل شعر رأسه الأجعد، لتلتقيا في النهاية حول رقبته الغارقة بالعرق. فجأة، تخترق عقله فكرة واخزة. ماذا لو لم تكن تلك المرأة ابنة «نانا عليا»، سيكون بمقدورها سرقة كل شيء والمغادرة بهدوء. وماذا عني أنا؟ عن أمي، أختي دنيا، وخطيبتي صوفيا؟ ما الذي سيحل بهن؟ فمن أجلهن اقترفت جريمتي تلك. لا يحق لتلك المرأة أن تستفيد من ذلك، يجب أن أعود. إلى الجحيم يا ألم كاحلي!

ينهض ويستأنف السير.

2

العودة لمكان الجريمة. يا لهذا الفخ! أنت تعلم، كما كل الناس، أن العودة إلى مسرح الجريمة هو خطأ فادح. خطأ تسبّب في هلاك أكثر المجرمين مهارة. ألم تسمع كلمات الحكماء الأقدمين: "المال كما الماء، إن ذهب لا يعود أبدا؟" كل شيء قد انتهى، ولا تنسَ أن الشقي لا يملك في أي عمل، أكثر من ضربة حظ واحدة، فإن هو أخفق، فكل شيء يفشل، وأي محاولة جديدة لتعويض فرصته تلك ستكون مشؤومة لا محالة.

يتوقف، يلقي نظرة من حوله. كل شيء هادئ وصامت. لم يكن مقتنعاً بأقوال الحكماء، بعد تدليك كاحله يعود ويستأنف طريقه، وبخطوات حازمة وسريعة يصل إلى تقاطع شارعين. يتوقف من جديد لفترة وجيزة فقط كي يلتقط أنفاسه، قبل أن يدلف إلى ذاك الشارع الذي سوف يقوده إلى مسرح الجريمة.

فلنأمل أن تكون المرأة قد أغمي عليها بالقرب من جثة العجوز.

ها هو في شارع ضحيته. يتفاجأ بالصمت الذي يخيم على المنزل. يبطئ من خطواته. ينهض كلب يقبع في ظل جدار بتثاقل عند رؤيته وبالكاد ينبح . يتجمد رسول في مكانه. يتردد، يترك الوقت يمر كي يقنع نفسه، على مضض، بتفاهة فضوله. يسمع وهو على وشك المغادرة خطوات مسرعة في باحة منزل «نانا عليا». خائفاً، يلتصق بالجدار. تخرج من المنزل امرأة متلفّحة بشادور أزرق سماوي، ودون أن تغلق الباب وراءها تسرع في مغادرة المكان. إنها

هي، دون شك. بعد أن سرقت المال والمجوهرات ها هي تلوذ بالفرار الآن.

أوه لا! إلى أين أنت ذاهبة أيتها الكافرة؟

ليس لديك الحق في لمس تلك الأموال والمجوهرات. إنها ملك لرسول! أوقفوها.

تسرع المرأة الخطى، وتختفي في أحد الأزقة. يندفع رسول في إثرها على الرغم من ألم التواء كاحله. يجدها تحت إحدى الشرفات المعتمة، لكن أصوات خطوات مصحوبة لصيحات بعض المراهقين الذين ينزلون أسفل الزقاق توقف اندفاعه. يلتصق بالجدار كي يختبئ. بالرغم من عجلة المرأة إلا أنها تتوقف كي تفسح المجال لهم بالمرور. من خلف شبك الشادور تلتقي نظراتها بنظرات رسول الذي يغتنم هذه الفرصة كي يعاود تدليك كاحله المتألم. تستأنف المرأة طريقها، تلحق بالصبية، وهي أكثر استعجالاً واضطراباً من السابق.

يعرج، مقطوع الأنفاس، ويندفع من جديد لملاحقتها. عند أحد مفارق الطرق تأخذ شارعاً آخر، أكثر اتساعاً، وأكثر اكتظاظاً بالسكان. لحظة يصل رسول إلى مفترق الطرق هذا، يتوقف للحظة مذهولاً لرؤيته العشرات من النساء في الشادور الأزرق السماوي يتهادين على الطريق.

أي واحدة يجب عليه أن يتبعها؟

يتقدم يائساً. يضيع في هذا الكمٍ الهائل من وجوه المحجّبات. يراقب أقل إشارة، بقعة دماء مثلاً على طرف الشادور، علبة مخبأة تحت الذراع، حركة استعجال مريبة... لكنه لم يلحظ شيئاً. يقع

فريسة الدوار، يتماسك كي لا ينهار، ومن جديد يداهمه الغثيان. يتصبب عرقاً، ينسحب نحو ظل جدار، ينحني كي يتقيأ مرة أخرى سائلاً أصفر اللون.

أمام نظراته الذاهلة، راحت تعبر أقدام المارة. منهكاً، أخذ الضجيج يغيب شيئاً فشيئاً من حوله، وراح كل شيء يغرق في الصمت! ذهاب وإياب الناس، أحاديثهم، صراخ الباعة المتجولين، ضجيج أبواق السيارات وحركة المرور...

اختفت المرأة، وضاعت وسط الآلاف من أمثالها، من ذوات الوجوه المجهولة.

لكن كيف لها أن تهرب وتترك «نانا عليا» ـ إحدى قريباتها على الأرجح ـ في مثل تلك الحالة؟ اكتفت بالصراخ، هذا كل شيء، حتى أنها لم تطلب المساعدة. بأي مهارة استطاعت حساب ضربتها؟ قررت، ونهبت كل شيء. كل هذا دون أن ترتكب أي جريمة. العاهرة! بالتأكيد لم ترتكب أي جريمة، لكنها قامت بالخيانة، لقد خانت أقرباءها، والخيانة أسوأ من الجريمة.

الوقت غير مناسب لإطلاق الفرضيات، رسول.

انظر، لقد أعطاك أحدهم مالاً، خمسون أفغانية.

من يحسبني هذا الرجل؟

شحاذ، يركع بشكل بائس على الرصيف، ثيابه رثة وممزقة، ذقنه غير حليقة، عيناه غائرتان، وشعره قذر. أنت بذلك تشبه شحاذاً أكثر منك قاتلاً. لكنك شحاذ لا يرتمي على المال.

الرجل الشكّاك، يصّر، هازّاً الورقة المالية أمام عيني رسول التائهة... ليس باليد حيلة. يدخل المال في قبضته العظمية،

ويذهب. يخفض رسول نظره نحو الورقة المالية.

ها هو ثمن جريمتك!

ابتسامة مريرة تجعل شفتيه الداميتين ترتعشان. يغلق قبضته ويستعد للنهوض. لكن فجأة، يمنعه صوت ضجيج مرعب، ويبقيه مسمَّراً في مكانه.

صاروخ ينفجر.

يهز الأرض.

يرتمي البعض على الأرض، ويركض آخرون وهم يصرخون.

صاروخ آخر، أكثر قرباً، وأشد هولاً. يلقي رسول بنفسه على الأرض. يرتمي كل شيء من حوله في الفوضى، في اللغط والضوضاء.

ينطلق من حريق هائل دخان أسود يغطي الحي كله، ويصل حتى سفح جبل "اسماي" وسط كابول.

بعد بضع دقائق ترتفع رؤوس شبيهة بالفطور القذرة، وسط صمت ثقيل، وتبدأ التكهنات تتلاحق:

– ضربوا محطة البنزين.

– لا إنها وزارة التعليم.

– لا إنها محطة الوقود.

ينبطح بالقرب من رسول رجل عجوز، يبحث بنظراته اليائسة عن شيء ما وهو يغمغم من تحت أنفاسه: "اللعنة على محطتكم، اللعنة على وزارتكم، أين هي أسناني؟ يا الله من أين أخرجت لنا جيش حأجوج ومأجوج هذا؟ أسناني...".

يفتش الأرض تحت بطنه.

"ألم ترَ أسناني؟" يسأل رسول الذي كان يحدّق به بنظرة جانبية

كما لو كان يريد أن يتأكد إن لم يكن العجوز قد قضى نحبه. "لقد سقطت من فمي، لقد فقدتها...".

– هيا، بابا، في زمن الجوع والحرب، هل حقاً يفيد طقم الأسنان؟ يسأله رجل ملتحٍ مستلقٍ أمامه بسخرية.

– " لم لا "؟ يرد العجوز المصدوم من هذا القول بحزم وفخر.

"يا للعجوز!" يقول الملتحي وهو ينهض وينفض الغبار عنه، ويبتعد ويداه في جيبيه، تحت أنظار الرجل العجوز المشبوهة الذي راح يتمتم: "هذا الولد ابن العاهرة سرق أسناني. بالتأكيد هو من سرقها" عاد ليلتفت نحو رسول: "لقد قمت بزرع خمس أسنان ذهبية، خمس أسنان!" بعد أن ألقى بنظرة خاطفة نحو الملتحي يتابع بصوت ملؤه المرارة: "أجبرتني زوجتني على بيعها من أجل تغطية نفقات الأسرة. عدة مرات وضعت أسناني للرهن، وحالما كان ابني يرسل إليّ نقوداً من الغربة كنت أقوم باستردادها. اليوم، عند هذه الظهيرة، كنت قد استرديتها من المقرض. يا لليوم المشؤوم!" ينهض ويندس بين المارة. ربما كي يلحق بالرجل الملتحي.

قدّر رسول تهكّم الملتحي. ليس حباً في السخرية، إنما لاحتقاره الذين يلبسّون أسنانهم بالذهب. دلالة خارجية للشجع في كافة أشكاله القبيحة.

كان لدى «نانا عليا» أيضاً مثل هذه الأسنان. لو كان يملك الوقت، لرغب بشدة بنزعها من فمها.

منذ قليل كان كل هذا ممكناً، لكنه لم يكن ماهراً، وإلا، لما كان هنا، وهذه الأوراق الأفغانية الخمسون في قبضته.

ينهض وسط الناس الذين عادوا للتحرك، يتراكضون في كل

الاتجاهات، ويحاولون ما استطاعوا العودة إلى وعيهم، يغطون أنوفهم وأفواههم كي لا يختنقوا من وطأة كثافة الدخان والغبار. يتوجه أغلبهم نحو الحريق. ها هو اللهب والدخان يرتفعان أكثر فأكثر. يقترب رسول بدوره، لكن الجثث التي كانت قيد الاشتعال جعلته يتراجع. هناك صوت رجل يخترق الدخان يناديه ليساعده. إنه يحاول أن ينقل فوق ظهره فتاة شابة مجروحة: "أنا وحدي، وهذه البائسة لم تزل على قيد الحياة". يهرع رسول لنجدته، يأخذ الفتاة بين ذراعيه، وعندما يبتعد عن مكان الحريق يعود ليعطيها له". يجب الابتعاد عن هذا المكان! فالخزان لن يلبث أن ينفجر! "يصرخ الرجل ناشراً جواً من الرعب حول كل من كان يحاول إخماد النيران.

يستأنف رسول الطريق الذي يقوده نحو جبل "إسماي". تاهت نظراته المتعبة عبر الأزقة الضيقة والمعتمة التي تعرجت بجانب التلّ مشكلة متاهة حقيقية لامتداد آلاف المنازل، وكلها على سطح الأرض، مُدمج بعضها مع بعض، بطوابق متلاحقة حتى قمة الجبل الذي كان يقسم جغرافياً، سياسياً، ونفسياً، في أحلامه، وفي كوابيسه، مدينة كابول. كما لو كانت بطناً على وشك الانفجار.

من الأسفل، كان يظهر سطح «نانا عليا». منزل كبير ذو واجهة خضراء ونوافذ بيضاء. الآن، بعد رحيل المرأة، بإمكانه العودة إلى المنزل كي يلقي نظرة، لا أكثر ولا أقل. يعاود الصعود بمشقة كبيرة المنحدر القاسي للطريق، ما إن يصل إلى شارع فرعي، حتى ينبثق ثلاثة رجال غاضبون ومسلحون، عند مفرق الزقاق. يخفض رسول رأسه كي يخفي وجهه، فلا يعود يسمع غير صيحاتهم: "

صاروخان! نحن، سوف نرد عليهم بثمانية صواريخ لنهدم محطتهم. سوف يتحول حيّهم إلى دمار، ويغرق بالدماء.

يغيب الصوت، ويختفون.

يتابع رسول طريقه. يأخذ استراحة قصيرة قبل الوصول إلى شارع ضحيته. ترتجف قدماه، يأخذ نفساً عميقاً. تختلط الروائح الفاسدة بروائح النفط والرصاص. يغدو الهواء أكثر ثقلاً وغير قابل للتنفس. كان هناك رائحة أخرى، رائحة اللحم، لحم يحترق. يغلق رسول أنفه مذعوراً، يتقدم خطوة ثم يتردد في الخطوة الثانية. تستوقفه صورة جثة «نانا عليا» التي لا يكف عن إبرازها أمام عقله الخرب. من غير الممكن معاودة رؤية الجثة المقتولة بيديه هو. تلك اليدان اللتان كانتا ترتجفان، تتعرقان، تتحركان. يجب عليه الهرب من كل هذا.

يدور على عقبيه، لكن رغبة مرضية، قريبة من الهوس عادت لتوقفه. من المفترض أن يتواجد هنا شرطة، أقرباء، جيران، صراخ، دموع...

متأكداً مما قد يراه، يعود أدراجه. يتقدم نحو المنزل، ودوماً هذا اللاشيء. يدلف بحرص داخل الصمت الدخاني للشارع، يقف أمام المنزل، لا شيء يتحرك، ما خلا هذا الكلب الكسول الذي لم ينهض، حتى ولم يعوِ. مذهولاً، وجد رسول باب المنزل مغلقاً. دفعه. فلم يُفتح. هناك من أغلقه من الداخل. لكن لم كل هذا الصمت، كل هذا السكون؟

هذا يعطي الإحساس بالسوء.

هيا عد إلى منزلك.

3

لم يرجع إلى بيته، بل راح يتجول في المدينة على غير هدى. ها قد مضى عليه ثلاث ساعات وهو يمشي.على مهل، دون استعجال. دون أن يعير كاحله أدنى اهتمام. لقد نسيه. لم يتوقف إلا عندما وصل لحافة نهر كابول، وحدها رائحة الطين تعيده إلى رشده، هذه الرائحة الكريهة التي تنبثق من مجرى النهر عند نهاية الصيف. عند توقفه عن الحركة، أيقظه الألم ومنعه من متابعة تجواله. يتمسك بدرابزين ويروح يفرك كاحله.

يغدو الهواء أكثر ثقلاً، يسعل رسول. سعالاً خشناً، وصامتاً.

حنجرته خشنة.

لسانه جاف.

لا توجد أي قطرة من الأمل، لا في فمه، لا في النهر، ولا في السماء.

السماء العجوز، الضعيفة بسبب الدخان والغبار، سوف تذهب بسرعة لتنام وراء الجبال... الشمس، تنام؟ يا للاستعارة الغبية! كلا، الشمس لا تنام أبداً. إنها ترحل نحو الجانب الآخر للأرض، مستعجلة لتشرق فوق بلاد أقل حزناً. خذيني معك أيتها الشمس! كأننا نسمع رسول يصرخ من أعماقه. إنه يرمق الشمس بعيون مسدلة، يتقدم بضع خطوات ومن ثم يتوقف. يده مرفوعة أمام ناظريه كواقية من الشمس تؤمن له الظل، يلقي بنظرة عابرة حوله

كمن يريد أن يتأكد بالخفية من أن أحداً لم يتبعه، وأحداً لم يلحظ هذيانه الصامت. آه كلا، يا صغيري رسول، فالعالم لديه هموم أخرى أكثر أهمية من الإصغاء لمجنون فقير.

عد إلى بيتك ونم!

أنام؟ هل هذا ممكن؟

طبعاً هذا ممكن. سوف تفعل مثل "راسكولنيكوف" الذي، بعد جريمته عاد مباشرة إلى منزله وانهار بسرعة فوق أريكته. حسناً، أنت، لا يوجد لديك أريكة، لكن لديك حشية، قذرة، تنتظرك دون شفقة على الأرض مباشرة.

وبعد ذلك؟

لا شيء، تنام.

كلا، بل يُغمى عليّ.

حسناً، يغمى عليك إن شئت، هذا ليس بالمهم، نم حتى اليوم التالي. وفي الصباح، عندما تستيقظ، سوف تلاحظ أن كل هذا لم يكن غير كابوس.

أوه لا، ليس باستطاعتي نسيان كل شيء بمثل هذه السهولة.

بالطبع تستطع. انظر، ليس لديك أي دليل ليذكرك بالجريمة. لا مال ولا مجوهرات، لا فأس ولا....

دماء!

توقف فجأة. مرعوباً، يتحقق من يديه، لا شيء، من أكمامه، لا شيء، من صدّاره، لا شيء، لكن أسفل قميصه، كان هناك بقعة كبيرة من الدماء! لم في هذا المكان بالذات؟ كلا، إنها ليست دماء «نانا عليا» إنها دماء الفتاة الشابة التي قمت بإنقاذها.

يربكه هذا التشوش، يـتفحص نفسـه مـرة اخـرى. لا يوجـد اي بقعة دماء أخرى. لا يوجد أي دليل على الجريمة. هل يعقل هذا؟

من المؤكد انك لم تقترف جريمة. هذا ليس إلا خيالـك المسـكين. تقمصك الساذج لشخصية الرواية. نوع من الترّهات لا شـيء آخـر! الآن، باستطاعتك العودة بهـدوء لبيتـك. بإمكانـك حتـى التجاهـل بأنك، البارحة، وعدت خطيبتـك صـوفيا بـأن تمـر هـذه الليلـة إلى منزلها. لكن بالنظر لحالتك فمن الأفضل ألا تلتقي بأحد.

نعم، سوف لن أذهب. لكنني جائع.

طالما لديك الآن هذه الخمسون أفغانية، باستطاعتك شراء الخبـز والقليل من الفاكهة. ها قد مضى عليك عدة أيام وأنت دون طعام.

قادته معدته الفارغة نحو ساحة جويشير. كان الفرن مغلقـاً. في الجهة الأخرى للساحة، كان هناك بائع عجوز على وشـك ترتيـب متجره. بعد لحظات من التردد، يتقدم رسول نحوه بـبطء. لم يكـن قد خطا ثلاث خطوات حتى جمده صراخ هائل في مكانه. "لا، لا، لا تأخذ شـيئاً!" تخـرج امـرأة محجّبـة مـن زقـاق صـغير، راكضـة وصارخـة: "إنها لحم بشري...لحم...." تتوقـف دون حـراك وسـط الساحة مذهولة لرؤيتها كل هذا الفراغ وهذا الصمت. تركت نفسـها تسقط على الأرض وهـي تنـوح: "إنـه لحـم فتيـات شـابات، قبـل الأمس، قدموهن للضريح..." تتلفت يمنة ويسرى، فلم تجـد سـوى رسول كي تذرف أمامـه الـدمع: "أقسـم لـك، أنـا لا أكـذب، لقـد رأيت..." زحفت نحوه "... الصدقة التي قدموها إليّ..." تخفـض صوتها: "كانت أثداء تلك الفتيـات!" تخـرج يـدها مـن الشـادور: "أقسم لك يا أخي... إنهم الرجال ذاتهم الذين يقدمون الصدقات،

هنا، منذ قليل... كانوا هم ذاتهم "تكشف عن وجهها" إنهم نفس الرجال... في ذاك اليوم... أمام الضريح..." وأخيراً تصمت. ثم لم تلبث ـ وهي تمسح دموعها بطرف ثوبها ـ أن تطلب بوَهن: "أخي، هل لديك مال؟ لدي ثلاثة أطفال يجب عليّ إعالتهم".

دون أن يتفوه رسول بحرف، يخرج ورقة الخمسين افغانية، ويعطيها للمرأة التي ترتمي تحت أقدامه: "شكراً يا أخي... فليرعك الله!".

يبتعد رسول، منهكاً من شكوى المرأة، لكنه فخور بما فعل.

يا لروعة هذا التصرف! كم من السهل إعادة شرائك.

كلا، لا أريد مطلقاً بيع نفسي.

ما معنى إذن فعل الإحسان هذا؟ أنت لا تريد أن تقول أنه نوع من الشفقة؟ لأن لا أحد سيصدقك. إنه ببساطة كي تقنع نفسك فقط أنك ما زلت تملك خلفية طيبة. حتى ولو كان باستطاعتك قتل مخلوق كريه، فأنت قادر على منع موت عائلة فقيرة من الجوع. فالذي يهم هو نيّتك، ما...

نعم! وهذا ما هو مهم بالنسبة لي: إنه...

تتعثر قدماه بحجر كبير، فينتزع منه ألم كاحله تكشيرة. لحظة ويتوقف، لا يكتفي بالتوقف عن السير، بل عن اجترار خطابه عن راسكولنيكوف. أتراه يمجد اسم الرب أم الحجر الذي أوقفه!.

الطريق الذي يجب اجتيازه حتى منزله ليس بالبعيد. يستطيع السير بهدوء، وببطء.

عندما يصل أمام الباب، ينتظر للحظات، ويتأكد للمرة الأخيرة ـ بقدر ما يسمح له الضوء المتبقي من النهار ـ إن كانت ثيابه تحمل

آثاراً أخرى من الدماء. إنها دائماً نفس البقعة التي لم يميزها فعلاً إن كانت أثراً لجريمته أم إشارة لفضيلته.

يتنفس بعمق قبل أن يدخل باحة الدار التي ينطلق منها صدى صرخات فرح لابنتيّ مالك المنزل اللتين كانتا تتأرجحان بحبل مربوط فوق غصن وحيد لشجرة ميتة. يصعد رسول على رؤوس أصابعه الدرج الذي يقوده نحو غرفته الصغيرة، الموجودة في الطرف الآخر من الباحة. لحظة يصل للدرجة الأخيرة، ترتفع أصوات الفتاتين: "سلام سيد رسول!".

وبينما هو يهّم بفتح الباب، وإذ بصوت أجش ومتوعد يمنعه من الدخول للداخل. "هيه، رسول، إلى متى باعتقادك يمكنك الهرب؟" إنه المالك «يارموحمَد». يلتفت رسول نحوه لاعناً بالسر ابنتيه. يقف يارموحمَد عند إطار النافذة معتمراً كوفية الصلاة: "إذن، أين هو مال إيجارك؟ هان؟".

مغتاظاً، يعاود رسول النزول بمشقة، ويتجه نحو النافذة كي يقول أنه، وكما وعده بالأمس، فقد ذهب اليوم كي يحصّل نقوده، لكن لم تسر الأمور بطريقة جيدة. فالسيدة التي يجب أن تعطيه المال المستحق عليها قد غادرت. بقي يبحث عنها طوال اليوم. لكن...

لكنه يشعر بشعور غريب في حنجرته. فلم يخرج منها أي صوت. يسعل. سعالاً جافاً فارغاً دون أي صوت. دون أي محتوى. يأخذ نفساً عميقاً. ويعاود ليسعل من جديد. ومرة أخرى لا شيء. قلقاً، يحاول أن يطلق صرخة، أية صرخة، لا يهم نوعها. أيضاً لا شيء يخرج. عدا نفَس مخنوق ومثير للضحك.

ماذا دهاني؟

"إذن؟" يقول بنفاد صبر يارموحمّد

فلينتظر! هناك شيء خطير يحدث. لقد فقد رسول صوته.

يحاول من جديد استنشاق الهواء بعمق، يستجمع قوته داخل صدره، ويدفع بالكلمات باتجاه شفتيه. دون جدوى. "هل وجدت ذاك الشخص الذي يدين لك بالمال"؟ يصرخ يارموحمد بلهجة ساخرة. "أعطني اسمه إذن! وغداً يكون المبلغ عندك. هيا اعطني اسمه..." لو كنت تعرف الحقيقة يا يارموحمد لما تجرأت على الحديث مع رسول بهذه الطريقة. فقد قتلها. وسوف يقتلك أنت الآخر أيضاً إن أزعجته أكثر من هذا. انظر لكل هذه الدماء التي عليه!

يمرر رسول يده فوق قميصه المبقع بالدماء جاعلاً يارموحمّد يسكت، وينسحب خائفاً إلى غرفته، وهو لم يزل متبرماً: "يا للحماقة! دوماً هذا العذر الكاذب..." اتركه يا رسول يدمدم. فأنت تعرف البقية: فلسوف يعود مرة أخرى نحو النافذة كي يقول لك أنه إن كان قد احتملك خلال هذين العامين، فذلك بسبب الاحترام الذي يكنه لابن عمك رازمودين، وأنه لولا صداقته لكان قد رماك خارجاً، وأن الآن هذا يكفي، فأنت لا تعني له شيئاً، لا أنت ولا ابن عمك، الخ.

لا تكترث له، وادخل إلى غرفتك. لا تلقِ نظرة إن كانت رونا، زوجته، هنا أم لا.

إنها هنا، بالتأكيد، خلف إحدى النوافذ الأخرى. تنظر إلى رسول بهيئة متأسفة، كمن يريد أن يقدم اعتذراً. إنها تحبه. رسول بدوره يحذر منها، مع ذلك فهي تروق له. هو غالباً ما يستمني وهو

يفكر بها. سبب حذره أنه لا يعرف أي نوع من العواطف - عاطفة أم تعاطف - تلك التي تحملها نحوه. إن كان هذا تعاطفاً فلسوف يكرهها، وإن كان عاطفة فسوف يلحق هذا بالضرر أكثر فأكثر بعلاقته مع يارموحمد. إذن ما الفائدة من التفكير بالأمر؟ فليدخل إلى غرفته. فليسترح كي يلتقط أنفاسه ويعود إليه صوته.

4

صرير الباب الحاد يحرك جيشاً من الذباب الذي جاء داعياً نفسه للداخل على أمل رؤية شيء ما بإمكانه أن يمتصه. لا شيء هنا، ما خلا بضعة كتب متناثرة، حشية قذرة، وبعض الملابس المهترئة المعلقة على الجدار، إبريق صغير من الفخار في إحدى زوايا الغرفة. هذا كل شيء.

يدفع رسول الكتب التي تتناثر حول فراشه، بقدميه، ليشق لنفسه طريقاً. يسقط على سريره، دون أن يخلع حذاءه. إنه يحتاج لفترة استراحة.

يغلق عينيه. يتنفس بانتظام، بهدوء، وببطء.

لم يكن لسانه إلا قطعة من الخشب اليابس.

ينهض. يشرب.

ويعود.

لم تزل حنجرته جافة وفارغة، فارغة من أي صوت.

يتنفس بعمق، وينفخ بعصبية.

ودوماً، لا شيء يهتزّ.

يجتاحه القلق، فيجلس ويضرب صدره. لكن دون جدوى. يضرب مرة أخرى، بقوة أكبر.

اهدأ! لا يوجد أي داع للقلق. هو ليس أكثر من اختفاء للصوت، انزعاج طفيف في التنفس. هذا كل شيء. يجب أن تنام. وغداً، إن بقي الحال هكذا، فسوف تذهب لرؤية طبيب.

يتمدد، ويدير ظهره للحائط. يتكور جسده، وتنحصر يداه بين ركبتيه، عيناه مغلقتان، إنه ينام.

ينام لحين ارتفاع آذان صلاة المساء، ولحين تلاشي إطلاق النار الذي كنا نسمعه آتياً من الناحية الأخرى للجبل. ثم يحل الصمت. هذا الصمت المربك هو من يوقظه.

محموماً، لا يملك القوة ولا الرغبة في النهوض. يحاول، بخشية، مرة أخرى أن يجبر صوته على الخروج. يخرج الهواء دوماً بقوة، دون أي كلمة. يغلق عينيه وهو أكثر اضطراباً. لكن التأوهات المكتومة لامرأة تجعله ينتفض. يجمد. يحبس أنفاسه المتقطعة، ويصيخ السمع. لم يعد هناك أي صرخة، ولا أي صوت. ينتابه الفضول، ينهض ببطء، ويذهب نحو النافذة، ومن خلال الذباب الملتصق ككتلة على الزجاج، ينظر إلى الباحة. تحت أشعة القمر الباهتة والباردة، بدت الباحة مقفرة، كئيبة وخادرة.

تمر لحظات، يشعل بعدها شمعة. يأخذ من وسط الكتب دفتراً صغيراً، يفتحه، ويخط على إحدى صفحاته: "اليوم قتلت «نانا عليا» ومن ثم يرميه في زاوية، بين الكتب.

يشرب ماء.

يطفئ الشمعة.

يعود إلى سريره.

على الجدار، فوق جسده المهدود، يعكس القمر صليباً، إنه ظل النافذة.

5

كان يوماً من أيام الربيع. وكان الجيش الأحمر قد غادر أفغانستان، ولم يكن المجاهدين قد استولوا على السلطة بعد. كنت عائداً للتو من لينينغراد. أما لماذا كنت قد ذهبت إليها فهذه قصة أخرى ليس باستطاعتي الحديث عنها هنا، في هذا الدفتر. لنعد إلى ذاك اليوم الذي التقيت فيه معك للمرة الأولى، منذ ما يقارب العام والنصف. كان هذا في مكتبة الجامعة في كابول حيث كنت أعمل. أتيت تطلبين كتاباً، لكنك أخذت قلبي عوضاً عنه. لحظة رأيتك، ورأيت نظرتك الهاربة والخجولة، أجبرتني أن أقطع أنفاسي، فقد خلخل اسمك روحي، صوفيا: كل شيء توقف من حولي، الزمن والعالم... لكي يكون بمقدورك أنت وحدك، البقاء. دون أن أقول لك أي كلمة، تبعتك حتى صفك، لا بل انتظرتك لحين خروجك من المحاضرة. كان من غير الممكن الاقتراب منك، ومحاذاتك. بعد ذلك تكررت القصة ذاتها. عملت المستحيل كي ألتقي بك، أن ألقي

نظرة نحوك، أرمي إليك بابتسامة، لا شيء أكثر من ذلك. لماذا لم أستطع أن أبثك عشقي؟ لم أفهم. ربما قلة جرأة؟ أو ربما نوع من الكبرياء؟ مهما يكن الأمر، كل قصتنا تتلخص في تلك النظرة الخجولة، وتلك الابتسامة الخفية التي ربما لم تلحظيها، لم تكوني لتجرئين على أن تردي عليّ، من الحياء أو ربما من الخوف.

هذا الحب هو من جعلني أتمركز في حي "ديافغانان"، عند منحدر جبل "إسماي" على بعد خطوتين من منزلك. في تلك الفترة كنتم تقطنون منزلاً آخر، منزلاً يشرف على المدينة، قريباً جداً من الصخرة التي أردت قطعها، كي أنحت منها تمثالاً لك.

كل صباح كنت أرافقك خفية حتى الجامعة، وبعد الظهر أعود فأرافقك حتى البيت. لم تكوني تأخذين الباص، ربما تعمّدت ذلك. يغطي شعرك حجاب رقيق، نظرك مسمّر على الأرض، كنت تتهادين ببطء. قلبك يخفق كوني أرافقك ـ حتى ولو عن بعد ـ أنا، حبيبك، أليس كذلك؟ في يوم من الأيام تجرأت باختلاق حادث ما، كي أستطيع الاقتراب منك. تصرف كلاسيكي تماماً: تركتِ أحد دفاترك يسقط على الأرض، متأملة أن أركض لالتقاطه وردّه إليك. لكن لا، فقد فشلت الضربة! لقد التقطته بالطبع، لكن كي أحتفظ به ولا أعيده أبداً إليك. حملته معي، مشدوداً إلى صدري كما القرآن. وفوق هذا الدفتر أنا أكتب إليك الآن".

هو الدفتر ذاته الذي أخرجه من بين الكتب كي يخط عليه " اليوم قتلت «نانا عليا».

كان قد كتب عليه أشعاراً أيضاً، وقصصاً، وكلها كانت موجهة بالطبع لصوفيا، لكنها لم تكن قد قرأتها بعد، كهذه القصيدة مثلاً:

"مظلمة هي الأرض، مظلم هو النهار. انظري إليّ صوفيا، وأنا في امبراطورية العتمة تلك، ينتشي قلبي. لأنه في هذا المساء سوف يراك!

مرّ وقت لم تعودي تشادهينني فيه. حتى، ربما، لم تكوني تعرفين أنني في ذاك المساء كنت سأتعشى عندك. نعم، كان هذا عندك، مع والدك الذي التقيت به مصادفة، حتى أني التقيت أخاك داوود.

فقد مضى على عدم رؤيتك وفقدانك سنة وشهران. أو لأكن أكثر دقة عام وست وأربعون يوماً. نعم، هذا هو، منذ شهر وأربعون يوماً ذهبت إلى «مزار شريف» كي أزور عائلتي. لكن لم يكن قد بقي لي مكان في البيت. فوالدي، الذي كان يرغب بشدة أن أتابع دراستي في الاتحاد السوفياتي، في بلد الأحلام تلك، صُدم لعودتي. ولم يعد بإمكانه احتمالي. بعد ستة أشهر، هجرت عائلتي. وعندما عدت إلى كابول، كانت حرب أخرى على وشك الحدوث، حرب اقتتال بين الأخوة، هذه المرة لم يعودوا يطلقون النار باسم الحرية، بل بسبب الانتقام. صمتت المدينة بأسرها، نسيت شكل الحياة، الصداقة، والحب... نعم، في هذه المدينة عدت لأبحث عنك. لكنك لم تكوني تقطنين المنزل ذاته. لقد غادرت لمكان آخر، لكن إلى أين؟ لا أحد يعلم.

اليوم، بعد الظهر، ذهبت إلى "تشيخانة"[2]. كان يملأ جو صالة الشاي هذه، غيمة من دخان التبغ، كنت جالساً على مقعد في

---

[2] تشيخانة: مقهى للرجال، يتسامرون ويلتقون فيه.

زاوية من الزوايا أشرب كوباً من الشاي. أثارت انتباهي خطوات رجل يصعد بمشقة الدرجات الخشبية للسلم. كان هذا والدك «موهارامولا» وقد غدا أعرجَ دون قدم، بعكاز محشورة تحت إبطه. لم أكن أصدق ما أرى. فقدت فوراً حماستي، كان متبوعاً من صديقين. واحدٌ دون عكازات، يعرج بشدة ويتألم، والآخر، كان قد فقد عينه وذراعه اليمنى. كانوا هم الثلاثة يحلّقون في مشيتهم بعد أن دخّنوا الكثير من الحشيش في الطابق الأرضي، في «الساقيخانة». جلسوا في ركني نفسه. تراجعت بخفة كي أترك لهم مكاناً. جلس والدك قربي. رمقني بنظرة ثاقبة جعلتني رغماً عني أبتسم. لا بد وان ابتسامتي قد أزعجته. سألني بصوته الفاتر والأجش: أهو انتصاركم الذي يجعلك تضحك؟ وسحب أمام وجهي جدعة قدمه المقطوعة. "أنا أهنئكم لهذا الانتصار، برادار!"[3] ابتلعت ابتسامتي، واقتربت منه لأقول أني لست من "الداباريش" الملتحين، ولا من "التافاريش" الرفاق... لا مهزوماً ولا منتصراً. طمأنته، وأنا أمسّد لحيتي قائلاً: "هذه الفروة ليست أكثر من هدية حرب". انتابني شعور أنه قد صُدم من هذا الجواب المتقن الصياغة، خفف من حدة نظرته وسألني بصوت هادئ من أين أنا؟ "من هنا، من ديهافغانان". إنها المرة الأولى التي أراك فيها هنا" قال وهو يتفحصني.

بحثت في عقلي عن طريقة لأشرح له بها أني أعرفه جيداً، وأني

---

[3] برادار: أخ غير الشقيق باللغة الفارسية القديمة.

كنت عاشقاً لابنته، وأني....

لكني منعت نفسي. في فترة الشك والريبة تلك، يجب ألا نعكر صفو الناس. قلت له أني قد انتقلت مؤخراً من هناك.

"وماذا تعمل؟".

وبينما أنا أبحث في عقلي عن جواب مقنع، راح شريكه، ذاك الأكتع، يضحك وهو يقول للآخر: آه! عثمان، الآن أصبح "تافاريشنا" موهاراmولا محققاً!

أنت تعرف لماذا الله العليم العارف كل شيء، لم يخلق للقط أجنحة؟ سأل الأعرج عثمان.

"لأنها كانت ستلتهم كل طيور السماء": أجابه الأكتع. فلنمجد الله، الحذر، الذي لم يخلق من موهاراmولا أحد المجاهدين المجنحين، وإلا لكان...

غرقا في الضحك. التفت والدك، منزعجاً، نحوهم: "انتظروا حتى يأتوا، تلك القطط المجنحة الملتحية، عندها سيضعونها لكم في العمق، وقتها سوف تضحكون ضحكة صفراء".

- لا تهتم! فإن كنا نضحك، فذلك لأنها هي موجودة سلفاً في مؤخراتنا!" جعل جوابه كل صالة الشاي تقهقه من الضحك، بما فيهم موها رامولا، عدا مدير الصالة، الذي، مرعوباً، تدخل للقول: اهدؤوا، فسوف يهجمون على المكان، وفي يوم من تلك الأيام فلسوف يمنعونكم عن «الشيخانة» «والساقيخانة».

- سوف يأخذونها منك "شيخانيتك" هذه! لكن بفضل رحمة أخوتنا المسلمين، «البرادار» فالذي ينتشر هنا هو الحشيش،

«الساقيخانية» والمؤخرات المخترقة!" أجاب الأكتع ماسحاً دموعه.

ضحك الجميع من قلوبهم، فقد المدير صبره. ذهب نحو مكتبه، وعاد بقدر من الماء وسكبها فوق العاجزَين الضاحكين. أجفلا وتوقفا عن الضحك "ندفع لك كي ندخن، وتأتي أنت وتفسد علينا كل شيء!" قال الأكتع. وهو ينهض ويتمتم بين أسنانه. غادر الاثنان الصالة وهما مبللان تماماً بالماء.

بقي والدك مغتّماً. التفت نحوي أنا الذي كنت أنظر إليه بهيأتي الفرحة، هذا الفرح، بالتأكيد، لم يكن ليفهمه. كان يجهل أن ليس مزاح صديقيه هو من يفتنني، إنما تواجده هنا، اللقاء الذي طالما تمنيته لأحد أفراد عائلتك، لإشارة منك!

"لا تسخر أيها الشاب، إن القدر هو من يجعلنا مثيرين للسخرية، القدر!" قال لي ببطء، ووقار. بعد فترة صمت قصيرة تابع: "القدر... كأنه هو من أجبر المرآة، في يوم ما، بالاكتفاء بالرماد. أنت تعرف ماذا يعني هذا؟" لم يكن ينتظر جوابي. "هل تعلم أن المرآة عبارة عن زجاج مطلي بالقصدير، ولحظة يمضي الزمن آخذاً معه القصدير، نكتشف عندها الزجاج مع الرماد! نعم، إنه هو، الذي يطلي كل شيء بالرماد... كم هو عمرك؟

– سبع وعشرون عاماً.

– لدي ضعف سنك...وحتى أكثر... لدي حياة كريمة!" غابت نظراته قليلاً ومن ثم تابع: "لدي قلب دامٍ لكن دون دماء على اليدين، يداي طاهرتان".

وأظهر لي ظاهر يديه. «أنا أيضاً قمت بالجهاد،.. لكن على ...» اقترب مني «بقيت لمدة طويلة المدير التنفيذي للأرشيف

الوطني. كان هذا الأرشيف في "سالنغوات" ليس بعيداً عن هنا... في زمن الشيوعيين، الأوائل، هؤلاء الذين كنا ندعوهم «الخلقي» نعم، في ذاك الوقت كان لدينا مدير عام، مدير منحدر من جذور الكلاب، كان يبيع كل المحفوظات للروس. في كل مرة كان يختفي فيها ملف أو وثيقة، كانت تحدوني الرغبة في خنقه. كان يبيع تاريخ وطننا. هل تفهم؟ تاريخ بلادنا! فأنت تستطيع فعل ما تشاء في بلد لا تاريخ له، كل ما تشاء! والنتيجة...»، قتلهُ، وتركني أتخيل دمار نفوسنا. «باختصار، لم يكن بمقدوري فعل شيء ضد هذا المدير. فقد كان من طرف «خلقي» بصق من القرف والتفت نحو صاحب الشيّخانة صارخاً: "موسى، اجلب شاي لل..." هازاً رأسه في اتجاهي. مرّ وقت كأنه كان يحاول أن يتذكر عن ماذا كان يحكي. فساعدته على ذلك». برافو، نعم... الحشيش... إنه يلخبط الذاكرة. لا، ليس الحشيش، عفواً، إنه القدر...إنه يغطي الذاكرة بالرماد! يلزمك الحشيش، كي تتحمل القدر، كمية كبيرة منه كي لا تعود تشعر بشيء. لكن من أين لنا المال؟ لو كنت أملكه لكنت ما زلت في الطابق السفلي الآن، في «الساقيخانا». دعوته إليها، فلم يرفض. نهضنا، وطلبنا من صاحب الصالة أن يجلب لنا الشاي إلى مكان التدخين. نزلنا. كانت الصالة ضبابية مضاءة بنور شاحب لمصباح من البترول معلق في السقف. ينتابك الشعور بوجود نظرات تائهة لرجال صامتين، جالسين في حلقة حول غليون كبير. وجد لنا والدك مكاناً في إحدى الزوايا. جلس يدخنّ، لكنني أنا لم أدخنّ. بدأ الآخرون شيئاً فشيئاً في الذهاب. وعندما بقينا وحيدين، أنا وهو، عاود الكلام: «ماذا كنت أقص عليك؟..» وساعدته مرة أخرى

في استعادة أفكاره. تابع قائلاً: «نعم، هذا الكلب المدير... هذا الكلب، الذي وهبه القدر أجنحة، كان واحداً من هؤلاء الأثرياء الجدد، والذي سمع مؤخراً عن مشروب اسمه الويسكي، لكنه لم يكن قد سبق له وتذوقه. في أحد الأيام، طلب مني أن أجلب له زجاجة. لم يكن يقول ويسكي بل ويتسكيه!» قهقه ضاحكاً. «هل تعلم ماذا يعني «ويتسكيه» في الباشتو[4]؟" هنا أيضاً لم يترك لي الفرصة لأجيب». هذا يعني: «أتريد أن تشرب؟» فترة استراحة ليصبح بعدها أكثر جديّة: «ذهبت لأشتري له كحولاً وطنياً، أسوأ كحول استطعت إيجاده، وأضفت إليه القليل من الكوكاكولا، والقليل من الشاي! حتى أصبح لا يُميزٍ عن الويسكي الحقيقي. عبأته له في زجاجة جميلة وأغلقتها جيداً. بحرفية تامة! وأخذتها له. طلبت سعرها ستمائة أفغانية. في ذاك الوقت كان مثل هذا المبلغ كبيراً، أنت تعرف! بعد ذلك، أخذ يطلب مني مراراً ويتسكيه، فأقوم بتركيب هذا الكحول له. بعد بضعة أشهر، انفجر كبده، مات، وانتهى! "كبوت»[5] فخوراً، سحب نفَساً طويلاً من نرجيلته ونفث دخانها نحو المصباح.

إذن، قل لي يا فتى، ألا يعتبر هذا جهاداً؟ أنا أيضاً أستطيع الإدعّاء أني من أحد المجاهدين، أحد " البرادار"، أحد الغزاة! «نظرت إليه بحزن، لم أعرف بماذا أجيب». مذ ذاك اليوم رحت أستلهم الله وأسأله عن عدالتي، وعن عدالته هو أيضاً! اسمع يا

---

[4] الباشتو: اللغة الأفغانية

[5] Kaputt: كبوت: عندما يربح الخصم كل أوراق اللعب ولا يترك أي ورقة لغيره.

فتى، هذا المدير الكلب لم يكن إلا خائناً يستلزم العقاب. وهذا ما فعلته. لم أستطع انتظار تغيير النظام كي نقوم بمحاكمته!"مرة أخرى يسحب نفساً عميقاً من الغليون، تعقبه فترة استراحة قصيرة" الآن، تغير النظام... اليوم أي غبي كان، يريد تطبيق العدالة، دون تحقيق، ودون محاكمة. مثلي أنا في ذاك الزمن. ماذا غير ذلك! هدف العقاب هو حذف الخيانة وليس الخونة... اليوم أتساءل إن لم يكن هذا النوع من الحكم والعقاب هو بحد ذاته جريمة".

كنت حتى الساعة مأخوذاً بصوت وقسمات وجه والدك، فجأة انتفضت سائلاً إياه إن كان قد سبق وقرأ **الجريمة والعقاب**. رمقني بنظرة من لم يفهم، ومن ثم قهقه ضاحكاً: "لا، يا فتى، لا! إنها الحياة... قرأت **الحياة**!". وصمت فجأة. ولمدة طويلة. صمتت بدوري. كان هو يدخن، وأنا أفكر. وكلٌّ منا في عالمه الخاص. كان عالمي أنا مسكوناً بك. كنت أبحث عن طريقة أجعل بها والدك يتحدث عنك. فجأة عاود الكلام، لكن دوماً عن عالمه هو: «دور «الخَلْقي» كان قد انتهى، وجاء دور الروس. ثم، كان هذا قبل رحيلهم بوقت قصير... راحت السماء تمطر صواريخ من كل حدب وصوب. في أحد الأيام أصاب أحد الصواريخ الأرشيف. كنا جميعاً داخل المكتب، أنا ورفيقيّ الذين رأيتهما للتوّ، ركضنا كي ننقذ من اللهب ما نستطيع من الوثائق الأكثر أهمية. سقط صاروخ آخر، وإذ بنا نحن الثلاثة قد نرتمي أرضاً مضرجين بالدماء». هزّ رأسه، متاسفاً شجاعتهم واندفاعهم. «الآن أصبحنا مقعدين. من الذي سوف يمنحنا الأوسمة؟ من الذي يفكر بنا؟ لا أحد!» يخيم الصمت

من جديد، ومن جديد يغرق في الذكريات، في الندم، والتأسف...
«من ذاك الوقت وأنا في المنزل، مع زوجتي وأطفالي. كان يجب علي إعالتهم، دفع إيجار المنزل. من الذي سوف يدفع كل هذا؟ عندما ذهبت لأطلب المال، شتموني. لأني اشتغلت تحت إمرة النظام الشيوعي، وعاملوني كخائن. لم يكن لدي أي خيار، كل تلك الوثائق القيمة التي حافظت عليها، تركتها لهم مرهونة عند صاحب المنزل. رجل عسكري يعرف قيمتها. لكنه توفي بنوبة قلبية. ولم يبق سوى زوجته وابنته. بعد وفاته كان يجب علي أن أعيد التفاوض على كل شيء مع زوجته... «نانا عليا» امرأة سافلة! امرأة جاهلة قذرة! ليس فقط لم تعد إليّ أبداً الوثائق، بل هي رفعت من الإيجار الشهري للمنزل. لم نعد نملك شيئاً. قامت زوجتي المسكينة برهن مهرها عند تلك المرأة، كل مجوهراتها... ومن ذاك اليوم، أصبحت ابنتي هي من يعمل عندها كي يكون باستطاعتنا دفع الإيجار».

"صوفيا، هي هنا إذن!" أردت الصراخ، النهوض والارتماء بين ذراعي والدك. "ماذا تعمل"؟ سألني والدك مقتلعاً إياي من فرحي الداخلي: "ما هو اسمك بالأحرى؟" أعطيته اسمي، وقلت له أني أعمل في مكتبة الجامعة. بعد فترة صمت مصحوبة بالكثير من الرقة، أردف يقول: "هذا واضح أنك شخص مثقف، وسليل عائلة جيدة". فترة صمت أخرى: "لدي ولدان، فتاة وصبي. ابنتي عفيفة، وبريئة..." نهض. "تأخر الوقت. يجب عليّ العودة للمنزل. سيقلقون عليّ...".

غادرنا غرفة التدخين وتهنا في الضباب والجو الكامد المغبر للغسق. بعد أن سرنا عدة خطوات في الصمت، عاود والدك الكلام وكأنه لم يتوقف عنه أبداً: "لكن الحرب لا تعرف لا الشرف ولا العفة. هذا ما يرعبني في الحرب. فالدماء والمذابح لا تخيفني. بل ما يرعبني هو لحظة تضيع فيها قيم الكرامة والبراءة. ابنتي كوالدتها، هي الأنقى، والأكثر شرفاً..." ومن جديد حلّ الصمت، لمدة طويلة هذه المرة، لحين وصولنا إلى باب منزلكم. "أسكن هنا!" قال لي وهو يفتح الباب. مرتعشاً، مددت له يدي كي أصافحه، لكنه منعني قائلاً: "ألا تدخل؟ لقد دعوتني، وأوصلتني حتى بيتي، وتعتقد أني سوف أتركك ترحل؟" دعاني للدخول. لحظة وضعت قدمي في الداخل، ملأتُ رئتي بلفحة عميقة من الهواء، هذا الهواء المشبع منك. احتفظت به في داخلي، أطول فترة ممكنة... تبعت والدك الذي كان يتقدم في باحة منزلكم الصغيرة، ماشياً تحت عريش الدوالي باستيقاظه الربيعي. كنت أشعر أكثر فأكثر بالاضطراب، أهاب لحظة لقائنا، كانت نظرتي تستكشف كل شيء، أبحث في كل زاوية من زوايا الباحة، مفتشاً خلف النوافذ المغلقة للغرف، ماسحاً بنظري سطح المنزل حيث كان أخوك، وحمامة في يده، ينظر إلينا. "صباح الخير!" قال لنا. "أما زلت فوق السطح؟".

- كان هناك قط يتجول هنا" أجاب أخوك بمكر. التفت والدك نحوي: "إنه داوود، ابني، فمنذ أن أغلقت المدارس أبوابها، راح يعتني بحمائمي. لم يعد باستطاعتي الصعود للأعلى". دخلنا المنزل. قادني والدك نحو غرفة معتمة، قام بإشعال شمعة، ومن ثم غادر،

تاركاً إياي أستمتع بملاطفة البساط الوحيد الذي على الأرض بقدمي. كل شيء اهتاج من خفقان قلبي العاشق، ترددت في الجلوس فوق إحدى الفرشات الثلاث. كنت أتساءل إن كنت تعرفين أني هنا، في منزلك. آه كلا، ففي ذاك المساء لم أستطع رؤيتك، يا محبوبتي. بعد العشاء غادرت منزلكم على أمل العودة مرة أخرى.

في صفحة أخرى:

يوم الجمعة الفائت، وأنا على وشك التقلب في سريري مفتشاً عن حجة كي أذهب فيها لعندك كي أراك، انتزعت بحدة من خيالاتي على وقع صوت انفجار قنبلة هزَّت الحي كله. مأخوذاً بالرعب، أسرعت في مغادرة الغرفة، مدفوعاً بشعور غريب، وهو الركض ناحية الانفجار. ما شاهدته جمّد الدم في عروقي. لم تعد صالة الشاي غير ركام من النيران، تتصاعد منها رائحة حرّيفة. انهمك رجال ونساء في كشف الجثث المطمورة تحت الأنقاض. استطعت أن أفهم مما قالوه أن البعض استطاع النجاة، لكن البعض الآخر كان لم يزل معلقاً تحت الأنقاض. رحت أساعدهم بتخليص الضحايا. بين الأحجار المنهارة، وجدت والدك ينازع. وضعته في عربة وأعدته إلى المنزل.

وأنت، في ذاك اليوم، من فتح لنا الباب" .

لم تتعرف صوفيا على رسول وهو بلحيته الكثيفة. وهو بدوره لم يقدم لها نفسه. ولم يحصل هذا إلا عندما جاء الطبيب، وغادر رسول كي يجلب الدواء، فراحت شيئاً فشيئاً تتذكر وجهه. حصل

كل هذا في لحظة النزع الأخير لوالدها، مما جعلها تنسى فوراً الفرح المستعاد. في المساء نفسه، كان قدر صوفيا يرتاح بين يديه، بين يديه الفارغتين، لكن القويتين.

وهكذا، وجد عائلة أخرى عرفت فيه الرجل، المنقذ، والحامي... وكلها صفات هامة لشخص بهذه الكبرياء.

لكن ها هو اليوم، متضايق، غير واثق، على حافة الهاوية، ضائع في هواجسه، غارقٌ في كوابيسه، تحت ضوء القمر الهارب من فوق الجدران.

ينكسر ظل النافذة الآن فوق جسد محموم.

6

صرخة أخرى من جديد، الصرخة ذاتها التي انطلقت منذ قليل، لكن أكثر حدة، ومن ثم أنين، أكثر ألماً، مزقا صمت الغرفة، واخترقا بقوة نوم رسول، الذي ينتفض ويجلس في سريره، حابساً أنفاسه كي يصغي بانتباه أكثر. من أين يأتي هذا الأنين؟ ممن؟ يجبر نفسه على النهوض منهك القوى، والألم في قدمه، يجعله يشعر أنه مربوط من كاحله. يجرّ نفسه حتى أسفل النافذة، ويرفع رأسه كي يرمي نظرة على باحة البيت. يميز في البداية ابنتي يارموحمد، اللتين ـ بيد كل منهما مصباح ـ تنظران، بصفاء غريب، نحو الشجرة الميتة التي لم يكن بوسع رسول رؤيتها بوضوح. يرفع

نفسه قليلاً. ما يراه يجعل أنفاسه تتقطع: يخرج يارموحمّد من الرواق وبيده سكين كبيرة. يهجم على الجسد العاري لامرأة معلقة من كاحليها في غصن الشجرة بواسطة حبل الأرجوحة. تتجه أنظار رسول المرتعبة نحو نافذة، من خلفها يستطيع تمييز رونا، التي تمسك هي الأخرى بيدها مصباح - عاصفة. لكنها لم تكن تنظر لا للشجرة، ولا لزوجها، ولا لابنتيها. كانت تهّم بإرسال القبلات إليه، خفية، في الهواء. يصاب رسول بالدوار، يقترب أكثر من النافذة. يارموحمّد يقوم بتدوير الجسد، فيظهر وجه المرأة. إنها صوفيا. يصرخ رسول، صرخة مخنوقة، ميتة في صدره. يبدأ يارموحمد بتقطيع ثدييّ الفتاة، فيتحول الأنين إلى عواء. عاجزاً عن الوقوف على قدميه، راح رسول يضرب النافذة بشراسة. يارموحمد، رابط الجأش، ينتهي من تقطيع ثديّ صوفيا التي توقفت عن الصراخ والأنين. يتابع رسول ضرب النافذة حتى ينكسر الزجاج.

فجأة، يُفتح الباب، يعمي بصره ضوء قوي لمشعلين، ويسمع صياحاً مرعباً لرجال ملتحين، مسلحين بالكلاشينكوف، يقتحمون دفعة واحدة غرفته. رسول، الذي انهار عند النافذة، وسط شظايا الزجاج، يصارع كي ينهض. ينقضّ أحد المهاجمين عليه، واضعاً العصا على رأسه مع الشعلة، بينما يفتش الآخر داخل طيات الكتب. "أيها الشيطان الشيوعي، تختبئ كالفأر!" يغلق رسول عينيه ومن ثم يفتحهما على أمل رؤية ظلال هذا الكابوس تختفي. لكن دون جدوى، إنهم لا يزالون هنا. وأنت لم تعد تحلم. دافع عن نفسك، هيا افعل شيئاً ما!.

ماذا؟

طمئنهم، قل لهم أنك لست شيوعياً، وأن هذه الكتب الروسية ليست دعاية شيوعية، إنما هي أعمال دوستوفسكي. هيا اصرخ!

"اعتدى الروس على أمك!" يفتح أحد الرجال فم رسول بكتاب، وهو يقول له هذا، فيسيل الدم.

فلتنسَ الآن دوستوفسكي! قل شيئاً آخر، توسل إليهم، احلف باسم الله....

يحاول، لكن الله لم يعد له صدى في حلقه.

يضربه أحد الرجال بقوة أكبر، ويرميه أرضاً. هنا، يلمح رسول يارموحمّد الذي كان واقفاً عند مدخل الباب، ينظر باستمتاع للمشهد. يكلمه أحد الرجال قائلاً: "منذ متى وهو يختبئ هنا؟" يتقدم خطوة كي يجيب بخنوع: "منذ أكثر من عام... أقسم لك، أني أجّرته الغرفة بسبب الصداقة التي تربطني بابن عمه. فابن عمه رازمودين، من المجاهدين الأبرار والمستقيمين... أقسم بالله أنه يخبئ كتبه هذه حتى عن ابن عمه. رازمودين ليس من نوع الرجال الذين يكفلون أحد الأشرار الشيوعيين، حتى ولو كان أخاه..." مشمئزاً، أراد رسول أن يحتجّ، ينهض كي يهجم على يارموحمّد، كي يخنقه، يضربه، ويجعله يعود إلى رشده. القليل من الكرامة يا يارموحمّد! لكن الركلة التي تلقاها أسفل بطنه جعلته يتراجع وينثني من الألم. "أتريد الهرب؟"

أهرب؟ لا... "لماذا كسرت النافذة؟" النافذة ؟... لا، لكن هذا... شيء غامض، يستقيم رسول بصعوبة، كي ينظر باتجاه الباحة حيث بدا كل شيء مظلماً، وصامتاً.

ينتابه اضطراب كامل. تعود نظرته القلقة نحو يارموحمد، نحو يديه الفارغتين، والنظيفتين.

"هيا تعال معنا إلى المركز العسكري!" يقتادونه، حاملين تحت أذرعهم بعضاً من كتبه كدليل على جريمته.

عند مروره أمام يارموحمد، ينظر إليه رسول مباشرة في عينيه كمن يريد أن يقول له بأنه سوف يدفع ثمن جبنه. يسمعه يتمتم: "رازمودين أيضاً، سوف يضع لك هذه الكتب عميقاً في مؤخرتك!".

هذا ليس صحيحاً، هؤلاء الرجال لم يأتوا لعندي في هذه الساعة المتأخرة كي يضربوني بسبب كتبي. لا بد وأن أحداً ما قد أبلغ عن جريمة الأمس. انتهى كل شيء! المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي. إنها هي. لقد تخلصت مني. أنا أيضاً، سوف أقر بكل شيء. سوف أقول أنها شريكتي في الجريمة. لا يحق لها العيش بسلام، دون أن تشاركني جريمتي وعقابي.

7

أتراني ما زلت نائماً؟

وهذا الصمت - المشوب من وقت لآخر بهمسات، وصوت خطوات خافتة، وأنات مخنوقة... - هل ألتقط هذه الأصوات في أحلامي؟

هيا افتح عينيك وسوف تعرف.

يفتح بسرعة عينيه. لكن نوراً أبيضَ يعميه. يغلق جفنيه كي يعاود فتحهما بهدوء. لم يزل الضوء الأبيض ذاته. يصيخ السمع. الأصوات ذاتها. إنه ليس حلماً إذن؟

كلا، إنه متأكد. هذه الأضواء الشاحبة، هذه الجدران البيضاء، وهذه الأصوات المختنقة، تعطيه الإحساس أنه في مشفى... عدا عن كونه ليس مستلقياً في سرير أبيض. هو بالكاد يستلقي فوق أريكة قديمة من الجلد، مصحوباً بهذا الثقب في الذاكرة الذي يحاول جاهداً أن يملأه بالصور والأصوات التي تجتاحه بقوة: الرجلان اللذان أوقفاه تعسفياً في غرفته، باب «وزارة التربية والتعليم» شعاع ضوء مبهر من الحارس الذي قاده، الرجلان اللذان يحرسانه كي يصعد درج المبنى، الألم الممض في كاحله، رواق طويل، مضاء بمصابح خافتة، حيث ينام فتيان مجروحون معدون في زاوية، بينما آخرون يدخنون جالسين على كراسي، أو فوق أرائك قديمة مخلّعة. أبعد قليلاً، يجلس آخرون على الأرض حول غطاء، يأكلون الخبز والجبن، وعلى مسافة أبعد قليلاً، ثلاث أو أربع رجال كانوا على وشك تنظيف إحدى العبوات الروسية القديمة الناسفة، ورجل مسن يردد عبارات من القرآن، وآخر يطبخ على طبّاخ، مالئاً الغرفة بروائح حرّيفة ودهنية... يجتاح رسول شعور غريب ومقلق. يعتقد أنه يعيش مشهداً سبق أن عاشه من قبل. يظن بأنه يجتاز، يروح ويجيء، في الطول والعرض، هذا الرواق اللامنتهي، تحت نظرات مريبة وثقيلة.

يفقد وعيه. فيغدو كل شيء أسودَ.

ها هو الآن هنا، يجلس أمام رجل وقور، خلف مكتب ضخم، يقلّب كتبه الروسية، يتصفح الأوراق التي تتبعثر داخل الكتب، ومن خلفه، يقف الملتحيان اللذان اقتاداه إلى هنا.

لحظة يستقيم في جلسته، يشدّ انتباه الرجل الجالس خلف مكتبه. فيتوقف عن القراءة، هادئاً، معتمراً "الباكول"[6] مستدق الوجه، مسفوعاً من الشمس، مع لحية مشذبة بعناية. وبابتسامة لطيفة يسأل رسول: "*«واتاندار»*[7] من أين أنت؟".

«واتاندار» إنها تسمية مطمئنة، تعبير منسي تقريباً من يوم أن قامت حرب الإبادة تلك بين الأخوة. اليوم، نادرون هم من ينادون "أيها المواطن" لهؤلاء الذين ليسوا من معسكرهم. لا تخشَ شيئاً إذن يا رسول!

في الواقع لا شيء لأخشاه. سوف أجلس بشكل لائق فوق الأريكة، وأجيب بهدوء شديد أني من كابول.

تتحرك شفتاه. لكن لم يخرج اسم بلده الأم إلا نفَساً مكتوماً وغير مسموع. "لم أسمعك" يقول الرجل وهو ينحني فوق مكتبه.

أتراه قد نسي أن صوته قد انطفأ؟

يسعل سعالاً داخلياً كي ينظف حنجرته. لكن دون جدوى، لم يهتز أي صوت.

يحاول أن يحرك يديه، أن يقوم بإشارات، أن يظهر تفاحة آدم، أن يضمها بعصبية بين أصابعه، كمن يريد أن يقول أنه لا

---

[6] الباكول: عمامة أفغانية.

[7] واتاندار: سلام للمواطن.

يستطيع الكلام. "هل أنت أبكم؟" لا، يشير إليه. "هل تسمع؟" نعم، "أنت مريض؟" مممم، نعم.

غاص الرجل داخل كنبته، يرمق رسول بنظرة ارتياب، ويسأله: "من أي معسكر أنت؟".

لا أنتمي لأي معسكر! ينفث رسول، لكن الكلمة بقيت مسجونة داخل حباله الصوتية، ويداه تتحركان في كل الاتجاهات وهو يحاول أن يصف هذا التعبير. ينهض الرجل من كنبته، ويمد نحوه بقلم، يأخذه كي يكتب: "ولا من أي معسكر" يقرأ الرجل. ومن ثم يتفحص رسول، يريد أن يسأله دون شك، كيف بإمكانه العيش فوق هذه الأرض الممزقة بالحرب الأهلية، دون الانتماء إلى أي معسكر! لكنه يقول: "من أية إتنية أنت؟" يخربش رسول: *"ولدت في كابول"*. لا شيء أكثر. لم يبدُ الرجل مقتنعاً به، ولا بالجواب الذي كتبه: "أين تعلمت اللغة الروسية؟".

يكتب رسول: «*كنت طالباً في روسيا*» يقرأ الرجل إجابته بصوت عال، ويسأل: "وماذا كنت تدرس؟" «*القانون*» يكتب رسول، ثم بعد لحظة تردد أخرى يضيف: «*وأقرأ هذا اللعين دوستوفسكي*» يقرأ الرجل، يضحك ويسأله: "ولماذا *هذا اللعين دوستوفسكي*؟" يقوم رسول بحركة من فقد صبره، وينظر إلى قميصه الملطخ بالدماء. يعاود محاوره الكلام: "هذان «الوتانداران» جاهلان. بالنسبة إليهما أي كتاب في الروسية يعني بالتأكيد تبشيراً بالشيوعية"

حسناً، رسول، ها قد نجوت. بإمكان هذا الرجل فهمك. لا يجب أن تفوّت هذه الفرصة كي تعرف القليل عن سبب توقيفك. لكن من أين تبدأ؟ أتراه يعرف دوستوفسكي؟

يكتب، والآخر يقرأ ويجيب: "نعم، عندما كنت طالباً كنت أقرأ هذه الكتب، في اللغة الفارسية طبعاً. كنت طالباً في المعهد البوليتكنيك[8]. لكن بعد أحداث 1981 التي جرت ضد الغزو الروسي، تركت دراستي كي ألتحق بالمجاهدين. وأنت، هل كنت في ال... الكومسومول؟"[9] إنه خبيث، أكثر خبثاً مما تتصور. لن يدع نفسه يُستجوب من قبل فتى كابولي مثلك. لا تلعب معه. ففي هذه اللحظات حياتك بين يديه. يستطيع أن يسحقك بنفخة. لا تكن متعجرفاً. هيا قدّم نفسك ببساطة وتواضع: أنت قضيت بضع سنين في لينينغراد... لا، يجب أن تقول في سانت بترسبرغ. تحدث عن حوادثك المؤلمة، عن صراعك مع والدك الشيوعي الذي أرسلك إلى الاتحاد السوفياتي ضد رغبتك، كي تدرس. لم تبق هناك أكثر من ثلاث سنين، من عام 1986 إلى 1989. هناك، تعرّفت على فتاة تدعى *كوسينك*، «صوصي الصغير». لا، فلتترك جانباً تلك القصة عن غرامك بفتاة روسية. فهذا المجاهد سوف لن يستسيغ الحديث عن هذا النوع من المغامرات مع فتاة *كافرة*. اكتب فقط أنك تعرّفت هناك على أحد المتخصصين بدوستوفسكي. أعطاك هذا الكتاب الأول *الجريمة والعقاب*، الذي قلب حياتك رأساً على عقب. فطار على إثرها كل شيء في الهواء.

آه، لا! هذا قول طويل جداً للكتابة. يجب أن تكون موجزاً، ودقيقاً.

---

[8] البوليتكنيك: معهد متعدد الفنون.

[9] الكومسومول: الشبيبة الشيوعية الروسية.

راح يختصر حياته، لكن ما إن انتهى من كتابة الجملة الأولى حتى توقف على وقع صوت الرجل الرنّان والمدروس. يقرأ الآن إحدى مخطوطاته - إنها عبارة عن مقتطفات من كتاب الجريمة والعقاب، الذي قام رسول بترجمتها - يتوقف كي يقول أنه منذ زمن كان قد قرأ *للشياطين*، لكن ليس هذا الكتاب. قفز رسول كي يبحث بين أوراقه عن الترجمة التي قام بها للغلاف الخلفي الرابع لرواية ***الجريمة والعقاب***. يجدها ويقدمها له. ينتزعها الرجل ويأخذ في قراءتها بصوت خافت: *" الفعل الأساسي في هذه الرواية هو قتل العجوز المرابية، في منزل في سانت - باترسبورك، من قبل الطالب راسكولنيكوف: ربما كانت ردة فعله تجاه الجريمة، أو تأثير صونيا أو ربما قدرة داخلية غامضة، هي من جعله يبّلغ عن نفسه، فيصبح هدفاً للعقاب الذي يناسبه تماماً. ومن خلال سنوات سجنه، ينكشف أمامه عشقه لصونيا، كما طريق الخلاص.*

يهزّ الرجل رأسه كي يعبر عن إعجابه، ومن ثم يفكر بصوت عال: "إنه درس جيد للمجرمين". يعض رسول شفتيه، شفتاه اللتاًن تتحركان دون فائدة كي تصيغا ألف كلمة وكلمة بفحوى هذا الكتاب. كان يحب عرض دوافع هذا المجرم لألف مرة ومرة: لم يكن هذا بهدف السرقة، بالنسبة لراسكولنيكوف، فالمرابية هي حيوان مؤذٍ يسرق المال من البؤساء، وقتلها ليس إلا عدالة، يؤكد راسكولنيكوف عند انتهائه من هذا العمل، انتماءه للعقل المتفوق الذي يُصنّف «فيما وراء الخير والشر» بالنسبة إليه، جريمته هي خرق كامل للقانون الأخلاقي والاجتماعي، إنه يبرهن على الحرية

والاستقلال... كما كل رجال التاريخ العظماء، مثل محمد، ونابوليون أو....

كم هذا مؤسف!

"... يبدو هذا كتاباً مهماً. إنها رواية صوفية" يتابع الرجل بلهجة جدّية. ويستمر رسول في لعن فقدان صوته، وعجزه عن القول أن دوستوفسكي، في الواقع، ليس كاتباً ثورياً ولا شيوعياً، لكنه كاتب صوفي. هو بالذات كان قد كرّر هذه المقولة عنه عدة مرات، لكن أساتذته الروس لم يوافقوا على هذا. هم لا يعجبون بهذا النوع من التحليل الغارق في شرقيته. كما أنهم لا يحبون كثيراً دوستوفسكي. في روسيا، لم يكن هذا الكاتب مستساغاً أبداً من قبل الشيوعيين. ينبغي قراءة أفكار دوستوفسكي فيما وراء علم نفس الإنسان لنصل إلى الميتافيزيقيا. هذا الكتاب «*الجريمة والعقاب*» هو للقراءة في أفغانستان. البلد الذي كان في السابق صوفياً، والذي أضاع اليوم كل شعور بالسؤولية. كان رسول مقتنعاً أننا إن قمنا بتدريس هذا الكتاب هنا، فسوف لن يكون هناك المزيد من الجرائم!".

يا للروح الساذجة!

هيا انسَ دوستوفسكي، وانفد بجلدك، اصغِ لهذا الرجل الذي يسألك: "لحظة يرجع إليك صوتك، تعال لتراني، ونتناقش بكل هذه المواضيع بهدوء". موافق، يقول رسول بإشارة من رأسه دون أن يكون مقتنعاً تماماً. "لن يزعجك رجالي بعد الآن" يقول له الرجل وهو يلملم الكتب. ثم ينظر لرسول بفضول، عندما يتذكر إحدى التفاصيل: "يوجد شيئ ما يحيرني بك" ماذا؟ "قال لي جانو أنك

كنت على وشك الهرب عندما وصلوا. لماذا؟" لا، هو لا يريد الهرب، صدِّقه. كان يرى كابوساً. وكان الباب والنافذة محكمي الإغلاق. فلم يتوصل لفتح أي منهما، انظر ليديه، إنهما مجروحتان.

لكن كيف لنا أن نصدق أن بالإمكان كسر النافذة في المنام، أثناء الكابوس!

ينظر الرجل ملياً ليديّ رسول الممتدتين نحوه. وبلهجة متأسفة يقول: "يجب علينا أن نجعل الأمن مستتباً في هذا الحي. لكن هذا صعب. لا يكفي نزع السلاح من الناس، نأخذ منهم سلاحهم، فيأخذون السكاكين، والفؤوس... بالأمس، أحد الأشخاص قُتل بالفأس، في وضح النهار". قضي الأمر، ها هم قد اكتشفوا جثة «نانا عليا»، وها أنا ذا، القاتل، يجلس أمام المسؤول عن الأمن في المدينة!

يصبح رسول شاحباً، وينهار على الأريكة."ما الذي يجري «واتاندار». يهتزّ رسول، وينظر للرجل وشفتاه ترتعشان". تبدو متعباً جداً. خذ كتبك وارجع إلى بيتك. سوف نلتقي في يوم آخر، وسوف نتناقش." يغمز له بعينه، يأخذ بندقيته ويذهب كي يوقظ جانو ورفيقه. "هيا يا رجال، خذا هذا الشاب إلى منزله!" يلتفت ويوجه السؤال نحو رسول: "ما اسمك؟" يكتب رسول اسمه. "رسول، نحن بحاجة لأشخاص مثقفين مثلك، أقصد لخدمة الوطن والإسلام. تعال غدا كي تتسجل وتساعدنا في إحلال الأمن في الحي. فأنت ابن هذه المنطقة. تعرف تحركات، وماضي كل شخص. تعرف ماذا يوجد في كل بيت، وماذا لا يوجد...".

يبتسم ابتسامة مهدئة وهو يتجه نحو الباب، يعود ليلتفت من جديد نحو رسول: "تعال واطلب «براويز»، هذا اسمي" ويذهب. الثعلب! من المؤكد أنه يعرف كل شيء. لكن ماذا يريد مني؟

"هيا، راسولوفسكي، تحرك!" يطلب منه جانو، ناعساً. يبقى رسول جامداً. "ألا تريد العودة إلى بيتك؟".

8

قبل الدخول إلى باحة المنزل، لم يرغب رسول إلا بأمرين: بداية، ألا يرى دماءً تحت الشجرة - لم يزل متشككاً بأمر كابوسه - ثم ألا يلتقي بيارموحمّد. لم يرغب أن يلوث يديه بدماء هذا الرجل الوسخ، هذا الرجل الذي يكرهه، لأن الموت هو هبة بالنسبة لرجل مثله. يجب أن يتسلل إلى حياته، يطارد عقله، يمتلك أحلامه، ويصبح قدره.

يدخل إذن. كتبه تحت ذراعه. في عتمة الليل الشاحب، يقترب من الشجرة، يمرر يده تحت جذعها. يتفقد الأرض، عند أقدام الشجرة. لا يوجد أي أثر للدماء. ينهض ويرفع نظره باتجاه غرفته. كان الزجاج قد كُسر بالفعل. يلتفت نحو نافذة يارموحمّد. بعد لحظة قصيرة من التردد، يقترب كي يصرخ أنه قد عاد، سالماً معافى. تعلّق صرخته في حنجرته. عندئذ، يقرع على النافذة. يتحرك رأس يارموحمّد المحلوق في العتمة، بوجه مهزوم، حريص

على ألا يوقظ زوجته وأولاده، يطلب من رسول أن يهدأ. لكن دون فائدة. يتابع رسول ضرباته على الزجاج. ومن ثم يلّوح بكتبه، ويرفع إصبعه الوسطى في وجه يارموحمد . بعد أن يفعل ذلك، يدير له ظهره، ويتجه نحو غرفته. مرتاحاً ومنتصراً.

هيا اذهب، يا يارموحمّد، نمّ الآن، فلتحل عليك كل الكوابيس! سوف ألاحقك في أحلامك.

تحدوه رغبة في الصراخ لحظة دخوله إلى غرفته. أن يزعق من الفرح، أو من الخوف. يزفر بشدة، كي يستخرج نفساً، حارقاً، لكن دون فرح ولا رعب.

يسيل عرق بارد في ظهره. يرمي الكتب على الأرض، يشعل شمعة. تبقى النافذة المكسورة تربكه أكثر من أي شيء آخر. لم يتوصل لمعرفة كيف استطاع كسر النافذة في حلمه.

أتراني قد أصبحت مجنوناً؟ ألا يقولون أن أولى علامات الجنون تظهر لحظة يتجاوز الكابوس الحلم كي يدخل ويتموضع داخل اليقظة؟

يائساً، يخلع حذاءه، ويستلقي. كان يخشى إغماض عينيه. خائفاً من كوابيسه. نعم، هم شياطين السرير، ظلال الليل، تلك التي تسرق مني صوتي، وتجعلني أغدو مجنوناً. سوف لن أنام بعد الآن!

لكن التعب أقوى من إرادته، يغلق له عينيه، ويدفعه نحو هاوية الظلمات، ولم يخرج منها إلا على دوي انفجار صاروخ ليس بالبعيد. يجفل. يجلس، مبللاً بالعرق. لسانه لم يزل جافاً، وصدره ملتهباً.

من جديد يحلّ الصمت.

ويبتلع الجبل القمر.

ويستهلك الليل الشمعة.

وتخدّر الظلمة الغرفة.

ينهض رسول. بعد أن يلصق شمعة أخرى فوق جثة الشمعة المحترقة، يشرب القليل من الماء، ومن ثم يعود إلى سريره. لم يرغب في أن يستلقي، فيبقى جالساً، مستنداً على الجدار. ماذا يفعل؟ يقرأ كتاباً. ينحني كي يلتقط كتاباً لا على التعيين، لكنه لا يلبث أن يرميه، ويبحث عن الجزء الأول لرواية *الجريمة والعقاب*، يفتحه عند صفحة راسكولنيكوف، بعد الجريمة، يعود إلى منزله... *ينام. ويبقى هكذا لفترة طويلة. حتى يبدو له وكأنه قد استيقظ، وفي تلك اللحظات، ينتبه أن الليل قد أرخى سدوله منذ وقت طويل، بينما، لم يكن لديه رغبة في النهوض. يلحظ بعدها أن الضوء يلمع كأنه في وضح النهار. كان يتمدد على طوله فوق الأريكة، لم يزل منهولاً من هذا الغياب الذي استولى عليه. يتناهى له عويل يائس، مرعب، آتياً من الشارع، عويل، يظل يسمعه في كل الليالي، تحت نافذته، نحو الساعة الثانية صباحاً. هذا العويل هو الذي جاء ليوقظه في هذه الساعة، آه، إنهم السكارى الذين يخرجون الآن من الحانات، يقول لنفسه، ها قد مضت ساعتان، ثم، فجأة، يقفز، وكأن أحداً قد جاء لينتزعه من الأريكة. كيف! هل مرّت ساعتان حتى الآن! يجلس فوق الأريكة! وهنا، يتذكر كل شيء! دفعة واحدة، وبلحظة واحدة، تذكر كل شيء!*

في اللحظات الأولى اعتقد أنه سوف يجن. اجتاحته برودة قاتلة، *لكن*... هذه البرودة لا تأتي من الخارج. كلا، الطقس ليس بارداً أبداً. إنها بالأحرى برودة، برودة غريبة تخرج من الأعماق، تفوح من الغرفة، من جدرانها الرقيقة، من عوارضها المسودة والقذرة.

ينهض ويذهب باتجاه النافذة كي يفتحها، يا للطقس الجميل! ينتعل حذاءه ويهبط الدرج مسرعاً، يجتاز الباحة، متحاشياً الالتقاء بالمالك. يجد نفسه في الشارع. قلبه مفعم بالفرح، رشيقاً، يتجه نحو النهر. هناك رجال، ونساء، في كل مكان، شبان وشابات، موسيقيون، يتنزهون تحت شمس الظهيرة، على شاطئ نهر النيفا، يتجول وسط المارة. لا أحد يلحظه. لا أحد يرمقه بنظرة مريبة، مع ذلك، لا يمكن أن يمر دون أن يلفت إليه الأنظار بثيابه القديمة والمبقعة بالدماء،. كم هو مفرح أن يغدو غير مرئي لا يلحظه أحد! مأخوذاً بروعة لا مرئيته، يلمح فجأة، بين الحشد امرأة ترتدي *الشادور* الأزرق السماوي. ماذا تفعل هنا في سانت ـ بترسبورغ؟ ها هي تمر تماماً قربه. مشدوهاً، يتأملها ملياً، تبدو مشيتها مألوفة. ثم لا تلبث أن تختفي بين الحشد. يستعيد وعيه أخيراً ويحث خطاه. ينتبه إلى أن المرأة ذات الشادور الأزرق تجتاز تقاطع طرق مزدحم. يبدأ بالركض حتى تتقطع أنفاسه، ويكون باستطاعته مدّ يده والتقاط المرأة. ينجح في الإمساك بها من شادورها، وينتزعه. تبدو المرأة عارية. مرعوبة، تتقوقع على نفسها كي تداري عريها ووجهها، وأيضاً كي تخبئ شيئاً ما في يدها. إنها صوفيا. تمسك بقوة بين ركبتيها صندوق مجوهرات «نانا عليا». ينظر إليها رسول، حائراً، ويتمتم شيئاً ما غير

مسموع. يغمض عينيه أمامها، ويرتمي على قدميه كي يصرخ، ويشكر صوفيا. يشعر بأنه قد نجا، لقد أنقذته. تهزه يدٌ. "رسول! رسول!" هذا ليس صوت صوفيا. إنه صوت رجل. صوت رجل يعرفه. إنه رازمودين، ابن عمه، لكن أين هو؟

إنه هنا، أمامك، في غرفتك، هيا افتح عينيك!

ينهض رسول بشكل مفاجئ، وهو بين اليقظة والصحو، تاركاً كتاب *الجريمة والعقاب* الموضوع على صدره، يسقط على الأرض. "رازمودين؟" يحرك اسم ابن عمه شفتيه ولا يلبث أن يضيعّهما. يسعل ويتظاهر وكأنه يقول: "سلام". ينظر إليه رازمودين بقلق، راكعاً بالقرب منه، "أأنت بخير يا ابن العم؟" يفتح رسول عينيه على اتساعهما، ومن ثم يعود ليغلقهما، حالماً. "ماذا دهاك؟ هل أنت بخير؟" يلّح رازمودين. يهزّ رسول برأسه موافقاً، ويستقيم جالساً على الحشية، هارباً بنظره نحو النافذة المكسورة للغرفة. كان النهار قد أشرق، لكن الشمس لم تزل سوداء، سوداء من وراء الدخان. "هل تريد أن آخذك عند الطبيب؟" كلا، أنا بخير، يشير رسول. "نعم، هذا يبدو واضحاً! قل لي ماذا يجري؟" قلقاً، تتمهل نظرة رازمودين مطولاً فوق بقعة الدماء التي فوق قميص رسول. "ما هذه الدماء؟ هل ضربوك؟".

بعد لحظة تأمل قصيرة، ينهض رسول واقفاً كي يلقي نظرة نحو الباحة، فيشاهد يارموحمد يراقبه. يقوم بإشارة إليه كي يصعد إلى غرفته. لكن يارموحمد ينسحب نحو بيته. "اتركه! لقد جاء إلى مكتبي، كي يحكي لي كل شيء، كان شاحباً وهو يقول أنه لم يكن هو من... وهذا صحيح. في ذاك اليوم حدثت مداهمات كثيرة.

خصوصاً في هذا الحي... أنت تجهل ما يجري في هذه الأيام في البلاد. لست أعلم في أي عالم أنت غارق، أنت لا تهتم...." قف، رازمودين، من فضلك! انظر ما فعلوا به.

يتوقف رازمودين، لا كي ينظر إلى حالة رسول، بل كي يسمع ما سوف يقول. ينتظر لبرهة. دون أن يسمع أي كلمة. يتضايق. يرفع رسول أكمامه كي يظهر له البقع الزرقاء العديدة. "يا لأولاد العاهرة! لكن أنت أيضاً كنت أبلهاً. لماذا في وقت كهذا ما زلت تحتفظ بكتب روسية كهذه؟" عاوده ألم كاحله. يلتوي وجهه ويعود لفراشه كي يدلكه. يقيسه ابن عمه بنظره: "دوستوفسكي! دوستوفسكي! تضع نفسك دوماً في القذارة أنت ودوستوفسكي خاصتك ذاك! كيف تريدهم أن يعرفوا دوستوفسكي؟".

هم ليسوا جميعاً جهلة مثلك رازمودين، فالقائد براويز، لا بد وأنك قد سمعت باسمه، هو يعرفه. جنوده هناك، في الجهة المقابلة لفندقك، في وزارة التربية والتعليم. لكن في حالتي الراهنة، لا أستطيع أن أحدثك بهذا الأمر.

اكتبه له!

ما الفائدة من ذلك؟ فأنا أكثر راحة هكذا، دون أن أنطق كلمة، دون محادثات لا تنتهي. سأتركه في حيرته أمام بكمي.

قال لي يارموحمد أنهم اقتادوك إلى مركز القائد براويز. أنا أعرفه". ها هو، أنت محق." أثناء مظاهرات في عام 1979، كنا في السجن معاً. أنت محظوظ كونك وقعت تحت يديه. هل حدثته عني؟" يهز رسول رأسه بالنفي، ومن ثم ينهض كي يتمركز من جديد خلف النافذة. يارموحمد على وشك العودة إلى الباحة. يعود

رسول ليشير إليه بالصعود. "انسه، لقد انتهى الأمر، لقد أعطيته إيجارك المتأخر للشهرين السابقين، سوف يتركك وشأنك الآن" منزعجاً من كرم ابن عمه، يعود رسول بخطى بطيئة نحو سريره، يحاول أن يقول له بالإيماء أنه ليس مجبراً على ذلك، وأنه هو من كان سيدفع له... هي الكلمات نفسها التي خرجت منه في المرة السابقة لحظة دفع عنه رازمودين إيجار ثلاثة أشهر كانت مستحقة عليه.

"كيف كنت ستدفع؟! فشلت في كل شيء. انظر في أي حالة أنت. تبدو كشحاذ، أو مجنون فار من الملجأ!"عاد رازمودين يقول له.

إذن! لا فائدة ترجى من بذل الجهد لرسول كي يجعله يفهم. لكن مع ذلك، يأمل رازمودين بسماع رسول. لم يفهم لماذا يتحاشى الحديث معه. ينظر إليه ينهض وينبش بين أكوام من الثياب، كي يخرج قميصاً، لكن القمصان كلها قذرة ومجعدة. يعرف رسول ذلك، لكن كي لا يبدو كأنه لا يريد إجابة رازمودين، بل كي لا يجعله يعرف بمسألة فقدانه لصوته. إنهما أبناء عمّ، وهما يعرفان بعضهما البعض جيداً. هما يتفاهمان في كثير من الأمور، حتى وهما صامتان. مع ذلك، فقد أصّر رازمودين كعادته: "رسول يجب أن تفعل شيئاً، إلى متى ستبقى تعيش هكذا؟ لو كنت مثلك أتقن العديد من اللغات، لكنت جمعت الذهب بالمجرفة. هؤلاء الصحفيون الأجانب، وتلك المنظمات الإنسانية، جميعهم بحاجة إلى مترجم. كل يوم، ولمئات المرات يسألونني إن كنت أعرف أحداً يتكلم اللغة الإنكليزية، حتى ولو مجرد مبادئ اللغة. لكن كيف لي أن أتجرأ

وأعود فأعطيهم اسمك؟ فقد سبق ووضعتني في القذارة. أكثر من عشر مـرات عضضـت أصـابعي نـدماً". وكالعـادة، فسـوف يسـامحه رازمودين: "إن كنت ترغب، فباستطاعتي نسيان الماضي، وتقديمك من جديد. لكني أرجوك يا ابن العم، لا تلُم أبداً الصحفيين. مـا الفائدة التي سوف تجنيها من معرفة من يعمل لمصلحة مـن، ولمـاذا يدافعون عن معسكر ولا يدافعون عن آخر. خذ الدولارات ومـن ثـم اركلهم هم وأفكارهم ومواقفهم السياسية إلى مؤخرتكَ" لكن هذه المرة لم ينتظر رسـول لينخـر لـه أذنيـه بشـعاره: «أفضـل الجريمـة عـن الخيانة!» لهذا فقد تابع: "مـن السـهل عليـك القـول أنـك تفضـل الجريمة عن الخيانة. إذاً، لماذا لا تحمـل السـلاح؟ أنـت تتصـرف مثل «شتر مورغ»[10]. إن طلبوا منك الطـيران تقُـل أنـك جمـل، وإن طلبوا منك أن تحمل حِملاً تسرع للقـول أنـك مجـرد طـير. أهملـت والديك، نسيت أختك وأصدقاءك. إن كنت ترغب أن تفقـد رشـدك تماماً، فتابع على هذا المنوال. هل تعرف على الأقل ماذا ترغب في الحياة؟" ينهض غاضباً، يأخذ سيجارة من جيبه ويشعلها. بـالرغم من انزعـاج رسـول مـن الانتقـادات المتكـررة، لم يـزل يتظـاهر أنـه يبحث عن قميص، بينما هو يومئ برأسه، مدوراً يده في الهواء كـي يجعله يفهم أنه يعرف باقي الحديث: "أقسم أنك تغيرت، لم تعد أنت نفسك. كنت تريد صوفيا، وحصلت عليها. لكن ما الذي تفعله

---

[10] شترمورغ shotor-morgh: في الأدب الإيراني: هو حيـوان يشـبه الجمـل وله جناحا طير. قريب الشبه بالنعامة

لأجلها الآن؟ هل تريد لها نفس المصير؟ يا ابن عمي، لقد نشأنا معاً، ونعرف بعضنا جيداً، فأنت مثل أخي. لقد علمتني كل شيء.." يصمت رازمودين عن بقية الحديث، لأنه، ومنذ بضعة أسابيع فقط، قد ردد عليه الكلام ذاته، أو تقريباً نفسه، وقد أجابه رسول بجفاء: "علمتك كل شيء عدا أمراً واحداً".

– ما هو؟

– الخوف من إلقاء محاضرة.

– ليس هذا كي ألقي عليك بمحاضرة. إنما كي أمدُّ أمامك مرآة.

– مرآة؟ كلا، بل هي أسفل الكأس والتي لا يوجد عليها سوى صورتك أنت التي تريد أن تمدّها نحو الآخر، كي تقول له: "*كُنْ مثلي!*"

– الأفضل لك أن تصمت، رازمودين. أنت تعتقد أني أتظاهر بعدم الاهتمام بكل ما تقوله لي. لحسن الحظ، أنك لا تدري أني محكوم بالصمت، وإلا لتابعت كلامك. لكنت قد فرغت قلبك المثقل بشتائمي من المرة السابقة، دون أن تسمعني أقول أني لست بحاجة لإحسانك، وأني لا أحب سوق براغيث[11] إنسانيتك. أني أكره هؤلاء الكرماء الذين ينتظرون منا أن نحكي عن كرمهم، وأكره كل تلك النسور التي تحوم فوق الجثث، ذاك الذباب الذي يطن حول فتحة مؤخرة بقرة ميتة. نعم، أنا أكره كل شيء الآن، أكره نفسي وأكرهك يا ابن عمي، يا صديق طفولتي، أنت، الذي يرمقني الآن

---

[11] سوق البراغيث: سوق تباع فيه الأشياء البالية والتي يكثر فيها البراغيث.

بنظراته، والذي ينتظر مني بعض الكلمات. آه، لا، سوف لن تسمع مني شيئاً بعد الآن. ربما تترجم صمتي لامبالاة نحوك. أو بالأحرى كاستسلام أمام تأنيبك.

ترجم الأمر كما تريد. فما الذي باستطاعة ترجمتك هذه أن تغير في العالم؟ فيّ أنا؟ لا شيء. اتركني إذن بسلام.

بعد فترة الصمت الطويلة هذه، يعود رازمودين للاتهام: "الآن، لم تعد ترغب في التكلم معي؟ هل انتهى الأمر؟" يتوقف رسول عن البحث بين ملابسه. يرفع كتفيه كمن يريد القول أن لا شيء لديه كي يقوله. ينهض رازمودين خائب الأمل: "رسول، أنت بالتأكيد فقدت رشدك، إن كنت لا ترغب في رؤيتي، في سماعي، سأذهب..." يتجه نحو الباب: "إن كنت قد دفعت الإيجار، فذلك كي أنقذ شرف العائلة. انتهينا هذا كل شيء!" ويرحل.

يبقى رسول مذهولاً، متجهم الوجه. ثم، فجأة، يهرع نحو النافذة كي يصرخ.

آه، لم يعد باستطاعتي حتى أن أصرخ يأسي، كراهيتي، غضبي...

إذاً، هيا اصرخ للأمل، للفرح، لصفاء النفس. ربما باستطاعة ذلك أن يعيد إليك صوتك.

أين بإمكاني البحث عن صوتي؟

هناك، في المكان الذي أضعته فيه.

9

أمام مرآة معلقة على الحائط، راح يتأمل نفسه بغضب وكراهية. يمسد لحيته. ثم، يبلل وجنتيه بآخر قطرات ماء موجودة في الإبريق، يأخذ آلة الحلاقة، الشفرة مستعملة وقديمة. يصر ويجبر النصل على الحلاقة، فتجرح الشفرة جلده. يسيل الدم، ودون أن يعيره انتباهاً، يتابع بحنق، ممرراً الشفرة ذهاباً وإياباً فوق وتحت ذقنه... تأتي ذبابة لتتجول فوق جروحه. يطردها. تعاود المجيء، تتذوق الدماء. بحركة سريعة ومفاجئة يعود ليبعدها من جديد، لكن النصل ينزلق فوق وجهه، مسبباً له جرحاً آخر، لا يهتم للأمر. يتابع حلاقته، متوتراً أكثر فأكثر، كمن يريد اقتلاع جلده عن وجهه.

صوت خطوات على الدرج تجعله يبطئ من حركته. يُطرق الباب. بعد فترة قصيرة من الصمت والجمود، يفتح رسول، دون أن ينظف وجهه المضرج بالدماء. إنها امرأة بالشادور الأزرق السماوي. عند رؤيتها لرسول، تطلق صيحة مكتومة، تتراجع قليلاً للخلف وتكشف عن نقابها، إنها صوفيا. تدور عيناها البريئتان في محجريهما، خائفة. "رسول، ما الذي حصل لك؟" تمرر يدها فوق وجهه، تتحرك شفتاه لتقول أن النصل بال ومستهلك... إنها حركات لم يستطع ترجمتها. "ما الأمر؟" لا شيء، يومئ رسول بيأس. "انتظرناك بالأمس حتى ساعة متأخرة، لماذا لم تأتِ؟ خشيت والدتي عليك كثيراً، لم يغلق لها جفن في الليل". ينبغي

عليّ جعلها تفهم أني فقدت صوتي؟ نعم، ولم لا؟ بمن غيرها أستطيع وضع ثقتي؟

يتراجع عن الباب، تاركاً صوفيا تدخل. ويبدأ بالبحث عن ورقة وقلم. لكن، بعد أن ألقت صوفيا بنظرة نحو طفلتيّ يارموحمد اللتين كانتا ترمقانها، فضّلت أن تبقى على العتبة. "لا أريد إزعاجك. جئت أسأل عنك كي نذهب..." لم تنهِ جملتها، تشعر بالانزعاج من رسول، الذي كان يفتش بين كتبه مهموماً دون أن يعيرها اهتماماً. بعد لحظة من الصمت والتردد، تقرر إنزال خمارها على وجهها وترحل، تاركة رسول في بحثه عن شيء ما ليكتب كلماته البكماء تلك، وفي حلمه حين كان يتتبعها في سانت ـ بترسبورغ. ماذا لو كانت هي تلك المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي؟ سؤال غبي يجبره على التحرك. يسرع نحو الباحة. أضحت صوفيا في الشارع. بعد أن يغسل وجهه بماء الصنبور، يعود نحو غرفته، يغير ثيابه، ويخرج مندفعاً يبحث عن آثار خطواتها .

بالفعل، يا له من تفكير سخيف! فلو كانت هذه صوفيا، لتعرّفت على صوتها.

صوتها؟

يتوقف.

لا تقل أنك لم تتعرف عليها!

بالطبع عرفتها، لكني لا أستطيع معرفة نبرة صوتها لحظة تصرخ. في الحقيقة، لم يسبق لي أن سمعتها تصرخ أبداً، أو حتى رفعت من نبرة صوتها. ألم تتعرف على مشيتها؟ وعلى طريقتها في الركض؟

تنتقل صوفيا كالسمكة من مكان لآخر. كتفاها كما الزعانف، تتحركان للأمام والخلف. نعم، لكن في السابق، كانت لها الطريقة نفسها في السير عندما لم تكن ترتدي الشادور. فمن تحت غطاء شادورها كل النساء يتشابهن ويسرن في الطريقة نفسها، أليس كذلك؟

بالطبع.

الشك وعدم اليقين سرّعا أكثر من خطوات رسول العرجاء التي قادته نحو منزل صوفيا. مستثاراً بطريقة غريبة، لم يكن مقتنعاً على الإطلاق أن فتاة بنقاء صوفيا وخجلها باستطاعتها الإقدام على مغامرة خطيرة كهذه.

إنها هي من فعلها، يصرخ ملء رئتيه. إنها هي! لم تفعلها فقط لأجلي ولأجل عائلتها، إنما أيضاً كراهية «بنانا عليا» نعم، هي من نفذها.

بينما هو يركض بين المارة الغارقين في الدخان الأسود المنهمر فوق المدينة، إذ بيد تمتد لتمسكه من كتفيه، وتوقف اندفاعه. "رسولوفسكي؟" إنه صوت جانو الضاحك، خلفه. يسأله لحظة يشاهد جروح وجهه: هل نحن من فعل بك هذا؟" كلا، إنه النصل، يومئ وهو يقوم بحركة من يحلق. إنه نصل القدر، هذا ما كان سيقوله لو لم يزل يملك صوته. "يا لك من محظوظ! أنت تعرف على الأقل أن لك قدراً" لا بد وأن جانو كان سيجيبه هكذا. قدر؟ يفضل رسول لو أنه لم يملكه أبداً.

"وصوتك؟"

أيضاً لا جواب.

بعد بضع خطوات في الصمت يسأل جانو: "ألا تريد لقاء القائد بروايز، سوف يعطيك كلاشينكوفاً جميلاً! هل تعرف كيف تطلق؟" كلا. "في يوم واحد تستطيع أن تتعلم كل شيء. من جهة أخرى..." يقترب من رسول، "تجد الرصاصة هدفها بنفسها" يهمس له ضاحكاً. ضحكة مجاملة قصيرة، متبوعة بغمزة من عينه نحو كلاشينكوفه الذي يتركه واضحاً للعيان فوق الباتو.

مرة أخرى يسيران بضع خطوات دون كلمات. إنهما يفكران - رسول في نصل قدره البطيء، وجانو في أهداف رصاصاته الضائعة - لحين وصولهما بالقرب من *التشيخانة* فيدعو الجندي اليافع رسول ليأخذ معه قدحاً من الشاي. لم لا؟ إنه يريد أن يأكل ويشرب، لكن كان يريد التعرف بالأخص على زمرة براويز، يريد أن يعرف إن كانوا قد اكتشفوا أم لا جثة «نانا عليا». باختصار هناك ألف سبب وسبب لاصطحابه ولكشف هذا اللغز عوضاً عن ملاحقة صوفيا.

في الداخل، يجلسان فوراً بمحاذاة إحدى النوافذ، بالقرب من ثلاثة رجال مسلحين، والذين مذ رأوهما، توقفوا فوراً عن متابعة أحاديثهم، كي يتفرسوا بهما.

يطلب جانو شاياً وخبزاً. ويسأل رسول دون أية مقدمات: "صاحب منزلك... هل تعرفه جيداً؟" نعم، يومئ له رسول بهيئة متأسفة. "بالأمس عندما دخلنا المنزل كي نداهمه، هرع نحونا كي يقول لنا أن هناك شيوعياً قديماً، غريب التصرفات، لا يدفع إيجاره..." يمنعه صمت رسول المستمر من متابعة كلامه. يراقب جانو بضيق الجالسين بقربه، يستأنف كلامه بعد جرعة شاي

مصحوبة بصفير، دون أن يصرف النظر عنهم: "أنت، لديك نصل يخدش وجهك. بينما نصلنا نحن، قاطع أكثر، إنه يجرح أرواحنا!" يملأ فمه بقطعة خبز. "كنت في الثانية عشر من العمر لحظة اندلعت الحرب. وضع أبي بندقية فوق كتفي، وأرسلني للجهاد ضد الجيش الأحمر. ما رأيته... لو كنت مكاني، لما كان بمقدورك تحمّل كلمة روسية واحدة، يا ابني. لقد أحرقوا قريتنا. رأيت أجساد عائلتي متفحمّة بالكامل! تَبناني القائد براويز. أعطاني القوة والشجاعة لأقاتل كي أثأر لعائلتي. في تلك الفترة إذن، عندما كنا نبكي أمواتنا، وخراب قرانا، وعار شقيقاتنا... كنت أنت، تلهو بين ذراعي فتاة شقراء، بيضاء، ناعمة وتعيش مثل السمكة... أليس كذلك؟" يبتلع رسول بصعوبة الخبز وكلمات جانو. يحرق الشاي أيضاً حنجرته ولسانه. كان يرغب في أن يجيب أن حياته لم تكن بهذه السهولة التي يفكر بها جانو. لو تحدث عن صراعه مع والده الشيوعي، لكان قد نال استحسان جانو.

لكن هذا ليس بالأكيد. فجانو قد أنزل عليه باللائمة نفسها التي أنزلها عليه منذ فترة مجاهد آخر كان قد تحدث معه بالأمر، وقد وجّه إليه الآخر ضربة بقوله: "هذا أيضاً، بسبب تربيتك الروسية".

- ماذا تعني؟

- ألا نحترم والدنا، هذه تربية روسية!

- لكن لا أريد السير بحسب إيديولوجية والدي. كنت عدائياً تجاه اجتياح الروس لبلدنا.

- لو كنت ولداً باراً، لكنت احترمته، لكنت تبعت طريقه، ومعتقداته!

- ما هذه التفاهة التي تتحدث بها؟ كيف بإمكاننا أن نتبع والداً هو مجرم حرب؟

- لا يجب علينا أبداً أن نكره والدنا.

- لكنه *كافر*؟

يحل الصمت.

يرتشف جانو شايه، منفوخ الصدر. ينظر إليه رسول، ممسكاً بغضبه بين قبضتيه تحدوه الرغبة في توجيهها نحو هذا التمثال المنحوت بالغرور الوقح والقذر، في تحطيم هذا القفص المتلئ قوة لا جدوى منها...

لكن لماذا يا رسول؟ ما الذي تعرفه عنه؟ هو لم يقل شيئاً. اترك هذا البرعم هادئاً. إنه سعيد، إنه فخور، هو لا يتعذب مثلك، لله الحمد، فلتبقَ ساكتاً!

هيا اشرب شايك، وكل خبزك، وانطلق.

عندما ينهض، ينادي أحد الرجال الثلاثة لجانو: "عذراً يا أخي، ألست جانو؟".

"نعم، أنا هو.

يقترب منه الرجل مبتسماً: "ألم تعرفني؟ أنا مؤمن، من فرقة المقدم ناورروز؟"

يترك جانو كأس الشايٍ، ويصيح: "لكن بالطبع! كيف لي أن أنساك؟ أنت تغيرت قليلاً. أصبحت أكثر بدانة بقليل! لقد مضى خمس أو ست سنوات... أو قد يكون أكثر؟".

– ست سنوات".

ينهضان، ويرتمي الواحد بين ذراعي الآخر، يقبلان بعضهما البعض بحرارة، ويعاودان الجلوس ضمن حلقة. فيبدو ذلك مناسبة لا تعوض لرسول كي يهرب. يقف ويمد يده لجانو كي يسلم عليه. لكن الآخر يلح، ويدعوه ليأخذ كأساً آخر من الشاي بصحبة رفاقه القدامى، يقول: "اجلس!" ويلتفت نحوهم، هذا الأخ، ضربناه بالأمس مساءً أثناء إحدى مداهماتنا، واليوم نحن نشرب الشاي معاً! إن لم يكن هذا عبارة عن إرادة لإحلال السلام، فما عساه يكون إذن؟ يضحك، دافعاً رسول، كي يجلس.

ورسول يطيع.

يعاودون طلب الشاي وهم يدخنون. يلتفت مؤمن نحو أصدقائه كي يحكي لهم: "عمليتنا التي لا تُنسى! منذ ست سنوات؟".

– نعم، كان هذا منذ ست سنوات" يؤكد جانو بلهجة ملؤها الحنين. يتوجه بالكلام نحو رسول: "حدث هذا صيفاً، في إحدى أمسيات الصيف. كنا ذاهبين لنهاجم إحدى المراكز الروسية. أخبرونا أن المقدم ناوروز هو من سيقوم بإدارة هذه العملية. لم يكن هناك أي تعاون بين المقدم ناوروز والمقدم بارويز، مع ذلك فقد قررنا أن نهاجم الروس معاً. وسنأخذ نحن الأسرى وهم السلاح". ضحكة مؤمن منعته من المتابعة. رشفة من الشاي، ويتابع بعدها: "باختصار، عند سقوط الليل، هجمنا!" هذه المرة ضحكته هي التي منعته من الاسترسال. ومؤمن هو الذي راح يتابع: "في فرقتنا كان هناك أحد المجاهدين ويدعى تشيردل. كان شجاعاً، مسلماً حقيقياً، لكن مع ضعف بسيط نحو الصبيان! وهذا ما جعله يستحق

تسميته «*كيردل*». قهقه الجميع. "وبينما كان فريقنا يهاجم مخزناً للسلاح، بصمت تام وبكثير من الحذر، وقع رفيقنا تشيردل على فتى روسي كان على وشك الهروب!..." جعلت ضحكاتهم القوية، كل رواد صالة الشاي يصمتون. كانوا هم أيضاً يصغون. يضحك جانو حتى الإدماع، ويتابع مؤمن: "تخيل تشيلدر - نا - في موقف كهذا! راح قلبه ينبض بشكل محموم، لم يعد يعرف ما يفعل، كانت يده ترتجف خوفاً من قدوم أحد المجاهدين ورمي مخلوق أحلامه، ذي فلقتي المؤخرة اللتين بكل هذا البياض والنعومة، بالرصاص! خلاصة الكلام، اعتقله، وحين انتهاء العملية بنجاح، قاده نحو المقدم ناوروز الذي أعطاه الأمر بأن يقوده إلى المقدم براويز. ولمن قال هذا! فوراً، قيد تشيلدر نفسه بالأصفاد مع الفتى الجميل، وابتلع المفتاح!".

تلوى الجميع من الضحك. راح رسول أيضاً يضحك، لكن في أعماقه. وعندما هدأ قليلاً هذا الضحك المجنون، تابع جانو: "أخذهم المقدم بارويز معه. تحدث مطولاً مع تشيلدر. لكنه لم يرغب في سماع أي شيء. لم يعد هو الشخص نفسه. فقد انتهى كل شيء بالنسبة إليه، الجهاد، والصلاة... كل شيء. كانا يتنزهان معاً من الصباح إلى المساء، يداً بيد. كان تشيردل يغني له، يعلمه لغتنا... وفي إحدى الأمسيات اختفيا". يتوجه جانو بالسؤال نحو مؤمن: "ألم تروهما بعد ذلك؟.

- كلا، أبداً. يجيبه وهو يمسح دموعه. "آه يا لذاك الزمن!".

- في الواقع، يا له من زمن! حتى وإن كنا غير متفاهمين، لكننا كنا معاً بمواجهة الروس.

- إيه نعم !
- انظر إلينا الآن، نحن نحارب بعضنا البعض. لماذا؟
- اسأل المقدم ناوروز!
- وأنت، اسأل المقدم برويز!".

توقف الضحك.

واجتاح *التشيخانة* نوع من الكراهية، الصامتة.

ينهض رسول ويلوح بإشارة رصينة لجانو ـ الذي يسلم عليه بدوره رافعاً له يده ـ ويهرب.

ما إن يصل نهاية الشارع، حتى تدوي طلقتا رصاص، منطلقتان ليس بالبعيد عنه، جعلتاه ينتفض.

هل هذا في *التشيخانة*؟

ربما. يتوقف، ويلتفت.

فليتقاتلوا!

ويعاود السير في طريقه باتجاه صوفيا.

10

يطرق الباب وينتظر. يأتيه صوت والدة صوفيا الخائف: "من هنا؟" عندما لا تسمع أي جواب تكرر السؤال. "إنه رسول!" يصرخ داوود، أخو صوفيا، وهو ينحني عند حافة سطح المنزل.

تفتح الأم الباب، يقع نظرها على وجه رسول المخدوش،

ترتجف: "ما الذي حصل لك؟" لا شيء، جرحت نفسي وأنا أحلق، هذا كل شيء، هكذا كان يرغب أن يجيب، دون أي تفلسف حول موضوع نصل شفرة القدر. يومئ بإشارة كي يجتاز الباب، وهو يسمع شكوى الأم: "كان يجب أن تأتي أمس مساءً. لم أستطع إغلاق عينيّ بالليل". يهز رأسه كمن يريد أن يقول بأنه يعرف. لا بأس إن كان لا يستطيع الاعتذار.

ترمي الأم بنظره نحو الشارع وكأنها تبحث عن أحد، ومتعجبة لرؤية رسول وحده تسأل: "أين هي صوفيا؟" ألم تعد إلى البيت؟ يسأل بنظرة معبرة جداً. "أليست معك؟" كلا. حركة رأس رسول تقلقها. تستكشف من جديد الشارع، تعود وتلتفت إليه تاركة الباب مفتوحاً على أمل أن تظهر ابنتها. "كانت تريد الذهاب معك عند «نانا عليا» كي تعمل لها حسابها..." عند «نانا عليا»! يستند على الجدار كي لا يترنح. " قالت لي أنك قد طلبت منها أن تنهي عملها لديها. لكن منذ يومين، جاءت ابنتها نازيغول لهنا، كي تقول لي إن كانت صوفيا لا تريد العمل عندها، يجب عليها في البداية أن تحاسبها عن الإيجار المتأخر. انتظرناك بالأمس اليوم كله كي نناقش معك الأمر. وبما أنك لم تأتِ، فقد ذهبت صوفيا إليها، لكن..."هل ذهبت البارحة مساءَ أيضاً؟" لكن «نانا عليا» لم تكن في المنزل..." لم تكن هناك؟ وجئتها إذن؟ أين هي؟ "أرادت صوفيا أن تعود إليها اليوم. فطلبت منها أن تذهب معك". معي أنا؟ "ألم تكن أنت في المنزل؟".

بلى، لقد كنت. لكن لماذا لم تقل لي صوفيا شيئاً؟ بالنظر لحالتك، رسول، لا يتجرأ أحد أن يطلب أي طلب كان. بصمتك

هذا غير المفهوم بالنسبة للآخرين، تعطي الانطباع أن كل الناس تثقل عليك. "رسول، أنا جد قلقة على صوفيا. انتبه لها. لا تتركنا هكذا وحيدين، ودون أي خبر عنك. ففي هذه الأيام تختفي الشابات. قادة الحروب يقومون بالمداهمة فقط كي يسبوا النساء". يقطع البكاء صوتها. لكن رسول لم يعر هذا أي اهتمام. ترتجف قدماه. وتميد الأرض تحتهما . يسند ظهره على الجدار ويترك جسده يسقط على الأرض. تتابع الأم: "والأسوأ من القادة، هي تلك الشيطانة «نانا عليا». أخشى أن تؤذي ابنتي" تجلس في مواجهة رسول. "المرحوم زوجي قد استأمنك علينا، ليس لنا أحد غيرك. وأنت...".

وهو، محتجز داخل هذا الصمت، محاطٌ بالغموض الذي يلف جريمة تلك الشيطانة «نانا عليا»، تائهٌ في شكوكه حول تلك المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي التي، في تهيئاته، لا يمكن أن تكون غير صوفيا. فليجدها إذن!.

ينهض. ويغادر.

في الطريق، لا ينظر لأحد،

لا يسمع أي صوت،

لا يشم أي رائحة،

لا يشعر بأي ألم.

يركض. يركض كما لو أن كاحله لم يكن يؤلمه قط.

لكن قدمه، لم تنسه. تتلوى، كي توقف اندفاعه، يتوقف ليس بعيداً عن منزل «نانا عليا» عند زاوية الشارع، حيث كان قد رأى الكلب الأسود، إنه لم يزل هنا، كما كان، دوماً ممدداً أسفل

الحائط. عسى أن يجد هذا الكلب القليل من القوة في هذه المرة، لعله ينهض، ويهجم عليه، ويطرده من هنا. لم يكن بمقدوره دخول هذا المنزل وكأن شيئاً لم يحدث فيه.

هو فعلاً لم يحدث فيه شيء. انظروا! اسمعوا! فهذا الصمت، وهذا السكون لا يوحيان أبداً بأن شيئاً ما قد حصل.

إذن، ربما لم تكن ضربتي بالفأس قاضية. لقد خرجت منها حيّة. والآن قد تكون في المستشفى، تجاهد لاسترجاع روحها، وإلا لكنت الآن وراء القضبان.

نعم، يجب أن ننهي الأمر.

عاجلاً أم آجلاً ، سوف تقول «نانا عليا» كل شيء.

عاجلاً أم آجلاً، سوف تدفع أنت ثمن عملك.

لذا لم لا يحدث هذا اليوم، هنا، والآن، على مسرح الجريمة ذاتها.

عندئذ، يتقدم نحو الباب المنفرج، يدفعه بلطف، من ثم يستقصي الباحة. البيت غارق في الصمت والهدوء. وحدها بضعة دجاجات تقوقئ وتنقر. يدخل سور المنزل، ويتجه نحو درج الشرفة. الهواء ثقيل. والصمت كثيف. خطواته غير واثقة... يتوقف، ينظر ما وراء النوافذ. لا يبدو أن هناك أي حياة خلف الستائر. ينبض الخوف والفضول في صدغه. حبات من العرق فوق جبينه. يستعين بالحائط كي يصعد الدرج. لحظة يصل إلى الشرفة، يظهر أمامه خيال ما، ينتفض. يسمع أخيراً، في عتمة الردهة: "رسول؟... أهذا أنا؟" يرتفع صوت صوفيا، تتحرك شفتاه دون

جدوى في الهواء كي يشرح لها أنه جاء ليبحث عنها، وأن والدتها قلقة جداً عليها... يضحك كل هذا صوفيا. "ما الذي يحدث؟ أنا لا أسمع شيئاً". قالت وهي تقترب نحوه. يبقى رسول جامداً وهو يلاحظ خيالاً آخر خلف صوفيا، يخرج من الردهة. إنها نازيغول.

"«نانا عليا» اختفت منذ البارحة مساء. لا أحد يعرف أين هي..." تهتف صوفيا.

تتسمّر عينا رسول على نازيغول، ولم يعد يعرف ماذا يفعل، ماذا يقول، وماذا يفكر. «نانا عليا» لم تعد هنا. هذا ما هو مؤكد. كيف عليه استقبال هذا الخبر؟ هل يبتهج؟ أم يحترس؟

تتقدم ناريزغول خطوة: "بالأمس مساءً، عندما عدت للمنزل، لم أجد أحداً. لا تخرج والدتي أبداً دون أن تترك أحداً ما في البيت، خاصة في المساء".

المزيد والمزيد من الحيرة، والكثير من الأسرار، يحملق رسول في الفتاتين.

تلتفت نازيغول نحو صوفيا: "عندما وجدت المنزل فارغاً، خفت من البقاء وحدي. أقفلت كل الأبواب وذهبت..." لم يعد رسول يسمع شيئاً، ينكمش صوت نازيغول، وتتلاشى كل الأصوات. لم يعد يرى شيئاً. تحول كل شيء إلى ثقب، ثقب أسود، صامت صمتاً مرَضياً، هوة عميقة، دون نهاية، ودون مخرج.

دائخاً، يتوجه نحو الداخل، عاد بتفكيره لأحداث الأمس حيث جسم «نانا عليا» اللدن كان يتحرك نازلاً الدرج نحو نهاية الممر. قال لها صباح الخير. سألته ماذا يريد. حجب دخان سيجارتها، تحت أشعة الشمس، وجهها. تقدم رسول في الممر ومدّ نحوها

بساعة يد كان قد وعدها بها ذاك اليوم. قالت له أنها لم تعد تملك مالاً للرهن. توسل إليها، طلب أن يتركها عندها يوماً أو اثنين، إنها ساعة مرصعة بأحجار ثمينة. اشتراها من لينينغراد. يريد فقط ألفي أفغانية. تراجعت «نانا عليا»، غير واثقة. إنها لم تفهم لماذا يرتدي رسول هذا «الباتو»[12] في يوم قائظ. سألته عن السبب، فأجابها بأنه محموم. أخذت الساعة وتأملتها. كانت العقارب تشير إلى الساعة السادسة وتسعٍ دقائق. هذه الساعة لا تعمل بشكل جيد.

بالعادة هي تعمل جيداً، البطارية الفارغة هي السبب. لو كان رسول يملك المال، لكان قداستبدلها.

مهما يكن! إنها ساعة ميكانيكية قديمة. فهي لا تعمل على البطارية! تريد أن تعيدها إليه. لم يأخذها منها رسول. توسل إليها مرة أخرى، فقط ألفا أفغانية. فهذه الساعة فيها اثنا عشر حجراً كريماً، وهذا مكتوب خلفها.

كلا، هي لا تريدها. يلّح رسول عليها. الساعة روسية الصنع، وهي من ماركة ممتازة. حسناً، إلى الجحيم، فلتعطه فقط ما تراه مناسباً! لكن العجوز ارتابت أكثر فأكثر أمام رسول الذي راح يرتعش. يأخذ يدها ويضعها فوق جبينه كي تعرف كم هو محموم، ومتعب. ها قد مضى عليه يومان لم يأكل فيهما شيئاً. تسحب يدها، تتردد، ثم تقبل أن تأخذ منه الساعة لكن بشرط واحد: أن يترك خطيبته لتأتي وتعمل عندها، وإلا، فسوف تستردّ منه المال غداً، وزيادة على ذلك، سوف ترمي بالجميع إلى الخارج، خطيبته

[12] الباتو: شال كبير من الصوف، يرتديه الرجل الأفغاني فوق ثيابه في الشتاء.

وعائلتها. يوافق رسول. ويعدها فور خروجه من هنا، سوف يـذهب ليرى صوفيا كي يطلب منها أن تعود لعملها.

كانت العجوز على وشك العودة، عندما التفتت من جديـد نحـو رسول كي تحذره من أمر ما: مـن الآن، هـي وحـدها، مـن يحـدد لصوفيا الساعة التي ستغادر فيها بيتها. يهز رأسه بالموافقة.

ثم، أمرته أن يبقى منتظراً في الممر، واتجهت هـي نحـو الـدرج. عنـدما وصـلت إلى الطـابق الأول، أخـذ رسـول في السـير خلفهـا، بخطوات خفيفة، قلقة ومشوشة. الفأس التي يحملها تحت «الباتو» غدت ثقيلـة أكثـر فـأكثر، ذراعـاه مترهلتـان، وقـدماه متخشـبتان. يجاهد كي يصعد الدرج، ليصل إلى ممر الطـابق الأول حيـث يجـد «نانا عليا» أمام باب صغير وهي تفتحه. بعـد فـترة تـردد قصـيرة، تتسلل إلى داخل الغرفة وتغلق خلفها الباب. يلصـق أذنيـه ويسـمع صوت فتح وإغلاق الخزائن. يتنفس بعمق. وبسـرعة، يكسـر البـاب بركلة من قدمه، يهجم على «نانا عليا» التي كانت بصدد عدّ رزمـة من النقود، أمام النافذة .بالكاد يرفع رسول الفأس فوق رأس العجوز ليضـربها حتـى تمـر روايـة *الجريمـة والعقـاب* في ذهنـه.تصـعقه. ترتجـف ذراعـاه، وتهتـز قـدماه. ويسـقط الفـأس مـن يـده، فيشـق جمجمة المرأة، وينغـرز فيهـا. تتـدحرج العجـوز دون أن تصـدر أي صرخة، فوق السجادة السوداء والحمـراء. يتطـاير وشـاحها المطبّـع بأزهـار التفـاح في الهـواء، قبـل أن يسـقط فـوق جسـدها المتلـئ والمترهل. اهتّزت من التشـنجات، تنفسـت نفسـاً واحـداً، أو ربمـا اثنين، حملقت عيناها الجاحظتان في وجـه رسـول المنتصـب وسـط الحجرة، مقطوع الأنفاس، أكثر شحوباً من جثة. سقط الباتو الـذي

يرتديه من على أكتافه الناتئة، وهو مستغرق النظر في تدفق الدماء، تلك الدماء التي كانت تسيل من جمجمة العجوز، وتندمج بلون السجادة الحمراء، مغطية كذلك مساراتها السوداء، لتسيل بعد ذلك ببطء نحو اليد اللدنة للمرأة التي لم تزل تمسك بقوة رزمة من الأوراق المالية. والتي سوف تتلطخ لاحقاً بالدم.

تحرك، رسول، هيا تحرك!

11

"رسول؟".

يستعيد وعيه، يلتفت مذعوراً نحو الصوت. صوفيا ونازيغول على عتبة الباب، تنظران إليه باستغراب. "ماذا جرى لك؟" تسأل صوفيا وهي تقترب نحوه. يتجول في الغرفة حائراً، ينظر بقلق في كل زاوية وكل ركن. لم يكن هناك أي أثر لجريمته.

"هل سبق وجئت لهذه الغرفة؟" تسأله نازيغول بفضول: "أمي كانت تغلق دوماً هذه الغرفة بالمفتاح. لم يكن مسموحاً لأحد أن يطأها غيري أنا وهي". تلتفت نحو صوفيا: "متى قمت بتنظيف هذه الغرفة للمرة الأخيرة؟".

– أنا، أبداً لم أنظفها. كانت هي بنفسها تنظف هذه الغرفة.

– يلمح رسول النافذة التي هرب منها، كانت مغلقة. يزداد قلقه، ويشعر بنفسه ينهار. أريد ماء! يلتفت نحو صوفيا ويشير

إليها برغبته في الشرب."نعم، لحظة!" تقول، ثم وهي تركض باتجاه الباب، تتوقف في منتصف المسافة، وتوجه الكلام لنازيغول: "إنه مريض هذه الأيام" وتخرج.

ينظر رسول لابنة نانا عليا وهي تهم بالبحث في الخزانة، تتساءل بصوت مرتفع وهي أكثر حيرة: "ذهبت حاملة كل مجوهراتها معها؟" تترك الغرفة وتذهب إلى الغرفة المجاورة. تأتي صوفيا ومعها كأس الماء وتعطيها لرسول. يشرب. يشرب ببطء، ليس كي يرطب حنجرته إنما كي يأخذ وقتاً كافياً للتفكير، قبل عودة نازيغول.

كيف أبرّر وأشرح قدومي لهذه الغرفة؟

لو كان باستطاعتك الشرح لقلت أنك سبق وأتيت لهنا، عندما كان والد نازيغول لم يزل على قيد الحياة ـ لا بد وأن تكون هذه غرفته الخاصة ـ أتيت كي تجلب له بعضاً من الأرشيف الوطني الذي يخص والد صوفيا، الخ...

آه، يا صوتي اللعين، هيا ارجع!

"حتى أنها لم تحمل معها كل أموالها؟" تعود نازيغول لتتساءل، رامية رسول وصوفيا بنظرة شك. بعد لحظات من الصمت الثقيل، يسرع رسول نحو الممر تتبعه صوفيا: "ماذا هناك رسول؟" لا شيء... لا شيء! يشير إليها محركاً يديه في الهواء. يهبط الدرج بسرعة. "ما الذي جرى لك؟ هيأتك غريبة" تصّر صوفيا. يتوقف مفكراً بطريقة ما يستطيع فيها أن يجعلها تفهم أنه لم يعد لديه صوت كي يقول لها ما به. لكن نازيغول تتبعهما، إنها هنا، خلف صوفيا، وتسألهما: "ما الذي ينبغي عليّ عمله؟ أين يمكنني

الذهاب؟ لا أعرف إن كانت ستعود هذا المساء أم لا.

– تعالي، سنذهب إلى منزلنا.

– هذا غير ممكن، إن عادت والدتي ورأت المنزل فارغاً، فسوف تلعنني. لكن أين من الممكن أن تكون؟ يجب أن أذهب عند خالي، أسأله إن كان يعرف شيئاً عنها..." تحول نظرها نحو رسول: " هل بإمكانكما البقاء هنا لحين عودتي؟

– بالطبع. هيا اذهبي..." تجيب صوفيا، وهذا ما يسبب الحرج لرسول. ليس من الممكن البقاء هنا، أليس كذلك! تعبر نظرته عن الرفض، ويده تشير إليه. لكن نازيغول ترجوه، وصوفيا تقرر: "اتركها تذهب، هذا ليس تصرفاً لطيفاً منك".

صحيح، لماذا تصّر يا رسول؟ اتركها تذهب. سيكون لديك متسع من الوقت كي تفتش المنزل، ربما تكتشف دليلاً ما يكون باستطاعته خرق هذا الغموض.

إنها هي الغموض، نازيغول. هي ليست بريئة من هذه المسألة. أنا متأكد من ذلك.

فلتذهب إذن!

ها هي تغادر المنزل.

أمام ارتياح صوفيا، كان عقل رسول يعمل في مكان آخر. ينتظر ابتعاد خطوات نازيغول في الشارع، ليركض نحو الدرج عند نهاية الممر. "أين تذهب" تصرخ صوفيا، وهي تتبع رسول الذي يعود إلى الغرفة. "لكن ماذا تفعل؟" يستكشف رسول الغرفة. "لا تنبش أي شيء في بيتهم. هذا ليس جيداً، إن وصلتا الآن..." يشير إليها

بحركة أن تنزل. لكنها تبقى واقفة عند الباب وهي أكثر قلقاً: "لا تفعل، رسول، قل لي عن ماذا تفتش!".

رسول، يجب أن تجيبها. ليس من السهل عليك الانسحاب هكذا بكل بساطة.

لكن كيف أجيب؟ هذا ليس بالوقت المناسب.

تجده أكثر غرابة وغموضاً...

لا يهم!

وإن كانت فعلاً هي، المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي؟

يتوقف عن التفتيش في الغرفة، ويحدج صوفيا بنظرات شك، ثابتة وشبه مزعجة.

"ماذا هناك؟ لماذا تنظر إليّ هكذا؟ لماذا لا تريد أن تقول لي شيئاً؟"

صمت. نظرة، فارتياب...

تترك الغرفة ساخطة. ويعاود هو النبش في كل مكان، داخل الخزائن، تحت الطاولة، في الأدراج، تحت الأريكة... لا يوجد أي أثر مما كان قد تركه بالأمس. لا صندوق مجوهرات، لا مال، لا فأس، ولا *باتو* يجلس على السجادة ويمرر يده في المكان الذي تمددت فيه الجثة. بدا كل شيء جافاً ونظيفاً. هل هذه ذات السجادة؟ من هكذا الذي باستطاعته تنفيذ عمل التنظيف كهذا، بهذه السرعة وتلك الفعالية؟ كل هذا من صنع معلّم ماهر، لا من صنع طفلتين كصوفيا ونازيغولّ!

ينهض محتاراً، ويستعد لمغادرة الغرفة عندما يقع نظره على علبة فوق الخزانة. يأخذها ويبحث داخلها، لم يجد غير ست

علب من سجائر المالبورو. يأخذ واحدة ويعيد العلبة لمكانها. لكن تلك الخمس علب لمن سوف يتركها؟ يعود فيأخذها كلها.

عند مروره أمام باب المطبخ المشقوق، يرى طبقاً ممتلئاً بالطعام فوق الطاولة. يدخل، وكونه جائعاً جداً، يأخذ بين أصابعه لقمة كبيرة من الأرز اللزج، ويزدردها بنهم. لم يكن طعمه طيباً، فيعود ليبصق كل الكمية في الطبق. يفتش بعد ذلك كل أرجاء الغرفة، فلا يجد أي منفذ يستطيع منه اختراق هذا الغموض. يستولي على علبة ثقاب كانت فوق الطاولة، ويخرج. يشعل سيجارة، ويسحب منها نفساً قوياً. في الخارج، يجد صوفيا، جالسة فوق إحدى درجات سلم الشرفة، تنظر دوماً نحو باب المدخل. وهي لم تزل غاضبة وقلقة: "ما الذي يجري؟ لم لا تقل شيئاً؟" يحاول رسول وهو يموّج الهواء بيديه شرح مدى تعبه من هذا السؤال. "هل فقدت لسانك؟ لماذا لا تقول شيئاً" نعم، يهزّ برأسه وهو على يقين أن صوفيا لن تأخذ الأمر بحرفيته. "عن ماذا كنت تبحث في الأعلى؟" ينفث دخان سيجارته نحوها. "تبحث عن سجائر؟" ينظر إليها مطولاً. يأتي ليجلس بالقرب منها وهو مشغول البال، يعبر تفكيره ألف سؤال وسؤال. متى عادت بالأمس إلى هنا؟ هل رأت أحداً؟ بالتأكيد لم يكن هذا قبل الجريمة، وإلا، لكانت «نانا عليا» قد قالت له أن صوفيا قد جاءت.

لا، لم تكن هي المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي. وإلا لما وافقت على البقاء في المنزل.

وماذا لو وافقت على البقاء، لا لكي تحرس المنزل، ولا كي تساعدك، إنما كي تبقى وحدها معك. سوف لن يكون لديكما أي

فرصة أخرى مماثلة كهذه، جلسة غرام منفردة! هناك ألف شيء وشيء تريد أن تبوح به إليك. ألف شيء وشيء تريد أن تسمعه منك...

تقبّل نظرات صوفيا المحبة شفاه رسول. يغلفهما الشكل الحلزوني لدخان السيجارة. "قلت أنك لن تدخّن بعد الآن". يسحب نفساً أقوى من السابق من سيجارته وينفث الدخان من جديد نحو شعرها، يضحكان معاً.

ضحكة صوفيا، يا لها من سعادة! يحب هذه الضحكة الشفافة، البريئة، التي هي من الهشاشة بحيث أنها تنقطع فوراً تحت وطأة نظرة اشتباه، عند أي حركة صغيرة، لكنها مع ذلك تستمر بإضاءة عينيها .

لم يستطع صوت الرصاص، وانفجار الصواريخ بعيداً، أن يشوشا الصمت الهانئ الذي يحلّ بينهما.

تضع صوفيا يدها بخجل فوق ركبة رسول على أمل أن يأخذها بين راحتيه، أن يداعبها، أن يستمتعا بلحظة الحب هذه. لكن يديه بقيتا جامدتين. ترتجفان، وتتصببان عرقاً.

"هل قررت ألا تتكلم أبداً؟" تسأل صوفيا بيأس، وهي تحدق في شفتي رسول المقفلتين.

بعد فترة تردد قصيرة، ينهض فجأة، ويذهب ليبحث عن قلم وورقة في المنزل كي يكتب لها. لكن صوت الباب يوقفه. هناك أحد ما يدفع الباب. هل عادت بهذه السرعة، نازيغول؟ يرمي رسول سيجارته ويسرع في الممر كي يختبئ في الظل. تذهب صوفيا نحو الباب. "من هنا؟"

- «نانا عليا»؟ يسأل صوت رجل وقور. تجيب صوفيا، وهي مذعورة: "لا، هي ليست هنا".

- متى تعود؟

- لا أعرف.

- من أنت؟ نازي؟

- لا، نازيغول ليست هنا أيضاً. أنا الخادمة.

- آه نعم! أنت صوفيا؟

- لا...

- بلى! كوني لطيفة وافتحي الباب! هذا أنا القائد عامر سلام. " يستند بقوة على الباب الذي كانت بالكاد صوفيا تحتفظ به مغلقاً بيديها المرتعشتين والهشتين، وهي تصرخ: "لا... لا، لست صوفيا... لقد قالوا لي ألا أفتح الباب لأحد".

- "أنا لست «أحد»؟! هيا افتحي!" يحاول مرة أخرى دون جدوى. تضع صوفيا فوراً السلسلة لتقفل الباب، فيعود عامر سلام ليدفعها بقوة أكبر.

يخرج رسول من الظل، ويندفع نحو الباب ويفتحه بغضب. يندهش عامر سلام لرؤيته، فيسأل بصوت قوي: "نانا عليا ليست هنا؟" كلا، يهز رسول رأسه نافياً بغضب. يقول وهو يرمي بنظرة من فوق كتفي رسول كي يبحث عن صوفيا: "قل لها إذاً، أن عامر سلام سوف يأتي هذا المساء مع ضيوفه. لديه سبعة ضيوف، سبعة!" ويذهب.

صوفيا، المختبئة خلف الباب، تنهار خائرة القوى، على الأرض. يغلق رسول الباب، حائراً، ويروح من خلال الألواح

المتباعدة للباب، ينظر إلى عامر سلام الذي ينسحب حتى سيارته الواقفة بعيداً. ثم يبتعد عن الباب، يشعل سيجارة بعصبية، ويذهب ليجلس فوق درجة من درجات سلّم الشرفة. تنهض صوفيا وتنضم إليه. ينظر بإلحاح في عينيها كمن يريد أن يسألها: من هو عامر سلام؟

هيا، رسول، أنت تحب أن تطرح أسئلة تعرف تماماً أجوبتها. إنه بالتأكيد أحد زبائن «نانا عليا»، يأتي غالباً كي يرى الفتيات ترقص. اترك صوفيا بسلام.

تخبئ صوفيا رأسها بين ركبتيها، وتبكي بصمت. لم يعرف رسول في ارتباكه إن كان يجب عليه أن يخفف عنها أو أن يطردها.

لماذا يطردها؟ هي لا تستحق الطرّد، بل تستحق أن تواسيها، أن تحبها، وأن تعبدها.

متردداً، يضع يده بلطف حول كتفيها. فيسبب لها هذا الارتياح، كما لو أنها لم تكن تنتظر إلا لحظة الرضى تلك. ترمي بنفسها بين ذراعيه وتجهش بالبكاء. يربت رسول على ظهرها. لو كان لديه صوت لقال لها: "هذا يكفي، صوفيا. لقد رحلت تلك العاهرة القذرة. لقد قتلتها. هيا اهدئي!".

تستمر في البكاء. لا تريد أن تتوقف. هي لن تتوقف أبداً عن البكاء طالما بقي رسول يلاطفها. فلتؤبد هذه اللحظة، هذه الدموع، وهذه الملاطفة.

لسوء الحظ، يتلاشى كل شيء بسرعة. فرسول منزعج، ليس من

شعوره تجاه صوفيا، بل من شعور غريب يحس به في هذا المنزل. كان لديه شعور أن أحداً ما يراقبه من وراء الممر. ينهض وينظر بريبة خلفه. ثم يقوم بحركة لصوفيا كي تنهض ليغادرا المكان بسرعة قصوى. "سنذهب عندما تأتي نازيغول "، هذا المنزل ملعون! يركض نحو الباب". وإن عادتا ونحن لم نكن هنا، سوف تطردنا «نانا عليا» من بيتنا." فلتذهب إلى الجحيم «نانا عليا» لقد قتلتها.

يرمي سيجارته في الباحة، يفتح الباب ويخرج إلى الزقاق. تهرع صوفيا، مذعورة، خلفه. "رسول! هل تعرف أي شيء عن اختفاء «نانا عليا»؟" لا تبحثي يا صوفيا عن معرفة ماذا فعل بها! وإلا لخسرته. "لكن ماذا يجري؟ لي الحق بمعرفة ذلك". يتوقف، ينظر في عينيها، مرهقاً ومضنى. كيف يقول لها بأنها سوف تعرف قبل أن يقول لها ذلك بنفسه. "ياه، شادوري، لقد نسيته، انتظرني سآتي به". تذهب. يتابع رسول طريقه. بعد عدة خطوات يتوقف. يمسد قدمه. إنه الألم بكاحله.

من بعيد، دوى صوت إطلاق رصاص قادم من مكان ما في المدينة. يلتفت وينظر نحو جبل إيسماي، فيرى مجموعة من المسلحين يتسلقون القمة.

وهو، كان ينزل باتجاه *الساقيخانا*، حيث....

12

يسعل أحدهم سعالاً متواصلاً، ويبصق. بين كل سعلة وأخرى، يرتفع صوت أحد الأشخاص، ويدعى *كاكا*[13] ثروت، صوتٌ قويٍ رنّان، ومهيب، يحكي فيقول: "... *وهكذا تابع ذو القرنين، طريقاً آخر باتجاه الشمال. ما إن وصل قرب مدينة تقع بين سدين، حتى وجد قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، يعانون من ظلم «مأجوج ومأجوج»*[14] *القبيلتين الظالمتين، التابعتين لرعاع القوم، الذين يعيثون في الأرض فساداً.* "يتوقف كي يأخذ نفَساً من الحشيش". *طلب الشعب إذن من ذو القرنين، عند رؤيته بهذه القوة وهذا التأثير، أن يبني لهم جداراً يفصلهم به عن رجال يأجوج ومأجوج، وعرضوا عليه بالمقابل أن يعطوه خراجاً معتبراً. كان يأجوج ومأجوج في الواقع، قبيلتين شريرتين ومشاكستين، لا يستمعون لأي نصيحة ولا يهابون الكوارث. وبما أن ذا القرنين كان قد نشأ على فعل الخير، ومساندة المظلومين، فقد قبل أن يساعدهم، لكنه رفض رسمياً أن يتلقى بالمقابل أي خراج. قال لهم: «ما وهبني إياه الله أكثر*

---

[13] كاكا: تعني سيد، أو العم.

[14] يأجوج، مأجوج: قوم مذكورين في القرآن: "قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض، فهل نجعل لك خرجاً، على أن تجعل بيننا وبينهم سداً".

بكثير من عطاياكم! ساعدوني إذن بقوتكم وسأبني لكم جداراً يفصل بينكم وبينهم» مرة أخرى يقطع كاكا ثروت كلامه كي يرتشف جرعة من الشاي: *"طلب ذو القرنين من هذا الشعب أن يجلب له الخشب والحديد، والأحجار والنحاس والفحم. قام بإشعال النار، ثم سكب النحاس المصهور لحظة تحول الحديد إلى سائل في الفرن. وهكذا لم يعد بمقدور يأجوج ومأجوج تسلق الجدار ولا ثقبه. عندما انتهى ذو القرنين من عمله، صاح: "إنها رحمة مرسلة منّ الرّب. لكن عندما سيحّل وعد الله، فسوف يهدم الجدار ويحوله إلى غبار. ووعد سيدي وإلهي وعد صادق!"*.

– كاكا ثروت، متى سوف يحل هذا الوعد إذن؟

– يا حكيمي[15] ها هو قد حلّ! فهو قد قال، عند نهاية العالم سوف تتمكن جحافل *اليأجوج والمأجوج* من صنع فجوة في الجدار، وأن الله سيسمح لهم بالانتشار على الأرض. سوف يسيطرون على العالم ويبيدون الجنس البشري، ومن ثم سوف يحكمون على الله بالموت، وذلك بإرسالهم سهاماً من نار نحو السماء... أين هو الغليون؟" حملوه إليه. ها هو يدخّن ويسأل: أتعرفون هذه الفقرة من القرآن؟

– كلا.

– الويل لكم! وأنتم بالطبع لا تعرفون أين تقع هذه المدينة؟

– كلا.

الويل لكم. هذه المدينة، هي هنا، إنها كابول!

---

[15] حكيمي: اسم الشخص «حكيم» يدلّعه ويقول له: يا حكيمي.

يتنشق نفَساً آخر ومن ثم ينسحب نحو الجدار. "كاكا ثروت، أنت لن تتركنا مع هذه الرواية المخيفة! هيا الق علينا قصيدة تُمتعنا!" يطلب صبي جالس بالقرب من رسول: يبدأ كاكا ثروت بالانشاد وعيناه مغلقتان: *" آه يا سيد الفتوى، نحن أذكى منك/ حتى ونحن سكارى، نحن أكثر عدلاً منك/أنت تشرب دماء البشر، ونحن نشرب دماء العنب/ كنّ عادلاً وقلْ، من منّا أكثر دموية، نحن أم أنت؟"*.

– أنا! يصيح صوت أحدهم، فينتزع من الجميع ضحكاً مكتوماً. ثم، لم يلبث أن يحلّ الصمت، والرعب، والأحلام. فلا يعود العالم أكثر من حجم دون مادة، شفافاً دون وزنْ أو لون. في وسطه، كان رسول يسبح. عارياً. بريئاً. خفيفاً وهشاً. كم يحب هذه الحالة من النعمة، إنها هاوية جميلة وقصيدة من قنب[16].

"رسول! رسول!" يهزّه أحد ما. ينهض على مهل، يفتح عينيه، بخفة، وهو بين السحاب، يسمع فتى يتحدث إليه: "صباح الخير، أرسلني رازمودين. طلب مني أن أجدك، وآخذك إلى فندق «الميتروبول» بحثت عنك في كل مكان..." ينظر رسول من أعماق هاويته إليه "ذهبت إلى بيتك فلم أجدك، ذهبت إلى بيت..." فليتوقف عن الاسترسال في الكلام! فرسول ليس واعياً كي يصغي لكل مراحل بحثه. عندما رأى الفتى رسول يشعل سيجارة، يصرخ "إنها مالبورو! يتعجب وهو يكاد يموت رغبة واشتهاء. يقدم له

---

[16] القنب: نبات يستخرج منه نوع من المخدر المضر

رسول سيجارة . يتردد الآخر في البداية، ومن ثم يأخذها ويجلس بمواجهة رسول: "... قالت لي خطيبتك أنها قد أضاعتك. عدت فرجعت إلى بيتك، فأرسلني جارك إلى هنا..." حسناً، حسناً! يشير رسول كي يقول أنه قد فهم كل شيء. فليصمت، ويتركه الآن ليسترجع وعيه.

عندما يعود إلى رشده، يجول ببصره في الزوايا الأربع للغرفة، فلا يرى سوى أطياف جامدة وصامتة. "لقد لامس الموت، ابن عمك!" لامس الموت! لماذا؟ يسأله رسول بنظرة، وهو يعقد حاجبيه. "سقط صاروخ خلف الفندق. لقد سبّب خسائر لا بأس بها". ورازمودين، هل خرج سالماً؟

ينهض رسول بسرعة، ويغادر صالة التدخين، متبوعاً بالصبي الشاب. يركض ـ ولم يزل يعرج ـ حتى يصل إلى مكتب رازمودين، الموجود في الطابق الأرضي للفندق. كان الباب موارباً. يشاهد ابن عمه يلملم أوراقاً مبعثرة على الأرض.

لا شيء خطير، إذن.أستطيع أن أغادر.

نعم، غادر! وإلا فسوف يتحدث معك بالكلمات ذاتها، باللوم نفسه، وبنفس غضب هذا الصباح... وربما أسوأ أيضاً، لأنه سوف يلحظ أنك قد عدت لتدخّن الحشيش.

يهمّ بالمغادرة، لكن رازمودين يراه. فيترك أوراقه المتناثرة، ويهرع نحوه "رسول، إلى أين أنت ذاهب؟" يجمد رسول. "هيا ادخل!" يدخل رسول. "اجلس!" يروزه رازمودين بنظره، ويشير نحو أريكة متهالكة. إنه متوتر، وعصبي أكثر مما كان في الصباح. شيء ما يغلي بداخله، يهزّه، ويحكم عليه بالصمت، لوقت طويل.

الوقت اللازم ليبحث عن كلماته، كلمات يكون بمقدورها أن تجعل من الأمر الخطير شيئاً محتملاً. يحثّه رسول على الكلام. إنه يعرف ابن عمه، يعرف ارتباكه وحماقاته أمام اللحظات الصعبة. يتركه ليبحث عن الكلمات: "رسول، هل تعرف القائد روستام؟" يخفض رسول عينيه، كمن يريد التفكير، ثم يقوم بإشارة «لا» قبل أن يفضح نفسه. بالطبع، هو يعرفه. إنه ذاك الذي يطمع بيد «دنيا» هو دون شك الرجل الذي حدّثته والدته عنه في إحدى رسائلها، دون أن تسمّيه". لقد جاء من «مازار» بطلب من والدتك. إنه في الطابق العلوي، ينتظرك في مطعم الفندق. يقول رازمودين وهو يرجع خلف مكتبه. ثم يعود ليهمس بما كان يعذبه: "يا ابن العم، هناك خبر سيئ". وينتظر، ينتظر حتى ينهض رسول ويصرخ مستفسراً: "أي خبر سيئ؟" آه لا، إنه يبقى هكذا صامتاً، جامداً، بنظرات تائهة. "رسول؟" يرفع رسول نظره. "والدك..." لقد مات، إنه يعرف ذلك، لكنه لا يستطيع أن يقوله. حتى وإن استطاع، فهو لن يقول شيئاً، سوف يكتفي بهزّ برأسه، كما يفعل هنا، الآن. هذا كل شيء.

"لقد... مات!" يبصق أخيراً رازمودين الكلمة، وهو يغمغم. ومن جديد يهزّ رسول برأسه كي يجعله يفهم أنه كان يعرف.

"هل كنت تعلم؟" يشير رسول أن نعم، محركاً شفتيه، وخافضاً نظره." هل كنت تعلم؟" يكرر رازمودين، مذهولاً. "كيف عرفت؟ من قال لك؟ متى عرفت؟".

هل يجب علي أن أكتب كي أشرح كل شيء، وأحكي أنه منذ شهر أخبرتني والدتي في رسالة أرسلتها إليّ، إلى هذا الفندق؟ هيا تذكر يا رازمودين، أنت من جلبها إليّ. لا تلعب معي دور الغبي!

لا، رازمودون ليس بالأبله أبداً، لقد فهم كل شيء. إن كان مستغرباً الآن، فذلك لأنه لا يفهم لماذا لم تقل له ذلك. "إنه والدك، يا ابن العم!".

فاقد الأعصاب، يمسك بيد رسول: "لقد قتلوه! هذا أيضاً تعرفه؟" قليل من الناس اليوم، تموت موتاً طبيعياً، يا رازمودين. أنت تعرف رأيي بهذا الموضوع. لهذا، اعمل معروفاً، أبعدني عن انزعاجاتك الغبية، وهيئتك المتفاجئة المصطنعة... لنحتفظ بهذا الصمت، المحمّل جيداً باتهاماتك، وبيأسي.

يتفرس رازمودين في وجهه. يحتفظ رسول بنظره موجهاً نحو الأرض، ليس خشية من أن يناقض نفسه، لكن كي لا يلحظ ابن عمه أنه قد دخّن الحشيش.

لقد فعل حسناً باختبائه، فرازمودين بدأ يشك بالأمر. لهذا فقد انحنى، وراح يبحث في عيني رسول الداكنتين والهاربتين عن أقل إشارة، عن ضوء صغير يستطيع به أن يطمئن عن حالة ابن عمه. لم يستطع أن يصدق أن باستطاعة رسول حمل كل هذه الكراهية لوالده.

لا، هذا لم يكن كراهية، بل هو شعور أقوى من هذا بكثير: إنها اللامبالاةّ! لا بل أسوأ من هذا أيضاً: إنها ليست لامبالاة في مواجهة الوجود، إنما في مواجهة موت والده.

لا، ليس باستطاعة رسول أن يكون بهذا القدر من القسوة، واللاإنسانية. لا بد وأن يكون هناك سبب آخر لهذا الأمر.

الحشيش! هذا هو السبب. انظر لعينيه! وهما بكل هذا الاحمرار، والانطفاء، والزوغان...

هل عدت للتدخين؟"

آه، قضي الأمر، ها هو يعود مرة أخرى!

ينهض رسول، يخرج، فيصطفق الباب من خلفه. يبقى رازموذين للحظات وحيداً، مرمياً هكذا. ثم، عندما يستعيد وعيه، يركض في الممر. "أين تذهب؟ القائد روستام يبحث عنك". ماذا يريد منه؟ يهزّ رسول أكتافه لامبالياً. "جاء من «مازار ـ شريف». لقد كان صديقاً لوالدك... يقول أنه سوف يعتني بأمك وأختك.؟ فليأتِ في يوم آخر. اليومِ، رسول مشغول. "يا ابن العم، ماذا حصل لك؟ أنت لا تقول شيئاً! قل لي ما الذي يجري!" لا شيء، رازموذين، لاشيء! "هل أنت مريض؟" يشير برأسه أن لا.

بلى، رسول، أنت مريض، مريض بذاتك.

يتبعه رازموذين: "ها أنت تعود لتهمل كل شيء مرة أخرى، لا تأكل، لا تنام..." يخرج بعض الأوراق المالية ويدسّها في جيب رسول. "عدني أنك ستعتني بنفسك، اذهب لرؤية طبيب. كلْ جيداً، استرح، واسترجع قوتك. سآتي لأسأل عن أخبارك...".

لم كل هذا الاحتقار لابن عمك رازموذين وهو يحمل لك كل هذا العطف؟

لأني أعرف لماذا يهتم بي بلطف. لا رأفة أو محبة بي أنا. بل لأنه هو الآخر، يريد الزواج من أختي. ها هو السبب!

وإن يكن؟

يترك رسول الفندق، مغتاظاً.

يغطي الشارع دخان كثيف، فيجعله خانقاً. بعد عدة خطوات، يتوقف رسول متفكراً: "من هذا الروستام الطز؟" يشعل سيجارة،

ومن ثم ينظر للجهة المقابلة من الشارع حيث وزارة التربية والتعليم، تعجّ بالرجال المسلحين. كان جانو من بينهم. عند رؤيته لرسول يلوح له هاتفاً: "سلام، رسولنيكوف!" يجتاز رسول الشارع وينضم إليه. "حسناً، هل قررت أخيراً؟ اتبعني!" يدخلان إلى المبنى، ينزلان الدرج ويتقدمان في الرواق المعتم للطابق الأرضي، الممتلئ بالدخان، كي يجدا نفسهيما وجهاً لوجه أمام القائد براويز الذي كان يتناقش مع ملتحيين حول خارطة كبيرة لكابول. كانت أصواتهم تضيع وسط ضجيج المولّد الكهربائي. يقترب جانو من براويز كي يعلن له حضور رسول.

"كيف هو حال قارئ دوستوفسكي؟ ها أنت تبدو أكثر شباباً من يوم أمس!" يقول براويز بابتسامة مهدئة. يمسد رسول ذقنه كي يظهر له أن مردّ ذلك كونه لم يعد لديه لحية. "هل تقززت من اللحية؟" ينطلق الضحك. "وصوتك؟" يبتسم رسول. "«واتاندار» لماذا لم تقل لي بالأمس أنك ابن عم رازمودين؟ نحن نعرف بعضنا من السجن. إذن؟ هل أتيت لتنضم إلينا" نعم، يشير له وهو يحدق بانزعاج نحو الرجلين الآخرين. "إنهما من رجالنا". يقول براويز كي يبث الثقة في نفسه. بعد صمت قصير، يتردد فيه رسول بين أن يقول أو لا يقول، وكيف يقول، يأخذ قلماً، ويمرره فوق خارطة كابول، وفي زاوية من الزوايا يخربش اسم «روستام». يقرأ براويز بصوت عال ويسأل مندهشاً: "هل ستذهب مع القائد «روستام»؟" عند ذكر هذا الاسم يلتفت الرجلان نحو رسول. فيجعله هذا أكثر خجلاً. يقول أحدهم: "من لا يعرفه!" وبنظرة سريعة، يتوجه بالكلام نحو براويز: "بالمناسبة، كنت سأحدثك عنه. لأن هناك شائعة أنك تريد التحالف معه.

- نعم، لكن...

- اطمئن، هذه ليست أكثر من إشاعات!

- للأسف، هذا صحيح!

- لهذا السبب هو موجود في كابول إذن! وهل أنت موافق؟

- ليس أنا من يقرر...

- براويز، فكر بما قلته لك: في اليوم الذي سأعرف أن هذا الخنزير هو ضمن معسكرنا، ستراني وقتها أقف في الصف المقابل لك.

- أيها القائد مراد، الأفضل أن نعيش معه بسلام على أن...

- بسلام، مع عدونا؟ هل تؤمن بالسلام بين الذئب والنعجة؟

- ما تقوله صحيح، لكن أن نقوم بالسلام مع عدو هو شيء نرغم عليه، لكن كم نحن

بحاجة للسلام مع الأصدقاء.

- لكن لماذا؟ أنت تعلم تماماً أننا نكرهه! إن أردت أن تعقد السلام معه، فلن يعود مكاني هنا بينكم. الوداع!".

يأخذ بندقيته، ويهرع للخارج. يسرع براويز والرجل الآخر للحاق به. يبقى رسول وحيداً، ومضطرباً. يتأمل خارطة كابول، المطروحة فوق الطاولة، مجعدّة وممتلئة بالثقوب.

عندها، يعبر اسم أخته «دنيا!» في فكره!

13

تنتظر مدينة كابول الهواء. هي تنتظر الهواء كما تنتظر المطر كي تنفض عنها جفافها. ها قد مضى خمسة أسابيع، والهواء يهّب حتى قبل أن تغرب الشمس خلف الجبال، محملاً بالغبار المتوضع فوق المدينة، في كل زاوية من زواياها، وتنثره. لم تكن تهّب من أية نقاط أساسية واضحة، بل كأنها تصعد من أعماق الأرض، وتغادر بعد أن تكون قد دوّمت، سامحة للسكان بالتنفس، بالنوم، وبالأحلام... ولا تعود لتهب مرة أخرى. تترك كل شيء راكداً: بارود الحرب، دخان الرعب، وجذوة الكراهية... تلتصق بالأجساد رائحة شويط، دسمة، وتخترق داخل الخلايا. الأفضل تدخين سيجارة من سجائر «نانا عليا» عن استنشاق هذا الهواء الخانق.

يشعل رسول سيجارة. لا رغبة لديه إطلاقاً في العودة إلى البيت ولا في رؤية صوفيا. لم يزل يهيم على وجهه، شارداً.

وماذا لو راح لعند الطبيب؟ بهذا المال الذي أعطاه إياه رازمودين، معه ما يكفي ليدفع ثمن المعاينة، ويشتري دواءً، ليأكل، ويدخن...

عند منعطف شارع «مالك ـ أصغر»، يجد عيادة طبيب، مع لوحة كبيرة مكتوب فوقها: «اختصاصي إذن أنف حنجرة». يدخل.

تكاد صالة الانتظار تنفجر من المراجعين. رجالاً، ونساءً، قادمين مع العائلة كلها. لا ريب أن البعض قد قضى الليل هنا. يأكلون، يسعلون، يدخنون، يضحكون، ويغمغون....

عند مدخل الممر، يقول الشاب الذي يوزع أرقاماً لأدوار المرضى، لرسول: "يجب أن تأتي في الصباح، باكراً جداً، كي تحصل على رقم". أمام نظرة رسول المنزعجة، يشتكي الشاب: "كل مرضى كابول يأتون إلى هنا. إن كان لديهم مشكلة في الحلق أو مشكلة في البواسير، لا يهم! المستشفيات لم تعد تستقبل إلا جرحى الحرب!".

كان رسول على وشك المغادرة عندما اقتربت منه امرأة وقالت له أنها تستطيع أن تعطيه مكانها مقابل خمسين أفغانية، وإلا، إن كانت حالته مستعجلة، يجب عليه الانتظار طويلاً، فقبله ست وتسعون شخصاً، وبعده تسعة أشخاص "وسوف ترى، إن أنت أخذت مكاني، فدورك سوف يأتي سريعاً! وهذا المال سيساعدني كي أشتري دواءً وحليباً لأطفالي". يتردد رسول، ومن ثم يوافق، وينتظر في الردهة حتى يأتي دوره. في هذه الأثناء، يرى المرأة وقد باعت ثلاثة أرقام لأشخاص آخرين.

لكن السخرية تكمن في أن الطبيب، وهو عجوز جداً، كان يعاني من مشكلة في النظر! بالرغم من نظارتيه الطبيتين، كان يكتب تقاريره بشكل سيء. يطلب من المرضى أن يتكلموا بصوت مرتفع. ينزعج رسول، فيخربش بكلمات فوق ورقة إحدى الوصفات: "لقد اختفى صوتي" ويمررها نحو الطبيب، الذي يتوتر ويصرخ بعصبية كي يقرأ له ما كتب، وبعد أن يفهم يسأله: "منذ متى؟" منذ ثلاثة أيام، يشير بأصابعه. "بسبب ماذا" لحظة صمت. "صدمة جسدية؟"

– ....

"هل انت عاطفي؟" نعم، يشير رسول برأسه، بعد تردد قصير. "لا يوجد أي دواء لهذا الأمر" يقول الطبيب بلهجة حانقة، وهو

يربت فوق وصفاته المكتوبة والمعدة سلفاً لكل أنواع الأمراض". كي يعود إليك صوتك، يجب أن تعود لتعيش المشاعر ذاتها، في الظرف ذاته. هذه الاستشارة تكلف مائة أفغانية، إذا سمحت " ثم يصرخ: " التالي". قبل أن يصل المريض التالي، يدفع رسول كل المال المتبقي لديه، ويخرج غاضباً من العيادة. يتابع توهانه في هذه المدينة غير المعقولة، حتى هبوط الليل، يعود بعدها إلى منزله، وينام. دون أية كوابيس.

14

الكابوس، هو الحياة التي يعيشها. النعمة، هي ما يحلم به. لهذا، فهو بالتأكيد لا رغبة لديه في فتح عينيه، ولا بمغادرة الفراش، ولا بتحية الشمس السوداء، ولا بشم رائحة بارود الحرب، ولا بالبحث عن صوته الضائع، ولا التفكير في جريمته... يتكوم أكثر على نفسه تحت الغطاء. طالما الأجفان مغلقة، فالباب موصد. ولفترة طويلة. لا شيء يجعله يخرج من حالة الخمول هذه. لا الذباب الذي يطّن حول رأسه، ولا الصاروخين المنفجرين فوق جبل إيسماي، ولا صوت خطوات رازمودين اليائسة التي تصعد الدرج، والتي تتريث خلف الباب الموصد، ومن ثم تعود لتنزل، ولا صيحات الفرح لأطفال يارموحمد في الباحة... طالما أن الشمس لم تغب بعد، فهو سيبقى نائماً.

لكنه ينهض بسبب تلك المرأة الشيطانة ذات الشادور الأزرق السماوي التي تنساب ببطء عبر نومه في السرير. دائماً مختبئة، تبدأ بمداعبته، وهو بدوره يحاول أن يرفع لها حجابها. تعترضه. لكن رسول لم يكن يرغب في سماع شيء. يجذب هذا الرداء الهائل الذي يستمر في الانسياب بين أصابعه دون أن ينتهي. تضحك المرأة، وتمد نحوه بصندوق،لم يكن يحوي جواهر، بل كتلة صغيرة شفافة، حيّة. "إنها تفاحة آدم خاصتك" تقول له المرأة "هل تريدها؟".

يرمي رسول بالعلبة على الأرض، يريد أن يرى وجهها. يحاول من جديد جذب الشادور. لكن محاولته تبوء بالفشل. يرى نفسه هو أنه مغلف. لم يكن لديه القوة كي يمزق هذا الحجاب. إنه يختنق. يتململ. يفتح عينيه.

إنه الغطاء الذي يلتّف حوله ويكاد يخنقه. في الغرفة كل شيء ساكن، حتى الذباب.

بعد تنهيدة عميقة، ينهض، يغادر السرير، ويخرج من المنزل كي يتيه مرة أخرى في ضباب المدينة.

متسكعاً، يخرج من زقاق ويتجه نحو ساحة جويشير، حيث رائحة الخبز الشهي تجعله يبطئ من خطواته. يقف وينتظر أن تمتد يد رحيمة لتوزع الحلوى. بين الحشد الواقف أمام الفرن، يسقط نظره على أعرج، مستند على عكاز كبيرة جداً بالنسبة إليه. إنه يشبه واحداً من صديقيّ والد صوفيا.

بعد أن اشترى الخبز، يمر الرجل أمام رسول، كان هناك قصائد محفورة على خشب عكازه، مثلما كان على عكاز موهاراmولا.

وماذا في ذلك؟

لقد سرقها بينما كان زميله ينازع تحت الأنقاض. هو لم يكن لديه عكاز لهذا فقد سرقها منه كي ينجو بنفسه. لقد كانت العكاز كبيرة جداً بالنسبة إليه. خائن قذر.

يتبعه رسول بنظره في البداية، ومن ثم يمشي وراءه.

يسند الرجل العكاز تحت إحدى ذراعيه، وفي الذراع الأخرى يحمل الخبز. يدلف طريقاً مزدحماً بالمارّة، عند منتصف المسافة، يقف كي يصلح من وضع العكاز. عندها يلتقي نظره بنظر رسول الذي يقف بدوره دون حراك أيضاً. منزعجاً من تبادل تلك النظرات المركزّة عليه، يتابع الرجل طريقه ويصل إلى زقاق آخر، فارغ هذه المرة. هنا، يتأكد أن رسول يتبعه. يسرّع من خطاه مرعوباً، وكذلك يفعل رسول، الذي يمسكه ويقطع عليه الطريق. يتمسك الرجل جيداً بالخبز تحت ذراعه، وهو خائف يلهث. "لدي ست أفواه بحاجة للطعام، وليس لدي غير الخبز." يقول متوسلاً.

أرأيت يا رسول، إنه لا يعرفك، المسكين.

كلا، إنه لم يتعرف عليّ. سأقدم له نفسي. سوف أنعش له ذاكرته القذرة.

فلينظر مباشرة في عينيّ!

ينتظر الأعرج كلمة ما، أو صفعة، سكين، أو طلقة مسدس... لكن لا شيء من هذا يحصل. فقط مجرد نظرات غضب، مرعبة. "ماذا تريد مني؟" يسأل الرجل. "من أنت؟" هذا هو السؤال الجيد. يحرك رسول شفتيه كي ينطق اسم مو ـ ها ـ را ـ مو ـ لاه. يحاول الرجل أن يقرأ شفتيه. "موحمد؟... آه، ابن كاظم؟... لقد قتلوك

أليس كذلك؟ كيف عدت؟".

أتخلط الآن بين الأحياء والأموات. انظر جيداً! أنا ر ـ سووو ـ للل، أحد أقرباء موهاراموله.

يشده رسول من ذراعه، ويسحبه للأسفل. وبأصبعه يرسم على الأرض اسم «موهارامولا» "أي «موهارامولا؟»" يشير رسول نحو العكاز، وهو يأمل أن يجمع الرجل بين الاسم والعصا. لكن دون فائدة تُرجى. لم يزل الرجل غير قادر على فهم ماذا يريد منه رسول "هل تريد عكازي؟" لا! "ماذا تريد إذن؟" يشير رسول بسبابته للاسم المكتوب على الأرض. يقرأ الرجل من جديد: "موهارامولا، أهو أنت؟ أنا لا أعرفك". ينهض، فينهض معه رسول. يحاول الرجل أن يتفاداه كي يستأنف طريقه. لكن رسول، الأسرع منه، يقطع عليه الطريق، يقف أمامه ويتفحص وجهه المرعوب.

هل هذا حقاً هو؟

دون أدنى شك. سوف أساعده على تذكر اللحظات التي قضاها مع «موهارامولا» في صالة التدخين ذاك اليوم حين سقط صاروخ على الصالة وأحرقها. كي يتذكر هذا الخائن، يجب عليه أن يعيش مرة أخرى رعب الموت.

يهجم رسول على العصا التي كان الرجل، وقد ازداد خوفه، يضمها بقوة أكبر نحوه. يتوسل باكياً: "كرمى لاسم اللّهَ" لا يريد رسول أن يسمعه. يأخذ منه العكاز ويرفعها كي يضربه. "يا الله انقذني من هذا المجنون!" يصرخ الأعرج وهو يتدحرج أرضاً، ممسكاً خبزه تحت ذراعه. يجلس رسول ويصرخ وهو على الأرض: "أنا خائن" يميز الرجل بصعوبة أحرف الكلمات المرسومة بالحصى

وآثار الأقدام. مشوش الذهن، لم يستطع تفسير الكلمات بشكل جيد، فيسأل رسول: "هل أنت خائن؟" كلا، أنت! يشير رسول بسبابته نحو صدر الرجل. "أنا خائن! لماذا؟" يسأل الرجل. فيهز رسول العكاز أمام عينيه الخائفتين، ويحدق فيهما طويلاً بغضب، جاعلاً أنفاسه تنقطع من الرعب.

"أنت سرقتها من..." ويكتب إلى جانب الكلمات اسم موهارامولا. "آه، لا! إنها لي، هذا العكاز... لقد اشتريتها. أقسم لك..." لكن العصا تضرب قدمه المريضة وتجعله يصيح صيحة ألم: "النجدة!" يمسكه رسول من شعره ويلصق رأسه في الأرض كي يجعله يقرأ بصوت مرتفع: "أنا خائن". لكنه لا يقولها بل يتابع صياحه: "النجدة! أغيثوني! ساعدوني!" تهوي العكاز هذه المرة فوق رأسه وتجعله يصمت، يتابع التوسل وهو على وشك البكاء: "يا أخي، هل أنت مسلم أم لا ؟ لدي ست أطفال. يا الله الرحمة!... ليس عندي مال. أقسم لك أن لا مال لدي" المسكين! لا يعرف بأن المسألة ليست مسألة مال وإلا لكانت جمجمته قد شُقّت الآن.

اتركه، رسول! لن يفهم أبداً ما الذي تريده منه ولا ماذا تريد.

فليعترف أنه خائن، فليقلها بصوت عال. ترتفع العكاز مرة أخرى مع صرخة الرجل: "لا تضرب! أنا موافق. لا تضرب!" تبقى العصا معلقة في الهواء. "لقد خنت... خنت! سامحني! يا الله أطلب منك الغفران..." تضرب العكاز من جديد رأسه، يعوي الرجل من الألم، ومن الخوف. "لا تضرب، لقد خنت". ها هو يصرخ، مرة أخرى، "لقد خنت". اصرخ بصوت أعلى أكثر ليسمعك الجميع. اصرخ! "أنا خائن! أنا قاتل!" لا، لست قاتلاً، أنت خائن.

توقف يا رسول، أنت تصلح لمستشفى المجانين. كيف تريد من هذا الشخص المسكين أن يعرف ويفهم هواجسك التي لا يمكن أن تخطر في باله؟ بالنسبة إليه، الخيانة والجريمة هما ضمن الخانة نفسها، ولهما الأهمية ذاتها.

كلا، بل هو يعرف تماماً الفرق بينهما. فهومن المنطقة، من هذا البلد حيث الخيانة فيه أخطر من الجريمة. ليس مهماً أن نقتل، أن نسرق، أو نعتدي... ما يهم هو ألا نخون. ألا نخون الله، عائلتنا، عشيرتنا، معسكرنا، صديقنا... وهو قد فعلها، وخان!

مع ذلك فأنت لست معذوراً. لا شيء يفسر شراستك ضد هذا الرجل، لا شيء إلا رغبتك في اقتراف جريمة أخرى. لتعود فتعيش الحالة ذاتها، المصادفة ذاتها، والمشاعر ذاتها، باختصار، كل الأمور التي جعلت منك أبكماً. هل تفعل كل هذا كي تستعيد صوتك؟

دع الرجل يعش. لا صوتك ولا صوت أي نبي يساوي حياة هذا الرجل.

كابياً من الغضب، يضرب العكاز على الأرض ضربة كانت من القوة بحيث كسرتها. يجلس منهكاً. يبكي الرجل.

بعد أن يستعيد أنفاسه، يشعل رسول سيجارة وينظر بطرف عينه نحو الأعرج الذي كان يهّم بالنهوض وهو يئن. يشعل سيجارة أخرى ويقدمها إليه.

ينهض. ويتجه نحو «الساقيخانة».

لم يكن «كاكا ثروت» وزمرته هنا. لكن صالة التدخين كانت مزدحمة، والأنظار جميعها مثبتة على مهلوس، ذي لحية وشعر

طويلين. كان كل واحد يقدم إليه شيئاً ما! أحدهم أعطاه كأس شاي، والآخر ورقة مالية من فئة الخمسمائة أفغانية، وآخر رصاصة بندقية. يأخذ المهلوس المال، ثم طلقة البندقية، يضعهما في فمه ويبتلعهما. ومن ثم يأخذ كأس الشاي ويشربه دفعة واحدة. يلتفت الرجل الذي أعطاه المال مصعوقاً نحو الآخرين: "أصبحوا خمس رصاصات! هل رأيتم! إنها الطلقة الخامسة التي يقوم بابتلاعها".

يبدأ المتهلس يصيح بصوت أجش، غير مبال بنظرات الذهول: "يا ..هوو". ويترك صالة التدخين مصحوباً ببعض الرجال.

مقابل سيجارتي مالبورو، يأخذ رسول نفساً طويلاً من الحشيش، يحتفظ به في رئتيه. يغمض عينيه، ويغيب العالم، كما غابت القذائف في فم الرجل، حتى الفجر.

في الساعات الأولى من النهار، يسمع صوت «كاكا ثروت» يرن في الطابق الأعلى، في «الشيخانية» إنه يلتحق بالزمرة التي تدعوه لمشاركتها الإفطار. ومن ثم ينزل معهم إلى «الساقيخانة». ثملاً من الحشيش، يغادر رسول صالة التدخين. كان خائفاً من العودة إلى منزله، لديه إحساس أن غرفته قد تم اجتياحها من قبل أطياف هاربة من كوابيسه: المرأة ذات الحجاب الأزرق السماوي، يارموحمد مسلح بسكين. رازموودين بدروسه الأخلاقية، وحتى دوستوفسكي بكتابه «*الجريمة والعقاب*».

تقوده خطواته المترّنحة باتجاه منزل صوفيا.

عن ماذا تبحث بالقرب منه؟

أنا بحاجة إليها، كما بحاجة لأشخاص آخرين. أنا بحاجة أن

تأخذني في نقاء دموعها، في براءة ابتسامتها، وفي بياض أنفاسها... كي أموت بطهارتها.

بل لنقل أنك بحاجة لسذاجتها، لهشاشتها، كي تبرئ ساحتك. لا لشيء آخر. لا تجرها إلى هاويتك.

يتوقف.

سوف أكتب لها كل شيء في دفترها، من ثم سأعيده، وأرجع لها حياتها.

يحث الخطى، ثملاً، وهو يعرج.

15

يجاهد كي يصعد الدرج، يصل إلى الباب، ويدلف إلى غرفته. في الداخل، يفاجأ برؤية غرفته مرّتبة، ونظيفة. ثيابه مطوية بشكل جيد، كتبه مكوِمة في زاويتها المخصصة لها، ولا يوجد أي شظية من شظايا الزجاج المكسور على الأرض.

من الذي جاء ليسبب له كل هذا الأذى؟ رونا، زوجة يارموحّمد، بالتأكيد إنها هي. فعلت ذلك، كما كانت تفعله في السابق.

يقترب من النافذة، ويلقي نظرة نحو المنزل. الباحة فارغة. ولا يوجد أي ظل خلف الزجاج.

تداهمه نشوة داخلية، تجعله يتغلب على ذهوله أمام الغرفة المرتبّة بشكل جيد، وعلى رغبته في الكتابة لصوفيا.

حقيقة، مما هو مبتهج؟ من نصره على يارموحَمد الذي لم يستطع منع زوجته من الصعود لغرفته وتنظيفها؟

يا للرجل الفخور!

لم يلبث هذا الفرح الخسيس والصبياني أن يتبّخر لحظة يقع نظره على دفتره العزيز عليه، موضوعٌ بعناية في فتحة النافذة. يقفز باتجاهه ليأخذه. هل فتحته رونا، أتراها قرأت قصائده وأفكاره الحميمية تجاه صوفيا؟ هل رأت الجملة الأخيرة: "*اليوم، قتلت نانا عليا*"؟

يرتجف الدفتر بين يديه. يفتحه على الصفحة الأخيرة ويقرأ: "*اليوم قتلت نانا عليا*" يجلس على فراشه. ثم، وبعد تفكير طويل، يأخذ قلماً كي يضيف: "*لقد قتلتها من أجلك، يا صوفيا*".

لأجلها؟ لكن لماذا؟

سوف أكتب لها عن السبب. لكن بداية سوف أتحدث عنها، عن نقائها وهشاشتها، عن كل ما لم يكن باستطاعتي التحدث فيه معها، بعبارات واضحة دون أي مواربة. "صوفيا، أنا لم أقبلك مطلقاً، هل تعرفين لماذا؟..." صوت الخطوات التي يسمعها تصعد الدرج، تعلّق له كلماته عند نهاية القلم. يُقرع الباب. يأتيه صوت أنثوي ناعم: "سيد رسول، هذه أنا، رونا". يهرع ليفتح الباب: "صباح الخير". تقول بخجل، وهي تحمل بيدها طبقاً، مغطى بمنشفة بيضاء. يتراجع كي يترك لها مكاناً لتدخل، ويتأملها خفية، وبقلق، كي يستشف ردة فعلها تجاه الدفتر. "سيد رسول، لقد أتيت كي أستسمح منك موقف يارموحمد. ففي هذه الأيام هو ليس على ما يرام، هو متوتر دائماً. إنه خائف... أنت تعرفه. زد

على ذلك أنه أصبح عاطلاً عن العمل، إنه فقط قلق..." تمد نحوه بالصحن: "تفضل، هذا قليل من الكشمش[17] والجبن المطهو في المنزل، من النوع الذي تفضله أنت، وقليل من الزبيب الجاف..".

يأخذ رسول الطبق محرجاً، ويشكرها بحركة مبهمة، كمن يريد أن يقول لها بألا تقلق، وأن كل شيء قد انتهى.. ثم، وقبل أن يظهر امتنانه لترتيب الغرفة وتنظيفها، يقوم بحركة شبه دائرية في الهواء، مشيراً إليها بيده ـ تلك التي تمسك بالدفتر ـ للزاوية حيث رتّبت كتبه. "رتّبتها كما كنت أفعل في السابق. عندما كنا...".

لم يعد يسمعها. فبعد أن تأكد أنها لم تلحظ الشك ولا القلق في عينيه وهو ينظر إليها، عاد إليه افتتانه، كما في السابق بالشفتين المتلئتين المتلألئتين، وبالعينين اللوزيتين، ذات اللون العسلي. وهي بدورها، كونها واثقة من قدرتها على الإغراء ـ وهذا منذ مدة طويلة ـ تلعب معه، تعض طرف حجابها بين أسنانها، وتخبئ شفتيها، كي يطيش صوابه. يعرف رسول أن سبب حقد يارموحمد عليه، يعود جزء كبير منه لشعوره بضعف رسول الشديد نحو رونا. لا بد وأنه قد بدأ يشك بإغوائها له، هذا مؤكد.

"حسناً، أنا ذاهبة..." وتهمّ بالمغادرة. يلتبس عليه الأمر كونه لا يفهم جيداً ما تقول من وراء حجابها، يتبعها. ويبقى واقفاً على عتبة غرفته يتأملها، حتى اختفائها في عتمة رواق بيتها. يبحث بنظره عن يارموحمد خلف النافذة، فلم يجد له أثراً. لا بد وأنه غائب. لهذا السبب تجرأت رونا وصعدت لتزوره.

---

[17] الكشمش: نوع من النبات. عنب الثعلب.

لو لم يكن فكره تائهاً في مكان آخر، لو لم يكن لديه الكثير من الهموم، وفي يده دفتر صوفيا، لكان استلقى الآن على فراشه، مأخوذاً بتهويماته، وانزلقت يده داخل سرواله ليداعب ذكره. سوف يتخيل وضعين أو ثلاثة معها كي يستمني. اليوم كان سيختار الوضعية التي تكون فيها رونا عارية، جالسة على أرجوحة طفلتيها، رأسها مائل بخفة، وابتسامة ماكرة فوق شفتيها. تحدق برسول. ساقاها متباعدتان، يلتف الحبل حول ساعديها، ويداها تداعبان عضوها الأنثوي... حسناً... هذا ليس بالوقت المناسب. لا بد وأنه شخص مريض حقاً، مهووس، مجنون هارب من ملجأ المجانين، كي يفكر بهذا الآن!

هيا ضع الصحن، أغلق الباب، وابدأ بالكتابة.

يفتح الدفتر مرة أخرى.

"*صوفيا، لم أقبلك مطلقاً، هل تعرفين السبب؟* حسناً، وبعد؟ "*لأنه يلزمني الكثير من القوة كي أقبل براءتك...*" من أين يخرج هذا الكلام؟ أليس باستطاعتك أن تمتلك روحاً أكثر شفافية، وكلمات أكثر مباشرة؟ *أقبل براءتك*؟ إن كتبتها فسوف تسخر منك، سوف تقول لك: "هيا اكسر براءتي قبلني! وسوف أعطيك القوة".

يغلق دفتره، خائر العزم، يرميه بين الكتب، وينهار فوق فراشه. يغلق جفنيه كي يجد في العتمة والصمت الكلمات التي يبحث عنها. لكن صوت خطوات تصعد الدرج تنتزعه من سريره. خطوات ثقيلة هذه المرة. "رسول! هذا أنا رازمودين". لم يكن وحده. هناك أحد ما معه يهمس بأذنه. لم يتحرك رسول. "رسول؟" يردد رازمودين وهو يعاود طرق الباب. بعد فترة انتظار قصيرة،

يحييّ رازمودين ابنتي يارموحمّد ويسألهما: "هيه، يا بنات! هل خرج رسول؟".

– "كلا، إنه في غرفته. قد يكون نائماً". ردّدتا بصوت واحد. فلتذهبوا إلى الجحيم! يزمجر رسول بينه وبين نفسه. وينهض.

"رسول" يناديه مرة أخرى رازمودين، وهو يهز الباب المغلق من الداخل. يقرع بقوة أكبر! لحظة! يتمتم دون صوت رسول. ويذهب ليفتح.

"آه، ها أنت أخيراً! نحن نبحث عنك منذ يومين" يقول رازمودين وهو يدخل ومن خلفه رجل قصير القامة، ضعيف البنية، يضع على رأسه كوفية بيضاء. "رسول، تكرّم القائد روستام ورغب في المجيء لزيارتك و..." يتقدم القائد روستام نحو رسول، "عزيزي رسول" ويأخذه بين ذراعيه، "أخيراً استطعت رؤيتك!" يتراجع رسول، بارداً وقليل الترحيب. يبقى روستام على العتبة، منتظراً دعوته للدخول. فيأخذ رازمودين هذه المبادرة، ويسرع إلى داخل الغرفة وهو يكيل له عبارات التأهيل والترحيب. يدخل هذا الأخير ويبدأ فوراً بمحاضرة احتفالية: "يا عزيزي رسول، أنا آت من طرف والدتك المحترمة. لا أدري من أين أبدأ. لدي شيئان أخبرك بهما من طرف عائلتك. الأول، للأسف نبأ حزين، والآخر مفرح ومليء بالأمل. علي أن أبلغك بمزيد من الأسى أن والدك، المسلم الطيب، والبالغ النقاء، قد أسلم روحه لله الرحيم. لقد مات شهيداً. لهذا فأنا أتقدم إليك بخالص عزائي. ولتكن الجنة مثواه الأخير. كما أدعو من الله الرؤوف الرحيم، الصبر والسلوان لكل عائلته، متمنياً لهم الحياة المديدة والمزدهرة..." يرفع يديه نحو السماء كي

يصلي: *"إنا لله وإنا إليه راجعون"*. يصمت بعدها، وينتظر الكلام من رسول، الذي كان يحدق به، هادئ الأعصاب. محرجاً أكثر منه منزعجاً. يختلس روستام النظر نحو رازمودين، ثم، قبل أن يطلب منه أحد الجلوس، يخلع حذاءه ويتجه نحو الحشية كي يجلس. يتبعه رازمودين، ويأخذان، هما الاثنين، يحدقان برسول، الذي لم يزل لامبالياً، يجلس بعيداً.

يخيم الصمت.

صمت كئيب يحاول روستام أن يقطعه بتقديم سيجارة لرسول ـ الذي يرفض ـ ثم لرازمودين، ويستأنف الحديث الذي كان قد قطعه: "بالطبع، بالطبع، أخبرتني والدتك أنها قد أبلغتك هذا الحدث الأليم في رسالة... لكن رسالتها لم تصلك على ما يبدو. كانت الطريقة التي يهز فيها رسول رأسه، ويحرك حاجبيه، كي يشرح أنه قد استلم الرسالة تربك القائد. مذهولاً، يتابع بنظره رسول، الذي يبدأ بالتنقيب في كتبه كي يجد رسالة أمه ويمدها أمام أعين روستام ورازمودين المذهولة، ومن ثم يعود إلى مكانه، يمسك بعدم اكتراث منشة بلاستيكية، ويبدأ بهشّ الذباب الذي كان يتطاير حول طبق الكشمش.

"إذن فقد استلمتها؟".

نعم.

"لكن... والدتك المحترمة تعتقد أنك لم تعرف بشأن وفاة والدك الشهيد! فبعد أن أرسلت إليك بهذه الرسالة انتظرتك طويلاً...".

ينظر رسول نظرة توبيخ نحو رازمودين الذي يحتفظ بأجفانه مسدلة، مشغولاً بالتحديق بأطراف أصابعه خشية من سماع ابن

عمه يقول له: والدي، حيّاً كان أو ميتاً، لم يكن مهماً جداً بالنسبة لي.." قطعاً، لم يكن رازمودين قد تحدث بالأمر لروستام. لكن لماذا لم يقل له؟ كان ينبغي عليه أن يفعل ذلك!.

يضرب رسول بالمنشة ذبابة جاءت لتحط أمامه، يحمل جثتها ويرميها نحو الباب. يفهم روستام الرسالة، يفقد صبره، ويفشل في أن يكتم غضبه. "أنت تعلم كونك شاباً مسلماً، أن واجبك تجاه أهلك يأتي فوق الجميع. دم الأب يساوي الكثير. ننتظر منك جميعاً أن تقسم على الانتقام له... لكن..." يقطع حديثه صوت المنشة وهي تقتل ذبابة أخرى. متوتراً، يلتفت نحو رازمودين: "هل تعلم كم سوف تعاني والدته وأخته إن هما علما كيف يتصرف هذا الشاب تجاههما، وتجاه نار إبراهيم؟" يوافق رازمودين على كلامه بإشارة من رأسه، وهو يتخيل بماذا كان رسول يفكر: «كلا، لا بد وأنهما قد ارتاحتا بعد موته».

مرتبكاً أكثر فأكثر من بكم رسول، يسحب روستام نفَساً عميقاً من سيجارته، وينتظر. ولكن دون جدوى. يفقد أعصابه أخيراً ويصيح: "من أجل الله، قل شيئاً ما!..." يترك رسول المنشة ويقيسه بنظره لفترة طويلة. إنه يعرف تماماً ما الذي يغلي داخل رسول، لكنه لا يفهم لماذا يبقى صامتاً. احتراماً لروستام؟ لكن هذا ليس من شيمه. لا بد وأنه يزن الآن كلماته قبل أن يشتم، كالعادة، كل هؤلاء الذين باسم التقاليد، والدين، والشرف، يشجعون الناس على الاقتتال، على الأخذ بالثأر، وعلى تغذية جذوة الحرب. "هل تعلم من الذي قتل والدك؟" يهز رسول كتفيه، هذا لا يهمه. "إنه حرامي، سفاح، قتله لأجل المال...لأجل المال!" إذن كان هذا أحد

الأشخاص الجائعين. الثأر من شخص جائع ليس له أية أهمية. فوالدي، كونه كان ينتمي للشيوعية، كان يقاتل كما كانوا يدّعون باسم العدالة من أجل الفقراء والجائعين، كان يقتل الأغنياء كي يخلّص الفقراء، أليس كذلك؟ لا بد وأن روحه ابتهجت عند رؤيته بعض الجائعين يأكلون بفضل ماله!

مجرد رؤية ما يمكن أن يجول في رأس رسول من أفكار، يرعب رازمودين. بينما كان منزعجاً، كلا، ليس منزعجاً، بل مرتاحاً، لرؤية رسول صامتاً، يجب أن يستفيد من هذا الوضع. لهذا فقد التفت نحو روستام ليقدم اعتذاره، "منذ بضعة أيام وابن عمي ليس على ما يرام..." لكن اعتذاره قُطع بنهوض رسول المفاجئ، وأخذه لحذاء روستام، ووضعه أمام عتبة الباب، مشيراً إليه بالخروج.

يغلق رسول الباب ويبقى واقفاً وسط الغرفة، وهو يصغي لرازمودين يجري خلف القائد ويقول: "لا تغضب، لا تفهمه بشكل سيئ، إنه مريض، أقسم لك. فمنذ أن توفي والده أصبح غريب الأطوار. منذ شهر والناس تشتكي منه..." يبتعد صوته في الزقاق، ومن ثم يختفي.

بعد أن ينفث رسول عن غضبه، يجلس وابتسامة نصر ترتسم على محيّاه. يعود فيأخذ المنشة وينظر حوله باحثاً عن ضحية أخرى. بالكاد تحط ذبابة على طبقه، حتى يسارع بضربها، يحملها على المنشة، ويرميها عند الباب.

الآن، وبعد أن استعاد هدوءه، يعود فيأخذ رسالة والدته ويقرأها من البداية إلى النهاية. ليشكر الله أن والدته لا تمتلك خطاً جميلاً، ولا طريقة جيدة في كتابة الأمور بعشرات الصفحات مثل والدة

راسكولنيكوف! فهذه الرسالة مختصرة، مكتوبة بأسلوب رديء، وبالكاد مقروء.

يقرأ الجمل التي تخص أخته دنيا. *"هناك رجل، غني، ومهم، يطلب يد أختك دنيا..."* لكن من هو؟ ولماذا تحاشت والدته عن ذكر اسمه؟ «*غني ومهم*» هذا يعني أنه رجل معروف. ورجل مثير للجدل دون شك، وذو سمعة سيئة. لهذا فوالدته لا تريده أن يعرف عن من تتحدث.

تزوغ نظراته فوق الورقة، خشية أن يجد بعض الكلمات الأخرى التي لا يرغب قط بقراءتها. لكن تلك الكلمات كانت هنا، مقروءة أكثر من أي كلام آخر: *"دنيا موافقة. لكنها تريد في البداية موافقتك. فأنت الآن رجل البيت..."* يطوي الرسالة. «*رجل بيتنا*» في المرة الأولى التي قرأ فيها الرسالة، امتلأ صدره فخراً عند قراءة هذه الجملة، «رجل بيتنا» لكنه يشعر الآن أن هذا التعبير يحتوي على رسالة أخرى، رسالة شبه وقحة. كل كلمة لها لون آخر، ورنة صوت أخرى. لم تعد الكلمات ساذجة وبريئة. بل يفوح منها رائحة سخرية، وملامة، وأشياء أخرى لم تُكتب...

رجل بيتنا!

لا، والدتك غير قادرة على كتابة رسالة كهذه لك. أنت من يملك هذه المشاعر الكريهة. عد لقراءتها في يوم آخر، وسوف لن تجد فيها غير الحكمة والحنان.

يطوي الرسالة كي يضعها في كتاب. لكن ليس في أي كتاب كان. بل في أحد مجلدات «الجريمة والعقاب»! بل الأنوا، هو أنه

يضعها بين الصفحات، التي تتحدث عن راسكولنيكوف وهو يقرأ رسالة والدته.

لقد زاد الأمر عن حدّه، رسول!

لم يكن قد أعاد الكتاب لمكانه حين فُتح الباب من جديد، وبعنف، وامتلأت الغرفة بصوت رازمودين وهو يصرخ: "أنت لا تنتمي إلى هذه الحياة أم ماذا؟ هل ترغب أن تنهيك إحدى تلك الرصاصات اللعينة في يوم ما؟ ما الذي تبغيه تماماً؟ أنت فعلاً مريض". ينظر إليه رسول، ويتردد في إعطائه رسالة والدته. "لماذا تصرفت كسوقي وضيع؟ هل تعلم أنه قد أخذ عمتي ودنيا إلى منزله، كي لا يتركهما وحيدتين؟ قطع كل تلك المسافة كي يجعلك تطمئن وكي يعطيك مالاً. خذ!" يخرج من جيبه رزمة من الأوراق المالية ويرميها عند حافة الحشية. "ليس فقط لم تشكره، بل حتى لم توجه إليه الكلام! لماذا؟".

عند هذا التوبيخ، يفتح رسول الكتاب، يأخذ الرسالة، ويعطيها لرازمودين. اقرأ! فيقرأها بصوت مرتفع. كل كلمة كانت تذبحه، وتجعل رأسه يغوص أكثر فأكثر بين كتفيه، ويده ترتعش. يفهم الآن، لم كل هذا المال! آه، نعم، كل هذا الكرم وهذا اللطف ليسا لأجل خاطر عيون رسول. فبهذا المال كان روستام ينوي شراء دنيا، ابنة عمه. تلك التي يحبها ويرغب في الزواج منها. "إذن هذا هو «الخبر السّار» الذي كان يريد أن يقوله لك ابن العاهرة ذاك؟" يسأله رازمودين بلهجة مهزومة. لهذا فقد عامله رسول بطريقة كريهة، كي يمنعه من إعلان هذا الخبر أمامي. "دنيا!" يهتف رازمودين. يمسك رسول من كتفيه. "لو كنت قد قلت لي، لكنت

سافرت إلى «مازار» ولكنت أخذتك معي أيضاً..." حسناً، هيا اذهب الآن، واترك رسول بسلام. "سوف آخذك معي". لم يعد باستطاعة رسول فعل شيء. هيا اذهب يا رازمودين، واجلب دنيا ووالدتها معك إلى كابول!

يقفز رازمودين متحمساً: "سنذهب لإحضارهما..." ربما نظرة رسول اليائسة كانت سبب تهوره. لا يلبث أن يعود إلى وعيه: "لا، هنا، أصبح المكان خطيراً جداً. سوف نذهب جميعاً إلى طاجكستان". كلا، يشير رسول برأسه "في الواقع، هي أيضاً، منطقة خطرة تقع تحت سيطرتهم". يصرخ وقد عيل صبره "أين إذن؟ هيا أوجد حلاً، اللعنة". افعل ما يحلو لك يا رازمودين، فقط اترك رسول في سلام... سلام!

واقع في الوسط، بين غضبه أمام صمت رسول غير المفهوم، وبين خشيته من تهديد من قبل روستام، يبقى للحظات خائر العزم. ثم، فجأة، يخرج ويصفق الباب وراءه. نسمع خطواته الغاضبة تنزل الدرج، تخبط في الباحة، وتغيب أخيراً وسط غبار الغسق.

يغلق رسول عينيه، متعباً، دون أن ينام.

يحلّ الليل، مظلماً. ويجتاح الغرفة.

وعندما ترتفع نداءات الصلاة في انسجام،بعضها مع بعض، سارقة النوم من أعين المدينة، يفتح رسول عينيه بصعوبة. رأسه يدور. ينهض، يجلس مستنداً على الحائط، قدماه مضمومتان نحو صدره.

إنه يرتجف. يرتجف من الغضب، من الخوف، من الجبن... من كل شيء.

الكل يتداخل ويتشربك داخل صدره. تنتفخ حنجرته وتتقلص دون صوت.

إنه يبكي.

16

إنه ينام.

يستيقظ فجأة، مذعوراً على صوت انفجار مدّو. يجلس على الحشية مبللاً بالعرق، ويتجه نظره نحو النافذة. خلف النافذة لم يزل الليل يرخي سدوله، أسودَ كعهده دائماً. يعيق الدخان الكثيف القمر من الانزلاق داخل أحضان أحلام المنازل.

يشعل رسول الشمعة التي وضعتها رونا في متناول يده. يجر نفسه حتى إبريق الفخار. يأخذه ليشرب، لكن لم يكن فيه دمعة ماء.

يعود إلى سريره، يجمد بصره فوق رزمة الأوراق المالية التي تركها له رازمودين. كانت ذبابة تتسكع فوقها. إنها نفس شكل الرزمة التي كانت تمسكها «نانا عليا» بحزم بيدها البدينة والخشنة. ليس هذا أكثر من تهيؤات. فكل رزم الأموال تتشابه.

هيا التقطها!

بعد فترة تردد طويلة، يلتقطها بحركة عصبية، كما لو كان يريد في طريقه هش الذبابة، التي تهرب وتلحق بمستعمرتها فوق طبق الجبن المطبوخ والزبيب الجاف.

يتأمل المال مطولاً، ثم يرميه بعيداً عنه. أتراه خوفٌ أم كراهية.

يشعل سيجارة، ويفكر.

يفكر أن هذا المال في النهاية ربما لا يكون أكثر قذارة من مال «نانا عليا». ولا حتى خطيراً. إذن لم كل هذا القرف؟ "إنها الكبرياء!" سيقول رازمودين، "أنت فعلا تعاني من الكبرياء، يا رسول. كبرياء لا ترتكز على شيء، مجرد كبرياء غير مفهومة".

نعم، أنا أفترضها افتراضاً، هذه الكبرياء المبنية على فراغ. فليعلم العالم: أني أفضل الكبرياء عن الفخر. أن تكون فخوراً، هذا يعني أن تفخر بشيء ما، هو إذن متعلق بهذا الشيء. بينما الكبرياء هي عميقة، داخلية، شخصية، مستقلة، ودون أي مرجعية اجتماعية. الفخر يعطي الشرف، بينما تعطي الكبرياء الكرامة.

المزيد من الكلمات الجميل سماعها. بالرغم مما عشته، وما زلت تعيشه، لا يوجد لديك أكثر من الكلمات، مجرد كلمات جميلة الوقع على الآذان. ولم تزل غير قادر على إقناع نفسك بأنك تحتاج هذا المال. إنه تقريباً خمسة آلاف أفغانية. تستطيع بها إنقاذ أمك، أختك، وخطيبتك. أن تترك عائلتك تموت جوعاً ألا يؤثر هذا في كبريائك، وفي كرامتك؟

ساخطاً، يشعل سيجارة ويسحب نفساً عميقاً، ولحظة يزفر الدخان يطفيء الشمعة. يستلقي بعدها، وينتظر في العتمة. ينتظر بزوغ الفجر كي يذهب ليبحث عن ابن عمه ليعيد إليه المال.

لا، ليس بهذا المال سأنقذ عائلتي.

حسناً. إذن بماذا؟

يدور، ويتلوى في فراشه، وبأظافره ينزع القليل من رقائق الطلاء

التي تتقشر من الجدار. ثم، وكما الأطفال، يلحس رؤوس أصابعه حيث بقايا الطلاء، التي لم تزل كالعادة، تثير الغثيان. يلحسها كي يتقيأ لا كي ينام.

لكنه لم يتقيأ.

ولم يعد للنوم أيضاً.

عند أولى تباشير الفجر، يصل إلى فندق الميتروبول. كان الشارع محاطاً، ومحمياً بدبابتين، بعض سيارات جيب عسكرية، وعربات كُتب عليها الأحرف الأولى من: «يو، إن» يتقدم رسول بخطوات واثقة باتجاه الفندق. هنا، يوقفه رجلان مسلحان. يحرك شفتيه كما لو كان يريد لفظ اسم رازمودين.

ماذا؟

فجأة، يضيع كل شيء في فوضى عارمة. يمّر رجال يحملون جثة شهيد وهم يصيحون: "الله أكبر!" ثم "لنثأر للشهيد!" يترك الحارسان رسول لوحده، ويلتحقان بالموكب، ومن ثم يختفيان. يدخل إلى الفندق. يعجّ بهو الفندق برجال مسلحين وبصحفيين. على أمل ما. لكن أي أمل؟ يتجه رسول نحو السلم الذي يقود إلى مكتب رازمودين، لكنه وهو في الطريق إليه، يتوارى عن الأنظار في إحدى الزوايا، عند رؤيته للقائد روستان آتياً من الناحية الأخرى للردهة، بصحبة رجلين ـ هما نفس الرجلين اللذين كانا في غرفة براويز، واللذين بصقا بكراهية لا حدود لها، على هذا القائد القادم من «مازار ـ شريف». يبدو عليهما الفرح الآن بالرغم من الأجواء المتوترة التي تحيط بالفندق. يبدو أن الجميع قد أصبحوا شركاء الآن.

يصل رسول إلى مكتب رازمودين خفية، لكنه لم يكن موجوداً. لا بد وأنه قد ذهب إلى «مزار» كي يبحث عن دنيا. هذا رجل حقيقي. يفعل ما يتوجب عليه أن يفعل. هكذا أفضل.

نعم، هكذا أفضل، لأنه يعتقك من مسؤوليتك.

يكفي هذا. يكفي أن تعتبرني جباناً. لا أصلح لشيء. أنا لست سوى ابن ضال، خطيبٍ ضائعٍ، ومجرم فاشل... لا شيء غير هذا. دعني أثمل، دعني أسبح في الهاوية الشاعرية للقنب.

يطرق باب «الساقيخانة». "من هنا؟" يسأل حكيم، صاحب صالة التدخين، وهو ينظر من خلال الشقوق في الباب. "أنت رسول؟" نعم. يرتفع صوت «كاكا ثروت»: "لكن أي رسول أنت، القديس أم المحشش؟" يفتح حكيم الباب ضاحكاً، ويجذب رسول نحو الداخل. وكالعادة فقد بدا كل شيء غامضاً وعائماً في الشكل الحلزوني للدخان، كما في الحلم.

يغلق حكيم الباب ويشير لمكان فارغ في حلقة المدخنين كي يجلس رسول، بالقرب من شاب منتش. "جلال، أفسح له مكاناً"

لكن شاباً آخر يجلس بالقرب من جلال هو من يفسح له مكاناً قائلاً: "لا تفسدوا عليه انتشاءه، فجلال يسبح في السماء السابعة. إن هو تحرك، يقع. تعال لهنا يا ابني، تعال بالقرب من مصطفى. وسوف تكون أيضاً على ما يرام". يُجلس رسول بقربه، ويمد نحو بالغليون. "خذ، هذا لأجلك أنت الذي وصل حديثاً". يُفرغ رسول في البداية صدره من الهواء الكبريتي للمدينة، ومن ثم يتنشق من الحشيش بقدر ما تستطيع رئتاه استيعابه.

"هذا ال «جلال» ولدته أمه حيّاً بفضل الأفيون. كان حجمه كبيراً على ما يبدو. بفضل قوة الأفيون استطاعت أن تلده. فهو وُلد إذن في الأفيون، في الثمالة... يا لحظه السعيد!" بينما هو يتنشق الدخان، يلقي رسول بنظرة مقتضبة نحو جلال، الذي يرفع رأسه ويتمتم: "ألم تبدأ الحرب بعد؟" يهمس مصطفى: "عن ماذا يتحدثون في الخارج، هل هناك انقلاب آخر؟" يهز رسول كتفيه كي يقول أنه لا يعرف شيء، ويسحب نفَساً جديداً. يصرخ

مصطفى، مشيراً نحو رسول: "«كاكا ثروت» هو أيضاً لا يعرف شيئاً، هو إذن ليس الرسول، النبي المرسل".

يهز «كاكا ثروت» رأسه: "إنه جاهل بكل شيء، وهذا منتهى الحكمة! نعم، هذا الشاب فهم كل شيء. وعرف كل شيء، لكنه يتجاهل كل شيء.

يتحرك رأس رجل آخر من بين الدخان: "ها قد مضى علينا عدة سنوات ونحن نجهل كل شيء، والعالم كله يتجاهلنا. هذا أيضاً نوع من الحكمة".

– هذا لا يشبه ذاك.

– إذن فأنا أنا لم أعد أفهم أي كلمة مما تقول، «كاكا ثروت»،

– اسمع، عندما تقول أنك لا تفهم شيئاً، فهذا يعني بداية الحكمة. ولحظة تقول أنك تجهل كل شيء، فهذا يدل أنك قد وصلت إلى المعرفة المطلقة. هل تعرف أي شيء عن هذه الحرب؟

– لا

– جيد. أنتِ تعرف أنك لا تعرف. بداية إنه لشيء عظيم! وعندما تفهم سبب هذه الحرب، فإنك تتمنى لو أنك تجهل كل

شيء. هيا، هات اعطني الغليون!" يدخن، ومن ثم يعاود الكلام: *"كان هناك حكيم بين الحكماء يدعى «عطار»[18] كان يقول أنه في وادي الدهشة ـ الوادي ما قبل الأخير من الحكمة الذي يدعى وادي حيرات ـ يبقى المسافر فيه مذهولاً ومشدوهاً فيضيع. ينسى كل شيء، ومن ثم لا يلبث أن ينسى نفسه!" يغلق عينيه ويلقي بالقصيدة: "إذا ما قلنا له: «أن تكون أو لا تكون، ألديك أم ليس لديك شعورٌ بالوجود، أأنت في الوسط، أم لا، أأنت على الحافة، أأنت مرئي أم مخفي، فانٍ أم أبدي، هل أنت هذا وذاك أم أنك لست هذا ولا ذاك، هل أنتَ موجود في النهاية أم غير موجود؟» سوف يجيب بشكل إيجابي: «لا أعرفُ، أجهل ذلك وأجهل ذاتي. أنا عاشق، لكن لا أعلم من، لست مؤمناً ولا ملحداً، من أكون إذن؟ أجهل حتى من هو حبيبي، فقلبي فارغ من الحب وممتلئ في الوقت نفسه».*

"إذن، هل نحن في ذاك الوادي؟" يسأل حكيم، فينتزع بذلك ضحكة من المدخنين.

"لو أنك بدل أن تطرح علينا أسئلتك السخيفة تلك، تجعلنا نُدهش من جودة حشيشك!" يقول «كاكا ثروت» وبعد أن يستنشق نَفساً طويلاً، يعطي الغليون لجلال، الذي يصحو قليلاً فيقول: "إذن الحرب لم تبدأ بعد!" يطمئنه مصطفى ويلتفت نحو رسول: إنه خائف من الحرب. مرعوب من الدم، من القذائف والصواريخ. لهذا، فهو قبل أن يُقتل في الحرب فسوف يَقتل نفسه بالقوة في الحشيش. ها نحن نحلّق منذ أربعة أيام من ساقيخانة لأخرى".

---

[18] العطار: هو الشاعر المتصوف فريد الدين العطار. من كتاباته: وادي الحيرة.

لم يعد نَفَس الغليون يسحب. يرفع جلال رأسه، المنهك تماماً، : "هل انتهى؟".

- الحرب؟ نعم.

- لا، الحشيش...".

يأتي حكيم ليضع له رأساً جديداً في الغليون: "هل لديك المال؟".

- المال؟... مصطفى، هل لديك...".

- كلا جلال. فجيوبنا جافة مثلها مثل مؤخراتنا".

ينهض رسول، مترنحاً، يسحب من جيبه ورقة من فئة الخمسمائة أفغانية ويعطيها لجلال. ينظر إليه الجميع بإعجاب ودهشة. يخرج خمسمائة أخرى ويقدمها لحكيم كي يشتري الكباب للجميع.

ترتفع كل الأصوات لتشكره. فيغادر هو صالة التدخين فخوراً، رشيقاً، وخفيفاً. أكثر خفّة من الهواء نفسه. يا للنشوة! من الآن فصاعداً سوف يعيش بمال روستام كما لو كان سيعيش بمال «نانا عليا»، بشكل سعيد ولائق.

الآن، سوف أذهب لأبحث عن صوفيا. سوف أضمها بين ذراعيّ. سوف نتزوج. ثم آخذها، هي وعائلتينا، لمكان آخر بعيد عن هنا، فيما وراء حدود الخوف.

يركض.

يسقط صاروخ بالقرب منه جاعلاً الأرض تهتز.

يركض.

لا شيء يمكن أن يوقفه. لا الطلقات، لا حركة السير، ولا الألم الذي في كاحله.

لا شيء يؤثر فيه. لا الصراخ، ولا النحيب، ولا صرخات الاستغاثة.

لا يتوقف إلا عندما يصل بالقرب من منزل صوفيا. ينتظر ليستعيد أنفاسه المقطوعة، ومن ثم يطرق الباب.

بعد فترة صمت طويلة يُفتح الباب. إنه داوود. يا للعجب، إنه ليس على السطح! "في ساعة كهذه، لا يوجد أي حمامة تطير"، يغلق داوود الباب يتبع رسول ويتابع كلامه بحماس "لقد عادت حمامتي. لحظة غادرت أنت،

عادت هي، فكرت أنها قد هربت بعيداً عن هنا." يضحك، "لقد سبق لي واستبدلتها ب...." مبتهجاً وفخوراً، يتجه نحو زاوية في الباحة، يأخذ شيئاً من تحت قفص الحمام، ويجلبه لرسول. "انظر، بماذا استبدلتها". إنه[19] «كولت». "وهو في حالة جيدة!" يتحقق رسول من المخزن، إنه معبأ. "أخذته لأجلك..." لأجله؟ ماذا سيفعل به؟ "كل الناس لديها سلاح إلا أنت! إن كنت تملك سلاحاً لن تموت. خبئه كي لا تراه والدتي" .قلقاً، يأخذه من يد رسول ويخبئه في قميصه. "لقد جاء ابن عمك، كان يبحث عنك. قال أنه سوف يذهب إلى «مزار»" يسير رسول في الممر، ويرى ضوءاً قادماً من نافذة المطبخ. يدخل ويسلم على والدة صوفيا. "كيف حالك يا بني؟ جاء رازمودين وأخبرنا بشأن والدك. فليرحمه الله

---

[19] كولت: نوع من المسدسات الصغيرة.

ويدخله فسيح جناته. كيف حال أمك وأختك؟" تتحاشى نظرات رسول. "كم من الأمور التي يجب على والدتك المسكينة تحملها!" للدلالة على الحداد، لا يوجد غير الصمت.

وصوفيا؟ أين هي؟

يلقي رسول بنظرة إلى الردهة. لا يوجد أي حركة ولا أية إشارة تدل على وجودها. "طلبت القليل من المال من «نازيغول»، قلت في نفسي على الأقل ليأكل أولادي مرة واحدة حتى الشبع". تقول الوالدة كما لو كانت تبرر لشئ ما. لكن تبرر ماذا؟ تنحني فوق الطنجرة، وتنظر إلى داخلها، كما لو أنها كانت تبحث فيها عن الكلمات المناسبة. بعد فترة من التردد تقول: "ذهبت صوفيا لعند «نانا عليا»" كان صوتها جافاً، جافاً جداً. "جاءت «نازيغول» لاصطحابها. فهي وحدها في المنزل، لقد ذهبت «نانا عليا» لا أحد يدري إلى أين، وهناك الكثير من العمل الذي يجب عليها القيام به. سوف تعود متأخرة هذا المساء." لكنه سبق وطلب منها ألا تعود لهناك، وها قد عادت. بمعنى آخر، لم تكن لتعليماته أي قيمة بالنسبة إليها. هذا هو الأمر. يستدير كي يذهب، لكن والدة صوفيا، ودون أن تلتفت نحوه، توقفه قائلة: "رسول..." وتتوقف عن المتابعة وقفةً لا تبشر بأي أقوال طيبة. "لدي... شيئان، ثلاثة، أريد أن أقولها لك." حسناً، سوف يسمع الآن ما كان يخشى دوماً أن تقوله: "لكن لا أعرف كيف أقول لك". تهش الهواء بطرف حجابها. "لا تأخذ كلامي على محمل الخطأ، أنا أعرف أننا نفهم جيداً بعضنا البعض..." نعم، رسول يفهمك جيداً. منذ بعض الوقت وهو يجهز نفسه ليسمع ما يعتلج في صدرك. هيا قولي له كل

شيء: "إلى متى سوف ننتظرك؟ خصوصاً أن حياتك قد تغيرت الآن. فلديك أم وأخت هما بحاجة إليك، أكثر منا. يجب أن تعود إليهما". يشعر رسول أن جسده قد فُرّغ. فُرّغ من الدماء، من الأمل، ومن الحياة. لم يعد أكثر من قشة عقيمة، جافة، ودقيقة جداً...مرمية على الأرض، متروكة لمهب الريح. يستند على الجدار كي لا يقع تحت أقدام والدة صوفيا التي تتابع سحقه بكلامها: "يجب الآن أن نفكر بأنفسنا، ليس بمقدورنا انتظارك للأبد. أنت لم تعد تملك شيئاً. لا عمل. ولا مال. فإلى متى؟ دعنا نأخذ بيد أنفسنا، ونجد حلاً". لكنه يحب صوفيا. "عد إلى والدتك، رسول! سوف نتدبر أمر أنفسنا. لا تقلق".

لكن، هو يحب صوفيا.

نعم، هي تعرف ذلك. لهذا فهي تصمت، تعلّق كلماتها كي لا تتابع شرح أفكارها إلا في نظراتها المحمّلة بالتأسف والاعتذار نحوه. يخفض رأسه. وبعد أن يبقى للحظات طويلة خائر العزم، يغادر المطبخ، والردهة. يجد داوود في زاوية من زوايا الباحة، يعتني على ضوء مصباح زيتي خافت، بذيل حمامة مجروحة. يُخرج رسول رزمة الأوراق المالية ويقدمها له. "ما هذا؟" إنه ثمن «الكولت» خاصتك. يأخذ داوود منه المال وهو يكاد يطير من الفرح، ويعطيه عوضاً عنه المسدس. "كل هذا المال لي أنا؟" نعم.

"كله؟" نعم كله. "كم من الحمامات نستطيع أن نشتري بكل هذا المال؟" يتركه رسول غارقاً في حساباته، ويختفي في الشوارع المغبرّة، كما الطيف في الغسق، غامضاً وفارغاً.

نعم فارغ، فارغ من أي مضمون.

كلا، رسول، أنت لست فارغاً. بل فقط أُطلق سراحك. وها أنت قد تحررت من كل الضغوطات، تخلصت من كل المسؤوليات. تحررت، لأن حاجة صوفيا إليك لم تعد تزيد عن حاجة والدتك وأختك.

نعم، هذا ما يسمى الفراغ: عندما لم يعد أحد بحاجة إليّ، عندما لم أعد أملك شيئاً لأقدمه. عندما وجودي وعدمه لا يعنيان شيئاً لأحد.

تماماً. من دونك سوف لن يغدو العالم فارغاً. بل مفرّغاً منك. هذا كل شيء.

إذن، اتركها!

سوف أتركها. لكن قبل ذلك، يجب أن أخبرها أن «نانا عليا» لم تعد موجودة، وأني قتلتها بيديّ هاتين.

سوف تعلم، في يوم ما. هذا المساء هي مع نازيغول التي تقدم "الضيافة" التي كانت والدتها تؤمنها. دون شك هناك عامر سلام ومدعووه.

ما الذي سوف تفعله؟

يتوقف رسول.

يجيش في صدره بكاء لا يعرف كيف يتخلص منه. يبحث عن سيجارة في جيبه. تلتطم يده بالمسدس. يرتجف. وتأخذ دموعه بالانهمار. إنه يبكي موته.

17

يسقط جسد أحدهم على الأرض. يفتح رسـول عينيـه، ويتعـرف عبر الدخان على جلال، يجر نفسه حتى يصل إليه ويسـنده. لكـن لا أمل يُرجى لإنقاذه. يرقد واللعاب يسيل ببطء من فمه. "إنه رجل سعيد" يتمتم «كاكا ثروت» عيوناه مغلقتان، وجسده منثن. "إنـه لا يتحرك" يلاحظ أحد الفتية المتواجـدين قـرب رسـول. يفتّح «كاكـا ثروت» عيناً من عيونه، ينظـر لجـلال ويعـاود القـول: "إنـه رجـل سعيد. وُلد في الثمالة ومات فيها".

– ما الذي يمكننا فعله لأجله؟

– "لا شيء" يهمس مصطفى، وهـو في مكـان آخـر، منكفئـاً في إحدى الزوايا ويداه تحت إبطيه.

"لقد مات بإرادته. بما أن حياتنا تتعلق بالآخر، فدعوا لنـا هـذا الحق بالموت. اتركوه بسلام، أيها الفتية، سهّلوا عليه موته" يقـول «كاكا ثروت»، وهو يعاود إغلاق عينيه، مرنماً مـن تحـت لحيتـه: *"نأتي ونذهب، دون أن نترك أثراً/ نولد ونحيا، ولا يتبقى منا أي خلية / في نار تلك الآلة الجهنمية، تُستهلك الكائنـات البشـرية/ وتتحول إلى رماد، دون أي دخان"*.

يتراجـع رسـول، ويسـتند علـى الحـائط، وبنظـره المثبـت علـى جلال، يتراءى له الموت قادماً. موتُ لطيفُ، هانئُ. يحمـل جـلال بعيداً عن هذا الجحيم، يمنعه من الموت برصاصة طائشة، أو بضربة فأس. موت دون ألم. دون وجـود أحـد ليحاسـب، دون وجـود مـن

يتّهم، ومن يعدم. فلا وجود لأي مذنب، وبالتالي ليس هناك جريمة ولا عقاب.

يخرج سيجارة ويشعلها، ومن ثم يخرج من صالة التدخين ليذهب إلى غرفته التي تعّج بالذباب. يذهب مباشرة إلى السرير، بعد أن يسحق عقب سيجارته بالجدار، ويتمدد. هناك شيء ما في جيبه يزعجه. إنه المسدس. يضعه على صدره. ما العمل؟ يقول في نفسه. ما العمل؟ يردد السؤال في داخل صمت حنجرته، فيحاول أن يطلق صرخة متأملاً أن تخرج كلماته من بين شفتيه، وتدّوي في الغرفة، لتصل سفح الجبل، وتنتشر فوق المدينة كلها... لكن لم يخرج أي صوت، ولم يسمع أي جواب.

ما العمل، يجب أن تكون هذه الجملة قد قيلت دون إشارة استفهام. إنها ليست سؤالاً، لكنها مجرد فكرة. كلا، حتى أنها ليست فكرة، إنها حالة. نعم، هذه هي. حالة من الخدر، حالة يصبح فيها كل سؤال مصدراً للإزعاج بدل الاستجواب، ينادي علينا بدل أن ننادي نحن عليه.

ما العمل.

هذه الحالة عرفتها سابقاً، رأيتها من قبل، حتى أني شعرت بها وهي في عيني حمار.

كان هذا في الخريف. ولم أكن أبلغ من العمر أكثر من أحد عشر عاماً.

وكالعادة كل عام في مثل هذا الفصل، كنت أرافق والدي إلى الصيد، عند ضواحي «جلال أباد» حيث يملك جديّ قلعة كبيرة. قلعة من الطين. لم يكن السوفييت قد غزوا البلاد بعد. والحرب لم

تكن قد بدأت، وكان والدي لم يزل يتفق بشكل جيد مع أهله الذين كانوا يكرهون الشيوعيين.

وكالعادة، فقد أخذنا معنا حماراً كي يحمل لنا أغراض الصيد، وليرشدنا في درب الوديان وفي الصحراء التي لا نقطة استدلال فيها. بعد أن مشينا لمسافة طويلة، وصلنا إلى حقل قصب واسع محاط بساقية كبيرة. إنه مكان مثالي لاصطياد العصافير المهاجرة. ربطنا الحمار في الشجرة اليابسة الوحيدة التي وُجدت ليس بعيداً عن هذا الحقل.

عند شاطئ البحيرة، قمنا بعمل مخبأ كي نكمن فيه وننتظر العصافير. وبينما نحن ننتظر، استسلم والدي لغفوة صغيرة.

كان الهواء عليلاً، يداعب ساق القصب، ويجعلها تصدر صفيراً. تنسّمت هواءً متناغماً، هانئاً، ومخدراً. بدأ النعاس يغالبني، فغفوت ببطء، ولمدة طويلة. وعندما فتحت عينيّ، كان الغسق يغطي الحقل بضباب غريب، حزين ومقلق.

راح والدي، وقد أخذته الحمّية، يراقب السماء، وهو يقول أن العصافير المهاجرة سوف لن تتأخر عن الوصول. وقد تحقق لمرات عديدة من جاهزية بندقيته .

مرّت الدقائق، وهبط الليل، ولم تُصدر أي إشارة، ولا أي صوت من السماء.

لم يكن هناك غير الصمت.

والفراغ.

فجأة، ملأ نهيق الحمار الحقل، خفيفاً في البداية ولم يلبث أن أصبح أكثر فأكثر قوة، كان خائفاً ومخيفاً.

أمرني والدي أن أذهب لأرى ما الأمر. ترددت. كنت خائفاً. وبخني وأمرني أن أذهب كي أُسكت الحيوان، وإلا فسوف لن تأتي العصافير. ذهبت، وقد جمد الدم في عروقي. عند حافة الحقل، ذعرت لرؤيتي ذئبين يعويان وهما يدوران من حول الحمار قبل أن ينقضّا عليه. والحمار، واقع في الفخ، لم يكن يستطيع غير النهيق.

ركضت عند والدي، مذعوراً. فهرع فوراً راكضاً عبر القصب وبندقيته في يده. في البداية حاول أن يُبعد الذئبين برميهما بالحجارة. لكنهما التفتا إليه، وقد أكسبهما لمعان عيونهما شكلاً مخيفاً. اختبأت ـ وأنا أشد رعباً من السابق ـ خلف والدي الذي وجّه سلاحه نحوهما. في اللحظة التي استعدا فيها لمهاجمتنا، دوّت طلقة، فخرّ أحد الذئاب صريعاً وهو ينازع. توقف الذئب الآخر، لكن والدي وضعه في خضم اللعبة، فتراجع الحيوان، ومن ثم هرب.

والحمار يتابع النهيق.

توجب علينا مغادرة هذا المكان بأقصى سرعة، قبل أن تصل ذئاب في مجموعات. وبينما كان والدي يتجه نحو القصب كي يجلب أغراضنا، أسرعت أنا لتهدئة الحمار بالتمسيد له، وبفك رسنه. وقد سكت أخيراً.

وبينما نحن نسرج الحمار، كان والدي يراقب السماء والمناطق المحيطة، متبرماً، وهو يصب اللعنات على هذه السماء القذرة، التافهة.

هبط الليل، وظهر القمر، والحمار يتقدم ونحن من خلفه. كان والدي يضيء من فترة لأخرى الطريق بواسطة مشعل. تسلقنا هضبة، فتوقف الحمار عند قمتها. ضربه والدي على ردفه، لكن

الحمار رفض التقدم. كان ينظر للطريق بعدم يقين. ضربه والدي مرة ثانية، ضربة أقوى من الأخرى. هذه المرة، عاود الحمار السير، ببطء. كنت خائفاً أن نتيه. لكن والدي طمأنني، بأن الحمار يعرف جيداً طريقه، فالقرية لا بد وأن تكون غير بعيدة، ربما على بعد ساعة من السير.

عندما نزلنا من الهضبة، وجدنا أنفسنا في حقل آخر، ومن ثم هضبة أخرى. لحظة وصلنا إلى قمتها، عاد الحمار ليتوقف من جديد. فأجبرته الضربات على متابعة سيره، والهبوط رغماً عنه.

عند سفح الهضبة، انفتح أمامنا، حقل كبير شاسع، وفي وسطه، ظهرت الشجرة الوحيدة اليابسة المعزولة، فتوجه الحمار نحوها دون تردد. عندما اقتربنا من المكان لاحظنا في العتمة المضاءة بضوء القمر، جثة حيوان وبالقرب منها حيوان آخر يحرسها. أشعل والدي المشعل. فرأينا جثة الذئب، وقد رفع الذئب الآخر رأسه نحونا. تجمدنا من التأثر. جهزّ والدي بندقيته. لكن الحمار اقترب من الذئب، دون خشية. تقدم الذئب بدوره نحوه مصدراً عواءً. في اللحظة التي صوب فيها والدي نحوه البندقية، هرب.

حاذى الحمار جثة الذئب، وتوقف عند جذع الشجرة. أضاءت الشعلة في البداية جسد الحيوان، ومن ثم الشجرة، وأخيراً المساحة التي حولها. أصابتنا الدهشة في البداية. كنا نحن الاثنين خائفين لعودتنا إلى المكان نفسه، المكان الذي قتل فيه والدي الذئب. سألت والدي بصوت مرتعش لماذا قادنا الحمار إلى هذا المكان مرة أخرى. لم يكن لديه أي فكرة عن ذلك. حانقاً، توجه نحو الحمار وراح يضربه على ظهره كي يجعله يتحرك. لكن الحمار بقي دون حراك. وبنظرة

ميالة للشك، أخذ والدي العصا، وأعطاني الحبل، وأمرني بسحبه.لكن دون جدوى. فقد قرر الحيوان أن لا يتابع السير. قرأت هذا في عينيه. تينك العينين المطفأتين المتعبتين. لاطفته، رجوته. لكنه لم يتحرك. أعطاني والدي العصا، وقد ازداد غضبه، وأخذ هو الحبل، وصرخ بي أن أضرب الحمار، على رأسه، وعلى ظهره.

لكن قلبي لم يطاوعني. لهذا فقد أغاظت ضرباتي التي دون اقتناع والدي، وزادت من غضبه، فراح يوبخني ويشتمني. كانت أصواته تختلط بعواء الذئاب وتدّوي في السهل. أخذت أضرب الحمار بغضب عارم، وأنا على وشك البكاء. لكن أيضاً دون فائدة. تركت كل شيء من يدي، وأنا منهك، ويائس، وانخرطت في بكاء مرير. ترك والدي حبل الحمار، وخبطه في رأسه بعقب البندقية. انهار الحيوان. لم يعد باستطاعتنا بعد الآن حمله على النهوض. كل ما كنا نفعله كان يبدو دون جدوى: دموعي، عواء الذئاب التي كانت تقترب شيئاً فشيئاً، الأوامر الغاضبة لوالدي، الذي عاد فأخذ العصا كي يغرز مقدمتها في لحم الحمار وهو يقسم إن هو لم يتحرك، فسوف يضع فوهة البندقية في مؤخرته ويفجره. لكن الحمار الذي كان جامد الشعور، ثابتاً دون حراك، بقي مستلقياً. أما والدي، الذي فقد أعصابه، رفع بندقيته كي يصوب عليه، لكن الحيوان استمر بالتحديق فيه دون أية ردة فعل.

حبست دموعي. وحده عواء الذئاب كسر الصمت. ارتجفت البندقية في يد والدي. أغلقت عينيّ، ولم أسمع غير صوت الطلقة، ومن ثم صراخ العصافير الخائفة التي طارت عبر حقل القصب.انبثق الدم من جبهة الحيوان. فتح عينيه المستسلمتين للحظات قبل أن

يعود فيغلقهما بهدوء، كما لو أنه قد ارتاح. من ثم خيم الصمت الثقيل. لم يعد هناك لا صوت عصافير ولا عواء ذئاب. بدا كل شيء وقد توقف فوق صفحة الليل البهيم.

بعد أن هدأ غضب أبي، واستعاد وعيه، عبأ بسرعة بندقيته، وضع أمتعتنا فوق ظهره، وبدأ يسير صارخاً بي: "رسول، هيا، تحرك! رسول؟".

كانت هذه الرواية الغريبة التي سمّاها رسول ـ نايستام في حقل القصب ـ تطارد عقله. تعيش معه بورعٍ وصمت. كان والده أيضاً يحكيها في الحلقات والجلسات، في أي مكان، وأي وقت، وأمام أي كان. في كل مرة كان يطلب من رسول وهو يحكيها، أن يذكّره بالتفاصيل التي يكون قد نسيها. في الواقع كان يريد أن يجعل منه شاهداً على واقعية هذه المغامرة التي لا تُصدق. لكن رسول كان يتجنب هذه اللعبة. لدرجة أنه كان يغادر فوراً المكان لحظة يشرع والده في الحكي. ليس لأنه قد ضجر من الأمر. لا. بل لأنه كان يريد أن تبقى هذه الحكاية سراً بينه وبين والده. لماذا؟ لم يكن لديه أي فكرة عن السبب. ولم يعرف مطلقاً الجواب. بيد أنه غالباً ما كان يحكيها مع نفسه من البداية للنهاية. وفي كل مرة كان يضيف تفصيلاً معيناً، ويمحو آخر. يتوقف من وقت لآخر مطولاً عند اللحظة التي تتطابق فيها الصورة مع حالته النفسية. لهذا السبب هو لم يرغب مطلقاً في كتابتها، وتثبيتها على الورق. فعندما سيكتبها سوف تصبح كاملة، دون زيادة أو نقصان، أي ميتة.

كذلك فإنه لم يعد يميز جيداً ما الذي كان يزيد والده عليها، وما كان هو نفسه يؤلف فيها، ما هو صحيح وما هو خطأ، ما هو من ذاكرته، وما هو من أحلامه... هذا لا يهم. الغريب أنه في هذه اللحظة، كان يفكر في نظرة الحمار. ما الذي كان يخبئ وراء هذه النظرة الغريبة؟

كان يخبئ كل شيء. فهذه النظرة التائهة، البريئة، المعبرة عن الشك، كانت تناديه وتقول له: "لكن لماذا تهت؟ لماذا لم أعد أعرف طريقي؟ أين هو الدرب؟ أليس هو الطريق الذي أسير فيه كالعادة؟ ما الذي يجري؟ لماذا لم أعد أتعرف عليه؟ لماذا يبدو لي هذا المسار غريباً؟ هل بسبب الليل؟ أم أنه الخوف؟ أو التعب؟ أو الشك؟" وبما أنه لم يجد جواباً شافياً، فقد تحولت أسئلته إلى ذهول.

إلى الجحيم بالأسباب كلها.فقد كان الحمار هنا، تائهاً. وكان يعلم أنه لم يعد يستطيع إيجاد الطريق. لهذا، لم يبق أمامه غير أن يءن وهو يفكر: "ما العمل" دون أي إشارة استفهام.

ما العمل. ينهض رسول. فيسقط المسدس من فوق صدره المبلل بالعرق. ينبض قلبه بجنون كما لو كان سينفجر، يدق في الخارج بالقرب من السلاح.

يمسك المسدس بيد مرتجفة، يضع فوهته عند أعلى أنفه، بين عينيه. تضغط يده على الزناد. لم تكن الرصاصة فعّالة. كان يعرف ذلك، هو يريد فقط أن يتدرب، أن يتعلم إن كان من السهل إطلاق رصاصة في الرأس.

أجل، في الحقيقة هذا غاية في السهول. يكفي أن يغمض عينيه.

يغمض عينيه.

وألا تفكر، لا بشيء، ولا بأحد. حتى ولا بعدوك، ولا بكراهيتك، ولا بخساراتك.

لم يعد يفكر بكل هذا.

يركّز على المسدس. روحه هي الرصاصة، وجسده هو الاسترخاء.

لم يبقَ سوى المبادرة، وهي بسيطة مثلها مثل اللعب. هذا كل ما في الأمر، بسيطاً كما اللعب. لعب دون أي منافسة، ودون خصم، لكن يجب في البداية أن نؤمن بلعبتنا الخاصة بنا، لا نفكر إلا بالحركة. ولا شيء غيرها. لا في صحة هذا اللعب ولا في عدم جدواه. كل ما علينا القيام به هو أن ننفذه بطريقة جيدة، أن نحترم القواعد، وأن لا نغش.

الآن، يجب أن نحشو الرصاصة، ونضع المسدس بين العينين.

إنه ثقيل، هذا المسدس.

تغدو يده ضعيفة.

إنه عطشان.

يجب ألا تفكر بالماء أيضاً. لنقل أنها لعبة، وعندما ننتهي من اللعب، ننهض لنشرب الماء.

نغلق أعيننا.

ونطلق.

18

ستموت إذن؟

نعم سأموت. سأموت بثقب بين عيني، سيتدفق منه خيط من الدماء يسيل فوق الحشية، من ثم على البساط، لينتهي في إحدى حفر الأرض ويشكل بركة صغيرة حمراء. دوّت طلقة الرصاص في الغرفة، في الباحة، ومن ثم في المدينة كلها. لا بد وقد أيقظت يارموحمد. قد يعتقد أن أحداً ما قد أطلق النار في الشارع، أمام منزله، ويعود لينام في سريره. ستقلق رونا، وتصّر على زوجها ليتأكد إن لم تكن الطلقة قد أُطلقت في المنزل، عليّ أنا. لن يهتّم يارموحمد، سيقول في نفسه: "أخيراً تخلصنا منه" وهو يتّلحف أكثر فأكثر في غطائه.

سيأتي عند الفجر، بعد الصلاة، ويقف بصمت وراء باب غرفتي.

لماذا سوف يأتي؟

صحيح، لماذا سيأتي؟ إنه لن يأتي. سوف تبقى جثتي هنا. وسوف تتفسخ. ويغطيها الذباب. وبعد يومين أو ثلاثة، ستدفع الرائحة الكريهة يارموحمد للصعود إلى غرفتي. لن يلاحظ في البداية غير الصمت. سيطرق الباب أول مرة. ولن يسمع جواباً. سيدفع الباب الذي سيُفتح بنفسه مصدراً صريراً. عند اكتشافه لجثتي المغطاة بالدم، سيُصدم من الذعر، مرعوباً من فكرة أنهم قد يتهموه بقتل مستأجره. عندما يرى المسدس في يدي، سيفهم أني انتحرت. سيهرع عندها ليأتي برازمودين.

وبعد؟

لا شيء. سيفهمون أن انتحاري هو تنهيدتي الأخيرة أمام هذا العالم الذي لم يعد يجيب عن أسئلتي، ولم يعد يفاجئني.

رسول، من الذي سيقتنع أنك أنت هو من قام بعمل كهذا؟ لا أحد. لا يارموحمد ولا رازمودين. أنت تعرف تماماً أن الانتحار لا ينتمي إلى ثقافتك. وأنت تعلم تماماً لماذا.

بداية، كي ننتحر، يجب أن نؤمن بالحياة، وبقيمتها. كما يجب أن يستحق الموت الحياة. هنا، في هذا البلد، في هذا الوقت، لم يعد للحياة أي قيمة، كما لم يعد أيضاً للانتحار قيمة.

ثم إن الانتحار يعتبر نوعاً من التمرد الجاحد ضد مشيئة الله. وكأنك تقول له: "خذ، ها أنا أعطيك إياها قبل أن تأخذها أنت مني، هذه النفس اللعينة التي أوجدتها أنت في داخل جسدي البريء!" هذا كي نثبت له أننا نملك سلطة أكبر منه، وأننا لم نعد نرغب في أن نبقى عبيداً له. الانتحار هو تسليم الروح دون شكر أو امتنان.

عندما تنتحر، سوف يتلقى جسدك الجلد بالسياط، قبل أن يُدفن. لهذا السبب، لا أحد يعترف بالانتحار. فكل انتحار هو فعل متنكّر بهيئة جريمة قتل. سوف لن تكون أكثر من ضحية، مجرد شهيد، استشهاد مثله مثل غيره. أنت الذي أردت أن تصل إلى "الإنسان الأسمى".

أصبح شهيداً؟ آه لا، إنها عقيدة الجميع الآن. ولم يعد لها قيمة. يجب أن يعلم كل العالم أني انتحرت.

إذن اذهب وقف وسط منعطف طريق، الق بمحاضرتك تلك، وأطلق طلقة على رأسك، أمام الشهود. هكذا سوف يعلم كل الناس بما فعلت، لكن، لا أحد سوف يفهم الجانب النظري لفعلك هذا. كل واحد منهم سوف يعطي تفسيره الخاص. سيقول أحدهم: "كان مريضاً" ويقول آخر: "كان يدخن الكثير من الحشيش" وآخر: "إنه تأنيب الضمير. ربما تصرف بشكل سيئ مع عائلته!" أو: "إنه نادم كونه أحد العملاء، شيوعي، خائن!" وإذا ما اكتشفوا في يوم ما أنك أنت هو قاتل نانا عليا، فسوف يقولون أن ضميرك الفاسد هو من أوصلك لهنا. نعم، لا أحد سيقول أنك انتحرت لأنك وصلت للنهاية، وأنه لم يعد لأسئلتك أي نقاط استفهام، وأن كل استفهامك لم يعد أكثر من دهشتك أمام العبثية المفاجئة للحياة. لا أحد سوف يقول أنك قتلت مخلوقاً مؤذياً. *كائناً ضاراً* كي تصل إلى مصاف "الرجال العظماء"، وتأخذ لك مكاناً في التاريخ. كذلك، لا تنسَ أنه الآن، في هذا البلد، يريد كل فرد أن يصل إلى هذه المرتبة. الكل يقاتل كي يصبح «*غازياً*»، وإن قتل، يتحول إلى «*شهيد*»، أقرباؤك سيجعلون منك «*غازياً*» بما أنك قد قتلت قوّادة، أو «*شهيداً*»، لأنك قتلتها كي تنتقم. سوف يُكتب فوق شاهدة قبرك: "الشهيد رسول، ابن إبراهيم" إن أردت ذلك أم لا.

كلا، لا أريد ذلك.

إذن، ضع جانباً مسدسك.

هكذا إذن، حتى لا أملك الحرية في الانتحار.

كلا.

هل حقاً، كما يقول دوستوفسكي، الله موجود كي لا ينتحر الإنسان؟

ها نحن قد عدنا لهذا الكلام مرة أخرى! كلا، رسول، دوستوفسكي يقصد شيئاً آخر. فإلهك لا يقبل الانتحار إلا ليبرهن على وجوده وعظمته. خارج هذا المفهوم، كل تصرف سوف يسرق منه تسميته «الميت» أي ذاك الذي يهب الموت.

ينزلق المسدس من يده.

انتهى الأمر إذن. إنه لن ينتحر. لا يستطيع فعل ذلك. فالانتحار لا يتطلب إلا أمراً واحداً: التنفيذ ولا شيء آخر. دون تفكير، دون كلمات، دون تأنيب ضمير، دون ندم، دون أمل، ودون يأس...

يبزغ الفجر، إنه أكثر جرأة من رسول، ينتشر في السماء، ويقطف النجوم واحدة بعد أخرى.

والنعاس، الأكثر قوة من الفجر، يجتاح جسد رسول المنهك.

19

تنساب ضوضاء، ناعمة ورشيقة، في الغرفة، بالقرب منه. عبر عينيه النصف مفتوحتين، ترتسم صورة ضبابية: وجه أثيري لفتاة شابة بعينين مستديرتين. تهمس: "رسول؟" إنه حلم جميل. "رسول!" يصبح الصوت أكثر قلقاً فتعلو نبرته أكثر، ويجبر رسول لفتح عينيه على اتساعهما. "هل أنت بخير؟".

صوفيا؟ منذ متى هي هنا؟ كم الساعة؟ مخدراً، ينظر رسول إلى ساعته الروسية التي لا زالت لا تعمل ـ وهذا منذ زمن ـ إنه ينظر إليها بشكل روتيني، "بعبثية مزمنة" كما كان يقول.

ينهض ويلتفت نحو النافذة. لم تزل السماء داكنة، ملأى بالدخان. لم تعد الشمس تعرف من أين سوف تعبر. إنها تنتظر دوران الأرض.

"ما الذي يجري؟" سألته صوفيا وهي لم تزل تحدق به بقلق. تستولي يد رسول على المسدس، وترفعه عن الأرض. "منذ متى تحمل سلاحاً؟" تسأله بعدم ثقة. يرجع المسدس على الأرض كي يأخذ سيجارة ويشعلها، متظاهراً بعدم رغبته في أن يجيبها، كي يخفي بكمه، حتى ولو كان هذا البكم مثيراً للشفقة. "أخبرتني أمي أن والدك، قد توفي. لكن لمَ لمْ تقل شيئاً؟ لماذا لم تذهب لتحضر مراسم الدفن؟" تمسك بيدي رسول: "الآن فهمت سبب حزنك، وصمتك..." لا صوفيا، أنت لم تفهمي شيئاً. تطرحين الأسئلة، وأنت تعرفين تماماً أن موت والده لا يمثل أي أهمية بالنسبة إليه. لم يعد بينهما أي علاقة منذ زمن. من طرفه وكذلك من طرف والده. لقد سبق وقال لك هذا. إنه فقط قلق لأجل والدته وأخته، التي يجب عليه إنقاذها. لكن هذه أيضاً مسألة أخرى. فرسول لا يفكر إلا بأمر واحد: أين كنت هذا المساء؟ هيا ابحثي عن ذلك في نظرته، اسمعيه صمته.

"رسول، لقد عدت، إلى عملي عند «نانا عليا»". نعم، هذا هو يعرفه. "أقسم لك أني أحبك، لكنني مجبرة على العمل. فإن لم أشتغل، فمن سوف يقوم بذلك لأجلنا؟ أمي؟ أخي؟ أنت تعرف

تماماً كيف هي حياتنا. اقسم لك، أنه بالأمس عندما جاءت إلهنا «نازيغول» قد ارتمت والدتي جاثية تحت أقدامها كي يخذوها لتعمل بدلاً مني.. لكنها لم تقبل. فهم لا يريدونها".

هم لا يريدونها؟

من هم هؤلاء «*الهم*»؟.

حبست صوفيا دمعة كادت تنهمر، وتابعت: "في المرة الأخيرة التي قلت لي فيها ألا أعمل بعد الآن هناك لأن الناس سوف يتحدثون عني بالسوء، لم أذهب. فما الذي حدث؟ مرّ اسبوع من الجوع، ومن البؤس. في ذاك الأسبوع من الذي اعتنى بنا؟. انخرطت في البكاء". أيضاً، لم يكن بوسعنا انتظار أي شيء منك. خاصة الآن، حيث يجب عليك الاعتناء بأختك ووالدتك. أنت أيضاً بحاجة للمساعدة. افهمني إذن. أعلم أنه من الصعب عليك قبول هذا الأمر. لكن قل لي رسول، هل أملك خياراً آخر؟" كلا، ليس لديها أي خيار آخر. وأنت رسول، كما سبق وقلت لها، فلا شيء عندك تقدمه لها. أنت فارغ. لا تملك شيئاً. غير قادر على الانتحار، غير قادر على إنقاذ أختك ووالدتك، وبالتالي فأنت أقل قدرة من أن تنقذ عائلة صوفيا. ألا تخجل من عجزك، من قصورك، لكنك تشعر بالعار والمهانة مما تفعله صوفيا. إنها تزداد براءة ونقاء، وهي أكثر جدارة منك. هيا ارتمِ تحت قدميها وقل لها بصوت عالٍ: *"أنا لا أنحني أمامك، بل أنحني أمام كل الوجع البشري"*.

هيا انهض!

إنه يرتجف.

"أرأيت! حتى إنك غير قادر على ترديد أكثر كلمات بطلك راسكولنيكوف جمالاً، بينما أنت لا تكف عن التظاهر بجرأته. يا لبؤسك!".

يضم يديه معاً، ويشدهما بقوة، كما لو كان يريد الصلاة. يغوص رأسه بين كتفيه. إنه يتلوى، يتحطم. يدرك أن الكرامة ليست عبارة عن كبرياء ذكورية حمقاء، ولا هي نوع من العبث الأخلاقي القبلي، إنها تكمن ببساطة في إرادة الإنسان في تحمل ضعفه، وجعله محترماً، وبأن...

"من أين لك هذا المال؟" تسأل صوفيا وهي تمد نحوه برزمة الأوراق المالية التي كان قد أعطاها لداوود.

الآن، يا رسول، يجب أن تكتب، لا يمكن لك أن تصمت، وتترك صوفيا في حالة من عدم اليقين. لسوف تجعلها تعتقد أن هذا مال «نانا عليا» التي قتلتها، دون شك. لا بد أنها هي ونازيغول قد لاحظا أنك تتصرف بطريقة غريبة في ذاك اليوم، وتجعل من نفسك مشتبهاً به.

نعم، سوف أكتب لها كل شيء. هذا المال هو ثمن بيع دنيا، أختي، من قبل والدتي، لأحد القادة. إنه ثمن جبني!.

يزداد توتره، ينهض ليأتي بورقة وقلم. تلاحقه صوفيا بنظرات فضولية: "أنت بحاجة لهذا المال لأجل أختك ووالدتك...؟". يجد رسول دفتر صوفيا. "أنا أحبك، لكن لا أستطع العيش معك. أو بالأحرى، أنت لا تستطع العيش معي". تقول له وهي تنهض كي تأخذ شادورها وتغادر، لكن، قبل أن تجتاز العتبة، يوقفها رسول، ويمد نحوها بالدفتر. "ما هذا؟ إنه..." تتردد قبل أن تتابع: "إنه

دفتري". نعم. "دفتري!" تعود لتسأل بتعجب وابتسامة غامضة خجولة ممتلئة بالذكريات ترتسم على شفتيها. يشير إليها رسول بأن تفتحه. تفتحه. فيسارع ويشير نحو الصفحة الأخيرة، تقرؤها، وتعيد قراءتها، وهي تغمغم، ومن ثم تردد بصوت عال: "*اليوم، قتلت نانا عليا*" ترفع رأسها، ليست واثقة من أنها تفهم. تقترب من رسول: "ما معنى هذا؟" وتشير بأصبعها على الجملة التالية، "قتلتها لأجلك، يا صوفيا" تقرؤها، وتتابع: "صوفيا، أنا لم أقبلك قط. هل تعرفين لماذا؟...".

تُغلق الدفتر، تخفض بصرها كي تبحث عن مغزى هذه الكلمات، في مكان آخر، بعيداً عن شفتي رسول، وتسأل بسلامة نية: "هل هذه قصيدة؟". كلا، لقد قتلتها، يجاهد كي يرسم الحركة. لكن دون فائدة. يحدق فيها بغضب، غضب أخرس أمام عجزه عن قول كل شيء. "توقف عن التحديق بي هكذا! إنك تخيفني. قل ما معنى هذا؟" هيا رسول، اكتب أنك فقدت صوتك. "لم لا تقول شيئاً؟ هل قررت حقاً ألا تتحدث أبداً إليّ؟".

مرتبكاً، يشير «بنعم». تتردد يده بأخذ القلم والكتابة. هناك شيء ما يمنعه. شيء ما ساخر. لم يزل يجهل من أين يأتي هذا الإحساس. على الأرجح لأن صمته يغيظ الجميع، وخاصة أقرانه. مع ذلك فقد كان يريد أن يقص على صوفيا، بالتفصيل، كيف جاءته فكرة قتل «نانا عليا». حصل هذا يوم تشاجرا منذ أسبوع. ذهب بعدها إلى صالة الشاي، وسمع اثنين من الميليشيا يتحدثان عن «نانا عليا»، عن تل العاهرة القذرة التي لم تكن فقط مجرد مرابية. بل كانت تُشغّل الفتيات، ظاهرياً لأجل العمل في المنزل، لكن في الواقع

كانت تضعهم بين أذرع زبائنها. لهذا فقد فهم رسول، لماذا أرادت أن تعمل عندها صوفيا في الليل أيضاً، ولساعة متأخرة. لم يتحمل ذلك. نعم، في ذاك اليوم جاءته الفكرة. وفي اليوم التالي...

"كلا، لا تستطيع..." غمغمت قائلة، "أنت لا تستطيع أن تقتل" رددت كما لو أنها قد سمعت كل قصة رسول. هي لم تصدقها، ولن تصدقها أبداً. فكل ما باستطاعته قوله أو كتابته لا يتعدى الشائعات.

نعم، ليست روايتك أكثر من محاكاة لرواية «*الجريمة والعقاب*» التي حكيتها لها أكثر من مائة مرة.

ينظر بيأس لصوفيا، خائر العزم، كان يريد لو يسألها لماذا لا تصدقه.

لكن كيف ستصدقه؟

لا يوجد هناك أي دليل. لا أحد يتحدث عن هذا. لم يجد أحد جثة «نانا عليا»، وإلا لكانت صوفيا قد سمعت.

لهذا السبب، يجب عليها مساعدتي لكشف هذا السر.

إنه سر بالنسبة إليك، لكن ليس بالنسبة لها. فبالنسبة لها هذه الجريمة لا أهمية لها.

تقترب منه وهي مستغرقة في التفكير، وقلقة. "رسول، قل لي شيئاً ما، ولو كلمة! أرجوك". ما الذي ترغب في سماعه؟ لم يعد هناك ما يقال. "هل حقاً قتلتها؟" نعم "وهل حقاً قتلتها لأجلي؟"

يجلس القرفصاء فوق حشيته، يخبئ وجهه بين ركبتيه. تنحني صوفيا نحوه وتداعب شعره." آه يا رسول، هل تحبني لهذه الدرجة؟"

نعم، يحبك.

تضم رأسه بين يديها، وتريد أن تبكي.

هل باستطاعتها العيش مع مجرم؟

كيف لها أن تعرف؟ هي لم تقل شيئاً، ولا هو قال.

بلى، باحتفاظها بالصمت أرادت أن تقول أشياء وأشياء. أرادت أن تقول أنها في الآونة الأخيرة لم تعد تقابل عند «نانا عليا» غير السارقين، المجرمين، والقتلة، وأن رسول ليس أكثر من نملة بريئة بجانبهم. لا شيء أكثر من ذلك.

لا شيء! يردد، وهو يلف نفسه أكثر فأكثر بين ذراعي صوفيا. وينتظر.

إنه ينتظر أن تأمره صوفيا وتقول: *"هيا اذهب فوراً، في هذه اللحظة، وقف عند مفترق من الطرق، انحن، قبّل في البداية الأرض التي وسختها بقذارتك، ومن ثم، انحن أمام كل العالم، في الجهات الأربع، وقل بصوت عال: "لقد قتلت!"*.

سيرتاح لسماع كلام كهذا. لكن على رسول ألا ينسى أنها صوفيا، وليست صونيا، حبيبة راسكولنيكوف. فصوفيا هي من عالم آخر. وهي تعرف أنك إن أردت القيام بهذا الفعل، فسوف يعتبرونك مجنوناً.

"هيا تعال" تقول له، وهي تبتعد عنه، وبحركة مصممة، تسرع نحو شادورها، وترتديه. "سنذهب إلى ضريح «شاهي شامشيراي والي»" لكن... لماذا؟ "هيا بنا نذهب نحن الاثنين، كي نصلي. ليعود إيمانك بالله! استغفره! قل له أنك قتلت باسمه وسوف يسامحك. هناك الكثير ممن قتلوا باسمه، وأنت لست سوى واحدٍ من بينهم".

لكن لم أقتل باسم الله. ولست بحاجة أن يسامحني.
إذن ماذا تريد؟
تريدها أن تعود إليك؟ حسناً إذن، فلتذهب معها.

20

يتبعها.

تسير وهي تسبقه بخطوتين، مغلّفة بشادورها الأزرق السماوي. يجتازان الشارع العريض الذي يقود نحو *مزار* شاهي شامشيراي والي، على ضفاف نهر كابول. لم تزل المدينة تتنفس هواء الحرب، وهي تلهث الآن.

يدخلان باحة *المزار*، وسط رهط من الحجاج. أمام مدخل الضريح، تخلع صوفيا حذاءها، وتضعه بجانب الأحذية الأخرى، تحت أنظار رجل داكن البشرة، كان يقوم بالحراسة. يبقى رسول في الخارج. يبحث عن الظل عند أقدام شجرة الأمنيات، وقد زينت أغصانها بمئات القطع الصغيرة من الأقمشة الملونة. تنهض امرأة بصعوبة بالغة كي تعقد شريطاً أخضراً. بالقرب منها، يجلس عجوز ويتأمل الحمام الذي يتجول وسط نثرات الحبوب دون أي رغبة منه في التقاطها.

بعد أن تنجح بربط شريطها، تجلس المرأة، منتصرة، بالقرب من العجوز. "سيعود ابني إليّ، بكل تأكيد!" لم يكن العجوز يصغي

إليها، إنه مشغول بالحمام. "لا ترمِ إليها بـالقمح!" تقـول العجـوز بلهجة تقترب من التوبيخ. يجيبهـا: "إنهـم لا يـأكلون إلا القمـح. الناس لا يفهمون، فهـم يجلبـون إلـيهم الـدخن. انظـري!" يصـيح العجوز بتعجب وهو يرمي للحمام كومة من القمح فيسرع لالتقاطها. "هل رأيتِ؟".

– إنها خطيئة!

– لماذا هي خطيئة؟

– رمي القمح إليهم هو خطيئة.

– من أين أتيت بهذا؟

– من القرآن.

– حقاً؟

– نعم، فبسبب القمح طُرد سيدنا آدم، وحواء من الجنة.

– أرجو أن تريني الآيات التي تتحدث عن هذا.

– سبق وقلت لك، إنها خطيئة.

– خطيئتي أم خطيئتهم؟

– خطيئتك، أنت من يرمي القمح.

– لا يهمني. أنا أرمي القمـح، ولـيس علـيهم إلا أن لا يـأكلوه، فلهم مطلق الحرية.

يضحك ويلتفت نحو رسـول: "لا أحـد يهـتم بالخطيئـة عنـدما يكون جائعاً! أليس كذلك؟" ينحني نحوه "بيني وبينك لو لم يكونا جـائعين، سـيدنا آدم وحـواء، هـل كانـا سـيأكلان مـن الفاكهـة المحرمة؟ أليس كذلك".

– لا تقل هذا! لا تقترف خطيئة، كل شيء إلا الخطيئـة...."

تلّح العجوز. "لماذا تبقين هنا وتشاركينني خطيئتي؟ ابنك وسيعود إليك. لماذا إذن تبقين هنا؟ عودي إلى المنزل.

لا تتحركِ المرأة.

"القمح يسمّنهم. على كل حال الحمامة السمينة أفضل من تلك النحيلة. هل تعلم لماذا؟" يسأل العجوز رسول، ثم، بعد وقفة قصيرة، لا كي ينتظر جواباً بل ليؤكد ما سيقوله: "كلا، أنت لا تعرف..." يتأمل رسول. "هل أنت من كابول؟" يهز رسول رأسه، نعم. "أنت لست من هنا، وإلا لكنت فهمتني على الفور". يخرج قبضة أخرى من القمح من جيبه ويمد ذراعه كي يقترب الحمام ويأكل من يده. "هيا تعالوا، تعالوا، تعالوا كي تسمنوا". يسأل رسول: "تأتي باستمرار لهذا *المزار*؟" كلا. "معك حق. أنا آتي كل يوم. لكن لا كي أصلي، أو أطلب أمنية. أنا لا أفتش عن الله في الأضرحة! إنه هنا" ويضرب على صدره، "في قلبي!" يقترب من رسول كي يسمعه جيداً: "هل تعرف، صارع الشيوعيون على مدى عشر سنين كي يصرفوا هؤلاء الناس عن الله، لكنهم لم ينجحوا. بعكس الإسلاميين، الذين، وخلال عام واحد، نجحوا في ذلك!" يضحك. ضحكة ماكرة، وصامتة. "أترى كل هؤلاء الملتحين، الذين يصلون ويندبون اليوم كله حول ضريح شاهي شامشيراي والي، في المساء يفعلون ما فعل الملحدون بهذا القديس. هل تعرف قصة هذا الولي؟" وقفة قصيرة أخرى، أيضاً كي يؤكد على ما سيقول. "لا أنت لا تعرف. سوف أحكيها لك: لقد كان قريباً لأحد أعمام الرسول. وهنا قبره الكريم. إنه ليث بن قيس، الملك ذو السيفين!

مات هنا شهيداً. جاء كي يهدي قومنا إلى الإسلام، فقتل. عندما كان يقاتل الكافرين، قطعوا له رأسه، لكن هذا القديس، تابع القتال، ممسكاً بكل يد سيفاً." يتوقف كي يرى تأثير هذه الملحمة في عيني رسول. منذهلاً لعدم إحساس هذا الأخير،وأمام برودة ردّة فعله، يقترب أكثر فأكثر، ويهمس كمن يريد كشف سر من الأسرار ليدهشه: "اليوم كل هؤلاء الذين يصلون هنا في النهار، ينظمون في الليل طقوساً يسمونها «*رقصة الأموات*» هل تعلم ما هي «*رقصة الموت*»؟" يتوقف، ينظر لرسول ويلّح عليه بالنظر: "كلا، لا تعرف. سوف أقصها عليك: نقطع رأس أحد الأشخاص، ونرش على الجرح زيتاً ساخناً. الجسد المسكين يتحرك دون رأس، يتقافز. يسمون هذا «*رقصة الموت*» لا بد وأنك سمعتهم يتحدثون عنها؟ لا، لم تكن تعلم!" لكن بلى أيها العجوز، رسول لم يسمع غير هذه القصة، وسمع غيرها أيضاً، أفظع منها.

يائساً، تتوه نظرات الرجل في حبات القمح التي يمسكها بيديه المرتجفتين. تخرج الكلمات من شفتيه المبيضّتين: "هل تعلم... لماذا يقومون بفعل هذا؟" كلا، يشير رسول ناظراً إلى الرجل نظرة سخرية كمن يريد أن يحثّه على الكلام قائلاً: «لكنك سوف تقول لي أنت لماذا». يبحث الرجل عن كلماته ومن ثم يستأنف الحديث: "ألا يخافون الله؟" بلى. وهم لهذا السبب يفعلون ذلك. "هل باستطاعتك أنت أن تقوم بعمل فظيع كهذا؟". يجيب رسول بحركة نعم. هذه الحركة تجعل الرجل ينتفض: "هل أنت قادر على فعل ذلك؟ ألا تخاف الله؟" كلا.

تتحرك يد العجوز باهتياج، فتسقط حبات القمح على الأرض. "*لا إله إلا الله*... ألست خائفاً من الله!" يعود ليلقي من جديد دروسه في الإيمان. "هل أنت مسلم؟" نعم.

يغوص الرجل داخل أفكاره ليعود فيخرج منها بعد عدة لحظات، أكثر يأساً من قبل: "معك حق، فبعد كل الذي حكيته لك ممن يجب أن تخاف؟ من الإنسان أم من الله؟" وصمت.

مشغول البال من غياب صوفيا واستغراقها كل هذه المدة في الصلاة، يترك رسول العجوز غارقاً في شكّه كي يذهب ببطء إلى الضريح. ينظر من مدخل الباب نحو الداخل. يرى بعض النسوة ينتحبن ويسمع أنين بعضهن الآخر، وهن يتمسكن بالقضبان التي تحيط بالضريح. وأخريات، جالسات، يصلّين بخشوع وصمت. لكن صوفيا لم تكن موجودة بينهن. يعود لمكان الحارس، ويروح يبحث عن حذائها، الذي لا بد أنها قد وجدت صعوبة في العثور عليه.

يرمي مرة أخرى بنظرة للداخل. لا يوجد أي أثر لها. لا في الداخل ولا في الخارج.

ما الذي جرى؟ هذا القلب الذي فُتح أمامه من جديد لماذا أُغلق هكذا بسرعة؟ أتراها قادته إلى هنا كي تبتعد عنه، وتودعه دون أي كلمة.

21

الوداع يا صوفيا!

يستنشق نفساً عميقاً من الحشيش، ويحاول أن يحتفظ به داخل صدره لأطول مدة ممكنة.

الوداع يا صوفيا! لقد غادرت حاملة معك السر الوحيد الذي أحتفظ به في داخلي.

الوداع!

يستنشق نفسين، ثلاثة، ومن ثم يغادر *الساقيخانة*.

سوف لن أعود لهنا مطلقاً. سأغلق عليّ باب غرفتي، المظلمة كقبر، والتي هي دون أبعاد، ودون مخرج. سوف لن آكل، ولن أشرب. ولن أغادر مطلقاً سريري. سأترك نفسي لأحلم في نوم لا نهاية له، دون صور ودون أفكار. أبقى هكذا حتى أصبح لاشيء. عبارة عن لا شيء في الفراغ، ظل في الهاوية، وجثة أبدية.

عند وصوله إلى الباحة، يجد داوود، جالساً على درجة من درجات السلم. "صباح الخير، رسول. أرسلتني أمي لأبحث عنك. صوفيا ليست على ما يرام. أغلقت عليها باب غرفتها ولا تريد رؤية أحد".

يهمس لنفسه: إنها هي من غرق في هاويتي.

يجتاز الباحة بخطوات مسرعة، ويركض على طول الشوارع... يصل لاهثاً إلى البيت، وأمام غرفة صوفيا تقف والدتها، تقول له ما إن تراه "إنها تبكي، ولا تقول شيئاً، أغلقت على نفسها..." تطرق

الباب. "صوفيا! جاء السيد رسول" تمر فترة صمت طويلة، ومن ثم يُسمع صوت مفتاح في القفل. تفتح الوالدة الباب، وتفسح مجالاً لرسول كي يدخل هو أولاً.

تعود صوفيا لسريرها، تجلس، تنطوي على نفسها، رأسها بين ركبتيها. يصبح الصمت ثقيلاً. تشعر الوالدة أنها تزعجهما. تغادر وهي ترمي رسول بنظرة أخيرة، نظرة ثقيلة. أتراها صوفيا قد حكت لوالدتها عن كل شيء؟

كلا، هذا مستحيل. إنها تحتفظ بسري. إنها تحتفظ به ليس فقط كي تحميني، لكن أيضاً كي لا تجعل والدتها تتألم. إنها لا تريد أن تشرك أحداً غيرها في هاويتي. لكن يجب ألا تغرق بها، كي لا تتعذب. سوف أخرجها منها.

يركع بالقرب منها، وبعد تردد قصير، يداعب يدها على استحياء.

لا تخافي، صوفيا. أنا لست مجرماً كالآخرين. أنا...

"لقد طردوني من *المزار*!" تقول بصوت كأنه آتٍ من العالم الآخر.

يترك يدها مغتاظاً، وينتظر أن تتابع حديثها "كانت هناك إحدى قريبات «نانا عليا» وعندما رأتني، ذهبت إلى الحارس، الذي جاء ورماني خارجاً..." لماذا...جعلت الكلمة شفتي رسول ترتجفان، ويخرج منها شيء يشبه النفثة، نفثة صامتة، دون إشارة استفهامٍ، كصرخة يأس مكتومة. يجب عليه ألا يستغرب من الآن فصاعداً، رؤية الناس يتحاشون صوفيا كما لو أنها عاهرة.

هي تبكي.

وهو يشعر أنه سيغمى عليه. "غادرت خفية. دون أن أقول لك. لم أرغب في أن تقوم بفضيحة" قالت هذا كما لو كان بإمكان رسول القيام بذلك.

كلا، صوفيا، لقد تغير رسول. انظري إليه. إنه تائه، مسوّر في غيظه بطريقة يرثى لها.

لا، هذا غير صحيح، فهو وإن سقط لأسفل الدرك، يبقى محتفظاً بكرامته.

إذن تحرك، هيا تحرك!

ينهض بعنف ويترك الغرفة. رأى والدة صوفيا، تقف في الشرفة، قرب النافذة. لحظة رأته، أدارت وجهها كي لا يرى دموعها.

في الشارع، لم يكن هناك أي ظل. تخترق شمس الظهيرة الدخان، وتضرب الرأس بكل قوتها .

يسير رسول، مخفض الرأس. يصل إلى منزله دون أن يعرف كيف. تفوح من الغرفة رائحة مقرفة، إنه الجبن.

لم يكن لديه أي رغبة في التخلص منه. يستولي على المسدس الذي لم يزل على الأرض. يأخذه ويتأكد من المشط. إنه لم يزل ممتلئاً. يضعه في جيبه ويغادر.

إلى أين يذهب؟

إلى لا مكان. سيذهب حيث يقوده المسدس.

إذن، يجب عليه ألا يفكر بشيء!

إنه لم يعد يفكر، إنه يجهل كل شيء.

لم يعد يرى غير دربه، لا يتبع غير ظله المنكسر عند قدميه، لا

ينظر إلى أي وجه، لا يسمع أي ضجيج، لا يصغي لأي صرخة، لا يتلقى أي ابتسامة.

إنه يمشي. ويعد خطاه.

يتوقف الآن، هنا، بالقرب من *مزار* شاه شامشاري والي!

كل شيء هادئ. لا يوجد أي حاج، ولا أي متسول. يدخل رسول إلى الساحة، ويقترب من الضريح. كانت رائحة ماء الزهر تطرد روائح الحمام، وروائح البارود. يغفو الحارس على مقعد تحت ظلال شجرة الأمنيات. يضع يد تحت ذقنه، وأخرى على صدره. يبدو بريئاً كبراءة طفل نائم. كانت لحيته، التي بلون الملح والفلفل، تعلو وتهبط. يُخرج المسدس، يتقدم، ويحدق بالحارس. يتشنج أصبعه فوق الزناد. وترتعش يده. إنه يتردد.

قتل شخص ما وهو نائم، يعتبر جبناً مطلقاً. زيادة على أن موته سيكون بسيطاً جداً بالنسبة إليه. دون عذاب. يجب عليه ألا يموت وهو جاهل لفعلته، بريء في غفوته.

فليستيقظ، يجب أن يعرف لماذا أقتله. ويجب أن يتعذب!

سيتعذب، في حينها، وهذا للحظات قصيرة، لكنه سوف يأخذ معه السبب الذي من أجله مات. ولا أحد سيستطيع أن يعرف أن هذا الحارس قد مات لأنه طرد صوفيا من المزار، وأنه قد حرّم بيت الله «عن فتاة من عامة الشعب» جاءت كي تصلي، وتطلب الغفران لخطيبها... إذاً، أنت بهذا، سوف تقترف جريمة أخرى، دون أي هدف. ضربة ضائعة مرة أخرى.

تتسلل أشعة الشمس من خلال أغصان وأوراق شجرة الأمنيات، مشظّية جسد الحارس، وأقدمي وساقي وشعر رسول، إلى بقع. راح

المسدس يرتجف بين يديه... يجلس رسول القرفصاء في مواجهة الحارس وهو ينضح عرقاً، مسحوقاً من الشك، وبعد لحظات من الجمود التام، يُخرج سيجارة. لم يزعج أي ضجيج صادر عن هذه الحركات نوم الحارس. هل هو ثقيل السمع؟ أم هو رسول غير موجود؟

يتراجع، لكن فجأة، تجعله ضجة خافتة وراءه يجمد في مكانه. يلتفت بسرعة. إنه قط.

قط في المزار؟ يجد رسول الأمر غريباً، يراقبه وهو يقترب منه، يلامس قدمه بذيله المنتصب، وينسحب بصمت نحو ظل الحارس الذي يستيقظ بهدوء. يقفز رسول. يرمي سيجارته، ترفرف رموشه، ويصوب عليه المسدس من جديد، لم يظهر أي تعبير خوف في نظرة الرجل الناعس. حتى أنه لم يتحرك. ربما يعتقد أنه يحلم. يقترب منه رسول، ويشير إليه بأن يقف. لكن الرجل يمد يده على طولها تحت السجادة التي تغطي المقعد، يخرج وعاءً ممتلئاً بالمال ويمده نحو رسول.

هذا الرجل لم يفهم شيئاً. أنا لست حرامياً. أنا هنا كي أقتله.

يتقدم نحوه، يحرك شفتيه بكلمات بكماء: "وهل تعرف لماذا سأقتلك؟"

كلا، رسول، إنه لا يعرف، وسوف لن يعرف أبداً.

ترتجف يد رسول من الغضب.

يبقى الحارس دون حراك. لم يزل غير خائف. يعيد الوعاء لمكانه، يبتسم ويغلق عينيه بانتظار إطلاق الطلقة . يدفعه رسول بفوهة سلاحه. يفتح الرجل عينيه بتمهل، محتفظاً دوماً بهدوء

أعصابه، حتى مع وضع فوهة المسدس على صدغه. كانت نظرته شبيهة بنظرة حمار نايستام ذاك، وكأنه يقول لرسول: "ماذا تنتظر؟ أطلق! فإن لم أُقتل الآن على يديك، فسوف يقتلني صاروخ في يوم ما. أفضل الموت على يديك، كي أبقى محتفظاً بنقاء وقدسية هذا المكان. سوف أموت كشهيد".

تدخل الساحة امرأة متخفية تحت شادورها الأزرق السماوي. عند رؤيتها لرسول وللمسدس المصوب على صدغ الرجل، تتراجع، وتهرب.

إنه لم يزل غير قادر على إطلاق الرصاصة.

لا، لا أريد أن يموت هذا الرجل كشهيد.

يرمي السلاح. ويذهب.

22

"هيا انهب! لم يعد لدينا شيء هنا" يهدر صوت أجوف من الداخل. لكن رسول يلّح وهو يقرع باب *الساقيخانة* بعنف، يُفتح الباب بشكل موارب وبحذر. "أهذا أنت يا رسول؟ لكن يجب أن تقول اسمك!" يصيح به حكيم. "أنت أي رسول، القديس أم المحشش؟" يسأل كالعادة «كاكا ثروت» الذي يأتي صوته مغلفاً برائحة دخان الحشيش.

يدخل رسول، ويجد لنفسه مكاناً ضمن دائرة المحششين، التي هي نفسها لا تتغير، غارقين جميعاً في نوع من الصمت المهيب، يتأملون، وأنظارهم معلقة على لحية «كاكا ثروت» الذي كان يدخن بشراهة. يبحث رسول عن جلال، لكنه لم يعد هنا ليسأل إذا ما كانت الحرب قد بدأت. مصطفى هو من يسأله، كاسراً بذلك الخمول المخيم على الدائرة. ترتفع الأصوات طالبة الصمت: شوت.. شوت. يعود الصمت من جديد، هذا الصمت المهيب دوماً، أمام «كاكا ثروت». ينتظر منه الجميع أن يمرر الغليون للآخرين، كي يتابع هو روايته التي قطعها عند وصول رسول: "يجب أن أعيد من البداية؟".

– لا، تابع! ترتفع الأصوات بشكل جماعي.

"لكن هذا الشاب لم يسمع شيئاً؟"

– سوف نحكيها له.

– "اتفقنا" ويمرر الغليون للآخرين.

"أين وصلت؟" لقد أضعت خيط السرد...

– وصلت عند: «وجدت نفسك في قرية».

– آه، نعم. ويا لجمال هذه القرية! ببيوتها المحفورة من الخشب، دون نوافذ، دون أبواب ودون جدران. كنت أسمع أصواتاً، لكني لم أكن أرى أحداً. كانت البيوت فارغة. أو بالأحرى كانت العتمة تمنعني من رؤية أي شيء. لم يكن هناك غير أصوات، لا شيء غير الأصوات، أصواتٌ أوركيسترالية، متناغمة، وهادئة. كانت تأتي من كهف نصفه خراب، يقع عند نهاية القرية، على سفح هضبة قاحلة، وعرة، وصخرية. كل القرويين كانوا هنا.

يرقصون في انتشاء. رجالٌ ونساء، شبان وشيبٌ، وأطفال. زينت رؤوس الرجال أوراق العنب، بينما تزينت رؤوس النساء بالغوري[20] واللؤلؤ الأحمر. وزعوا المشروبات للجميع.

– ألم يكونوا من الكفّار؟

– "ليس عندي أي فكرة. شرب الجميع وغنى. لم يكن وجودي يزعجهم، كانوا يتصرفون كما لو أنـي لست موجودا. حتى أنهم قدموا إليّ مشروباً، دون أنٍ يسألوني إن كنت أشرب أم لا. كان المشروب في البداية سائلاً أصفر اللون كاللهب، يدعى «منشار الحجر» ومن ثم سائلاً نارياً اسمه «كلس الحجر». أحدهم كان حامضاً، والآخر مراً" توقف من جديد كي يدخن: "شربت في تلك الليلة! ولم يبال أحد من أين أتيت ولماذا أنا هنا. بعد أن استفسرت عن رئيسهم، وكَان امرأة، ذهبت لأقابلها. في اللحظة التي ألقيت عليها السلام ابتدرتني قائلة: «هل تهت أيها الشاب؟» أجبتها بحياء بالإيجاب. بابتسامة ترحيب تمنت لي إقامة طيبة في وادي الكلمات المفقودة. وسألتني إلى أين أتجه، ومن أين أنا قادم. بعد أن سردت عليها كل شيء، هزّت رأسها. واقترحت عليّ شرب كأس أخيرة من "حجر الجير" وأشارت إلى رجل عجوز كي يرافقني حتى القرية المجاورة. أعطاني العجوز مصباح ـ عاصفة وبدأنا السير في طريقنا. كان يسير بسرعة وبخطوات واثقة، ركضت كي أضيئ أمامه الطريق، لكنه أمرني بأن أحتفظ بضوء المصباح لنفسي، فهو ليس بحاجة إليه. لاهثاً، سألته كيف حدث وترأستهم امرأة. قصّ علي وهو يمشي قصة لا تصدق والتي سوف أحكيها لكم غداً.

---

[20] الغوري: نقد صدفي كان رائجاً في الهند وأفريقيا.

– "آه، لا" يصرخ الجميع محتجّين. يلتفت «كاكا ثروت» نحو حكيم ويقول: "لكن أنا جائع".

– سنشتري لك «كباب» وشاي. من يملك مالاً؟

لم يتحرك أحد، إلا رسول الذي أخرج من جيبه ورقة مالية كبيرة وأعطاها لحكيم.

"أنت لا تفلّس أبداً!" يقول له «كاكا ثروت». "إذن فسوف أقص عليك البقية، عليك أنت فقط. لكن أعطني في الأول الغليون" يسحب نفساً ومن ثم يعيده لرسول. "تلك المرأة، سيدة القرية، هي من سلالة حكيم كبير بين الحكماء، كان يعيش في مملكة بعيدة، في زمن غابر. كان أعمى، لكنه كان باستطاعته قراءة مخطوطات، وذلك بلمس الأحرف برؤوس أصابعه. في يوم من الأيام، نزلت عليه المصيبة عندما لاحظوا أن الكلمات التي كان يقرأها أخذت تتلاشى مع مرور الأيام، وتُمحى من الكتاب". يتوقف ويحدّق في الوجوه التي يسيطر عليها بكلامه. بعد أن يتنفس بعمق، يعود فيأخذ الغليون. فيحمل الدخان صوته وهو يتابع: "أصيب الجميع بالهلع، الشعراء، العلماء، والقضاة... الجميع. فبدأ كلٌ يخبئ مخطوطاته خشية من أن يقرأها هذا العالِم الأعمى. إلى أن أجبروا الملك على طرده. غادر الحكيم إلى المنفى، هو وكل عائلته، طوعاً أو إكراهاً. جاء ليستقر في هذا الوادي الذي حدثتكم عنه. بنى مدينة كان الجميع فيها يتعلم كل شيء عن ظهر قلب. لم يكن لديهم أي كتاب، ولا أي كتابة، لأنهم كانوا يعرفون كل شيء فالكتاب لم يوجد إلا للحمقى!" يقهقه، يدخّن، ومن ثم يسعل: "اخترعوا لغة

أخرى كان من المستحيل نسيانها. عندئذ، جاء إليهم من جميع أنحاء العالم الكثير من الكتّاب، من الشعراء، ومن العلماء، كي تترجم تلك الشعوب إلى لغاتها أعمالهم، ويعيشوها بأصواتهم، وتدوم في ذاكرتهم. وقد كان يبدو أنه حتى القصص المنسية، ـ حقيقية كانت أم مزيفة ـ كانت تعود إلى الذاكرة، تأخذ شكلاً، وتكتسب في هذه المدينة صوت رواة الحكايا... وهذا بالتأكيد، سبّب الذعر، لكل مزيفي القصص، لمزوري الحكايات، لدجالي الأسرار، ومحتالي العلوم، كما للساسة ذوي النية السيئة... وفي يوم، جاء هؤلاء إلى المدينة. اجتاحوها، ودمروا كل شيء فيها! جعلوا الأطفال صمّاً، وقصوا لسان كل البالغين. لكن..." فاصل قصير، ونفَس عميق من الحشيش، ليتابع بعدها: "لكنهم لم يتحققوا إن كان في الوادي غير الكائنات البشرية. فالبيوت، الأشجار، الصخور، الماء، الهواء، العصافير، والأفاعي، كل شيء في هذا الوادي كان باستطاعته أن يتذكر ليس فقط هذا الشعب، قصته، وحكمته، إنما أيضاً وحشية الطغاة!" يحمله صوته للبعيد، إنه يرتعش، "نعم، بإمكاننا هدم كل شيء، إلا الذاكرة، لا يمكن حذف الذكريات، أبداً" يصمت، وينسحب من الدائرة كي يستند على الحائط. "وبعد؟" يسأل مصطفى، بهيئة مأخوذة ومسحورة.

"وبعد، ماذا؟".

– قصتك أنت؟

– آه قصتي؟ نعم!" يصيح «كاكا ثروت» وهو يبتعد عن الحائط يتابع وقد عادت إليه بشاشته: "أنهى دليلي روايته عند مدخل

القرية المجاورة. تركني في ملاذٍ آمن وسري كي أقضي فيه ليلتي. في اللحظة التي أعدت فيها المصباح إليه، وصافحته، وشكرته، لاحظت أن دليلي هذا كان أعمى!

– هكذا إذن! صاح مصطفى، مبهوراً. يعترض شاب آخر من الموجودين: "«كاكا ثروت» أنت في الواقع اخترعت كل هذه القصة، أنت لم تعشها أبداً. هي ليست حقيقية!

– الآن بلى، لقد أصبحت حقيقية، فكما يقول أحد حكماء بلدان الغرب، *لقد أصبحت حقيقية، بما أني قد قصصتها عليكم الآن!* يجيب «كاكا ثروت» بابتسامة ماكرة.

– من أين تبتكر كل هذه الحكايات «كاكا ثروت»؟

– من *وادي الكلمات الضائعة*، يا بني.

– إذن، هذا موجود حقيقة؟ يصيح مصطفى بتعجب.

يأخذ رسول عدة أنفاس أخرى من الدخان، يجف لسانه بعدها، يسعل سعالاً جافاً ومؤلماً يمزق له صدره، يتجمّد الدم في عروقه، يتباطأ نبض قلبه، فيحلق الجسد كله.

عندئذ، ينهض، يتكيء على الجدار، ويغادر صالة التدخين.

في الخارج، كانت المدينة تلتهب كالحريق. كل شيء فيها يتموج تحت تأثير الحرارة: الجبال، البيوت، الأحجار، الأشجار، الشمس... كل شيء كان يرتجف من الخوف. عدا رسول. إنه هادئ، ورشيق، كما لو أنه الكائن الوحيد الموجود على الأرض، يتنقل في الطرقات، دون أن ينظر لأحد، أو يلاطف روحاً واحدة، أو يسمع

كلمة واحدة. كانت تحدوه رغبة في أن يصرخ أنه آخر إنسان على الأرض، وأن كل الناس الآخرين قد ماتوا، ماتوا لأجله، ثم أن يبدأ في الركض، في الضحك... حتى يصل إلى جسر لارزاناك[21].

ينفجر صاروخ ليس ببعيد عنه، فيهتزّ الجسر. لكن رسول لا يتحرك، ولا يرمي بنفسه على الأرض. إنه هنا، واقفٌ، كما لو أنه يحرض القتلة على رمي المزيد من الصواريخ. هيا اطلقوا! ها أنا ذا واقف هنا. وسأبقى هنا، أمامكم. أنتم أيها المكفوفون، أيها الصّم، والبكم.

يغزو الغبار النهر، الجسر، الجسد، النظر، والصوت...

يستأنف طريقه. ويمر من أمام فندق الميتروبول. في الداخل أيضاً تسود الفوضى. الكل يركض في كل الاتجاهات، الصحفيون الأجانب، موظفو الفندق، والملتحون المسلحون، قد يكون رازمودين قد عاد. يدخل رسول بهو الفندق.

يرى الموظف الشاب - ذاك الذي جاء يبحث عنه في الساقيخانة - ممسكاً بدولارات بين أسنانه، منشغلاً بنقل أحد الصحفيين الأجانب الجرحى. لحظة يرى رسول، يتوقف، يسحب الأوراق المالية من فمه ويقول: "رازمودين ليس هنا، لقد اختفى. غادر بالأمس مساءً، ولم نره بعد ذلك. كل الناس تهرب. سوف لن يكون هناك..." يهزّ انفجار ضخم المبنى. يبكي الصحفي الجريح. يعطي دولاراً آخر للشاب كي ينقله بسرعة للطابق الأرضي.

---

[21] Larzanak: جسر في كابول.

في الخارج، الكل يطلق النار دون أن يعرف ضد من يطلق، ولا لماذا يطلق.

يطلقون، ويطلقون.

ولا بد أن تجد رصاصة ما هدفها.

23

يتنقل رسول من مكان لآخر في المدينة، دون هدف محدد، لامبالياً بكل هذه الفوضى التي تسود المدينة. لم يكن لديه أي رغبة في العودة عند صوفيا، ولا في الذهاب إلى بيت عمته ليسأل عن رازمودين. لا بد وأنه في مزار، في هذا الوقت، قرب دنيا. يتقدم نحو وزارة التربية والتعليم. يصرخ أحدهم من خلف الحاجز: "انجُ بنفسك، كركوز!"[22].

يتجه رسول نحو الصوت. يمسك به رجل ويسحبه صارخاً به: "أيها الغبي المسكين! إن كنت متعباً من الحياة، اذهب ومت في مكان آخر، فهنا لا وقت لدينا لالتقاط الجثث. إلى أين أنت ذاهب هكذا؟" إنه صديق جانو، الذي جاء وضربه في غرفته. "إن كنت ترغب في رؤية القائد براويز، فهو ليس هنا. لقد ذهب يبحث عن جانو الذي اختفى".

---

[22] كركوز: مهرج . باللغة التركية.

اختفى جانو؟ ربما يكون قد هرب. فقد عانى ما يكفي من هذه الحرب.

ينهض رسول ويغادر الحاجز. يتقدم وسط إطلاق النار، وسط العويل، والدبابات...لكن لا شيء يصل إلى مسامعه. يصل إلى منتزه «زارنيغار». يطفو دخان بين الأشجار. عند زاوية من الحديقة، يستلقي على العشب. يشعل سيجارة ويدخن، مضيفاً بغير اكتراث، دخان سيجارته إلى دخان السلاح. يغلق عينيه ببطء ويبقى مدة لا بأس بها وهو مستلق. يبدأ الضجيج بالتلاشي رويداً رويداً، حتى يحلّ أخيراً، صمت مطبق وطويل.

فجأة، يُسمع صوت خطوات تقترب، تلامس رأسه، وتقطع عليه بلطف فتوره. يفتح عينيه. وإذ امرأة بالشادور الأزرق السماوي تمر بالقرب منه. ينهض عند رؤيتها.

صوفيا؟

يقف، وبخطوات مترددة، يندفع وراءها.

تبطئ المرأة من سيرها، لحظة ترى نفسها ملاحقة، ومن ثم تتوقف وتلتفت بخوف نحو رسول، الذي كان يقترب. تبتعد قليلاً عن ممشى الحديقة، كي تفسح له مجالاً كي يعبر. لكنه يتوقف بدوره. تعاود السير في طريقها وهي مرتبكة.

اتركها رسول، إنها ليست صوفيا.

لكن من تكون؟

إنها امرأة من بين نساء كثيرات.

لكن ما الذي تفعله هنا؟ لماذا جاءت إلى المنتزه، خاصة في ساعة كهذه، حيث الجميع يهرب؟

إنها مثلك، تلتجئ إلى المنتزه، وتختبئ خلف الأشجار.

كلا، هي دون شك قد جاءت لرؤيتي.

تصل المرأة إلى نهاية المنتزه، وتأخذ الطريق السريع، الذي يؤدي إلى تقاطع طريق «ماليك ـ أصغر».

يسّرع رسول من خطواته، يتجاوزها، ويقطع عليها الطريق.

تتوقف خائفة، تستدير برأسها في كل الاتجاهات، لم يكن هناك من أحد. مندهشة أكثر فأكثر، تتجاوز رسول كي تتابع طريقها، دون أن تفتح فمها بالكلام. يتبعها، عند وصوله إلى جانبها، يتحقق إن كانت بحجم صوفيا. كلا. إن كانت بحجم ابنة «نانا عليا» إنه غير متأكد. إذن لماذا تتبعها؟

لا أدري. قدومها إلى هنا غريب.

هي بالتأكيد تبحث عن أحد ما. لكنها لا تبحث عنك أنت!

من يدري؟

تصل إلى تقاطع الطريق. فتقطعه بخطوات مسرعة.

انظر إليها. هل لها هيئة أحد يريد أن يبحث عنك؟ يبدو بالأحرى أنها تهرب منك.

محبطاً، يتوقف عن متابعتها، ويقف ليشعل سيجارة.

لكن المرأة، حين تصل إلى الجهة الأخرى لمفترق الطرق، تقف وتلتف كي تراقب رسول.

إنها تلعب معي. تنتظر مني أن أسير خلفها.

يعود فيندفع، كي يلحق بها. فتهرب من جديد. "توقفي".

من أين يخرج هذا الصوت؟

منك أنت!

"توقفي!" أجل، هذا الصوت يخرج من حنجرتي!

يصرخ: توقفي! إنه صوته الهش، المعطوب، المبطن، لكن المسموع. "توقفيّ" يمسك بها، "توقفيّ" لاهثاً يتمتم: "لقد... لقد استعدت صوتي!" يحاول أن يتفحص المرأة عبر شبك شادورها الذي يغطي عينيها "أنا أستطيع الكلام!" يتقدم نحوها خطوة أخرى، "أريد التحدث معك" تصغي إليه. يبحث عن كلماته. "من أنتِ؟" تبقى صامتة. "من الذي أرسلك؟" تحاول يده المترددة أكثر من صوته، أن ترفع حجابها. تتراجع المرأة مرتعبة. "كائناً من تكونين، لا بد وأنك تعرفينني. أنت أتيت تبحثين عني. أليس كذلك؟" تدير المرأة رأسها. "هذه أنت التي أعطيتني في أحلامي تفاحة آدم خاصتي". يلمسها، فترتعش، وتهرب وهي تتراجع القهقرى." أنا أعرفك. أنا أبحث عنك. أنت هي المرأة ذات الشادور الأزرق السماوي. تعرّفت عليك من مشيتك. أنت هي من رأى جثة «نانا عليا». وأنت هي من أخفاها. لقد هربت حاملة معك صندوق مجوهراتها وكل أموالها. لقد أحسنت صنعاً. أنت ذكية وماكرة. برافو!" تتردد في اجتياز الشارع، وفي تغيير الرصيف الذي تسير عليه. "أريدك أن تعرفي شيئاً واحداً: كان بمقدوري قتلك أنت أيضاً، لكني لم أرغب في ذلك... أنت مدينة لي بحياتك، هل تعلمين ذلك؟" تترنّح ـ أمن الخوف أم من التعب ـ من ثم تنتصب في وقفتها، وتسرع. "اسمعيني! ابقي لحظة أخرى. لدي أشياء أريد أن أقولها لك". تترك الرصيف، وتقف وسط الشارع على أمل رؤية

شخص ما، سيارة أو ربما دبابة... لكن لم يكن هناك من أحد. يتبعها رسول: "لا تهربي مني. لن أؤذيك. أنا غير قادر على إيذائك". يلتقط شادورها الذي ينساب من بين يديه. "لن تستطيعي بعد الآن الهرب مني. لقد انتهى الأمر. فقد عدنا لنجد بعضنا البعض. فنحن لدينا حياة واحدة، وقدر مشترك. نحن متماثلان. لقد تلطخت أيدينا نحن الاثنين بالجريمة نفسها. أنا قتلت، وأنت سرقت، أنا مجرم، وأنت خائنة..." تتوقف المرأة، تلتفت كي تحدق به، ومن ثم تعاود السير. يتفاجأ رسول بهذا التوقف غير المنتظر، فيتابع بهدوء أكبر: "مع ذلك، فهذه الجريمة التي اقترفناها، تعذب لي ضميري وحدي. وليس من العدل أن أتألم وحدي. أنا الذي أردت بهذه الجريمة تحرير خطيبتي من يد تلك العاهرة، وبأموالها أنقذ عائلتينا... الآن أتأسف على ذاك المال، وتلك المجوهرات، لكن الندم يعذبني. ساعديني! لا أحد غيرك يستطيع مساعدتي. نستطيع أن نكون شركاء، ونكتم هذا السر ما تبقى من حياتنا، ونغدو سعداء." تبطئ المرأة مرة أخرى من خطواتها - هل تأخذ وقتاً للتفكير؟ للشك، أم للاستراحة؟ ثم تستأنف طريقها باتجاه «*كابول ولايات*» مقر الحكومة. "قولي لي ماذا فعلت بالصندوق وبالأموال. إنهم لي. يجب أن أستردّهم. بكل هذا المال أستطيع أن أسعد عائلتين، لا بل ثلاثة، مع عائلتك. لا بأس إن هم أوقفوني، لا بأس إن هم أخذوني، فعلى الأقل سأصبح مرتاحاً من جريمتي. سأنتهي من كل هذه الآلام. "لم تزل المرأة تحتفظ بصمتها، تسير على طول أسوار «كابول ولايات». لم يعد

يجرؤ على التقدم. يحدج المرأة بنظره: "خذيني معك، وإلا فسوف أبّلغ عنك العدالة، وأقدمك للحاكم. أيتها الصماء البكماء اللعينة، هل تسمعينني؟" دوماً هو الصمت ذاته. "قولي لي على الأقل، من أنت، قولي لي إن كانت جريمتي قد أسعدتك". تصل المرأة أمام باب دار الحكومة الخارجي، تتوقف، وتلتفت نحو رسول، كما لو كانت تدعوه ليدخل إلى الداخل. يتقدم رسول بخطى مترددة وهو يتفحص الجدار" لا، أنت لا تستطيعين أن تكوني سعيدة دوني. أنت بحاجة إليّ، كما أنا بحاجة إليك. نحن مثل آدم وحواء، رأس وذيل. طردا، هما الاثنين، كي يعيشا فوق هذه الأرض الملعونة. لا يستطع أحدنا العيش دون الآخر. محكومان نحن بأن نتشارك في جريمتنا وعقابنا. سوف نبني مسكناً. ونغادر للبعيد البعيد في وديان لا يمكن الوصول إليها. ننشئ مدينة ونعمدها باسم....نسميه وادي *الخطايا الضائعة*. سوف نبتكر قوانيننا الخاصة بنا، والتزاماتنا الأخلاقية الخاصة بنا أيضاً. سيصبح لدينا أطفالٌ. ليس كما قابيين وهابيل، وإلا فسوف أقتل قابيين. نعم، سوف أقتله، لأني الآن أصبحت أعلم ماذا بمقدوره أن يعمل. !" تفتح المرأة الباب، ومن ثم بعد أن تنظر إلى رسول نظرة أخرى، تدخل إلى الساحة. يبقى هو مذهولاً، ينظر حوله. لم يزل الشارع مقفراً، والصمت عميقاً، والسماء منخفضة وثقيلة. يتقدم نحو الباب الخارجي «*كابول ولايات*» مقر الحكومة، وعبر البوابة لا يستطيع تمييز غير الخرائب، دون وجود أثر لأي امرأة كانت.

من كانت تلك المرأة؟

24

من هذا؟

يسأل صوت مزماري النغم، فيسّمر رسول في مكانه. من أين يأتي هذا الصوت؟ يجيب قائلاً: "هل يوجد أحد؟" يتمتم بصوت خافت وهش.

يخرج صوت آخر صارخاً "نعم، إنهم «الجان»!" فينتزع ضحكات ساخرة من بوابة المحرس، الموجودة بجانب الباب الخارجي «لكابول ولايات». يشاهد رسول داخل المحرس جسدين مستلقيين على الأرض. فيسأل: "ألم تشاهدا امرأة تدخل إلى هنا؟"

– امرأة؟ هنا؟ آه لو كان لدينا مثل هذا الحظ! "يهتّز الجسدان من الضحك".

هل يوجد أحد في المديرية؟

– على من تبحث؟

– على المفتش.

– من هذا «الجنّي»؟ يلتفت الآخر نحو صديقه ويسأل: "هل تعرفه أنت؟".

– كلا. اطلب منه سيجارة.

يخرج بعض السجائر، ويمدها للداخل. "ارمهم!" فيرميهم. ويعود ليسأل: "لا بد وأن هناك أحد ما في الداخل؟ حاكم ما، قاضي، أو...

- اذهب وتأكد بنفسك! لماذا تسألنا؟".

لم يرَ رسول وجه الجنديين. يدلف نحو الباحة المنهوبة التي تغطي أرضها دفاتر محروقة، الجدران مثقوبة من الرصاص، ومبنى الحكومة كان فارغاً، غارقاً في صمت ثقيل وكئيب. ولا أثر للمرأة ذات الشادور الأزرق السماوي.

ظهور غريب! واختفاء أغرب!

امرأة أثيرية، قادمة من اللامكان، كما كي تعيد إليه صوته، تنير له دربه، تسلمه للعدالة، وتقوده حتى هنا، إلى مقر الحكومة، حيث كل شيء مدّمر: القصر العدلي مبنى المراقبة، السجن،...

يتوقف عند المبنى الوحيد الذي لم يزل بحالة جيدة، يصعد الدرج، ويدخل. يجد نفسه أمام رواق طويل ذي جدران قذرة. يتردد صدى خطواته فيجعل الصمت أكثر كثافة ورعباً. يجمد في مكانه. يتردد، ومن ثم يتقدم مندفعاً بالرغم عنه. كانت المكاتب من جهتي الرواق مفتوحة الأبواب. يخترق الضوء من مدخل الباب، ويضيئ خرطوم مياه قاتم وقذر. بالرغم من وجود بعض المفروشات - كراسي، طاولات، وأغراض مكتب - بقيت كل الغرف دون حياة، ما خلا غرفة واحدة، عُلّق فيها بعض من ثياب امرأة وطفل، لم تزل مبللة، على حبل غسيل، تحت أشعة الشمس. لا بد وأن السيدة ذات الشادور الأزرق السماوي تقطن في هذا المكان.

أخيراً، سوف أعرفها!

عند وصوله لمنتصف الرواق، يرى في البداية أقداماً، ثم يظهر صبي صغير يصعد الدرج القادم من القبو. عند رؤيته لرسول، يعود

لينزل الدرج راكضاً. يتبعه رسول، ينزل خلفه ويدخل إلى الطابق الأرضي حيث تشير لوحة إلى "أرشيف العدالة". يقوده نور خفيف عند نهاية الرواق إلى غرفة، يعلو منها صوت هامس وشائخ: "يو... يونس... يو.... يوسف..." يدخل رسول لداخل الغرفة. إنها غرفة كبيرة، تصطف فيها خزائن ورفوف، ممتلئة كلها بالأضابير القديمة، المصفّرة مع الزمن. تبدو الأصوات آتية من المكان نفسه، لكنه لم يكن يرى أحداً "هل يوجد أحد هنا؟" يبادر بخجل. لم يأخذ جواباً، لكن فقط، يستمر هذا الصوت الشيخوخي وهو يكرر: " يو... يوسف...

– هل من أحد هنا؟ يكرر رسول السؤال، وهو يكاد يصيح. بعد فترة صمت، يجيبه الصوت ذاته: "يوجد اثنان هنا!" ويكمل دون أن ينتظر أي جواب: "يوسف، يوسف، يوسف كا..." كما لو أنه يلقي بتعويذة. يبحث رسول عن ممر كي يلتقي مع هذا الرجل. لقد كان هناك، في الجزء الخلفي للغرفة، أمام نافذة صغيرة، خلف مكتب ضخم، يبحث بين الملفات. وقربه صبي يضيء له بفانوس.

على وقع صوت خطوات رسول، يرفع الاثنان رأسيهما نحوه. يهزّ العجوز رأسه كما لو كان يحييه ومن ثم يعود ليتابع آلياً عمله. يسأله رسول وهو يقترب من المكتب: "أنا أبحث عن السيد...النائب". لم يبدُ على العجوز أنه قد سمعه، كان مشغولاً في البحث داخل دفتر ضخم كان قد أخرجه من إحدى الأضابير، يقلّب بعض الصفحات، وتقف يده عند قائمة من الأسماء. "يوسف.. كا... يوسف كاب... يوسف كابولي! أليس هذا هو الاسم يا ولد؟" تشتت ذهن الولد الذي يمسك بالفانوس، بوجود

رسول. يتذمر الرجل قائلاً: "أنا أتحدث إليك يا ولد. هيا انظر إن كان هذا هو اسم والدك. ينحني الصبي بارتباك فوق الدفتر. يتقدم رسول خطوة، ويعود ليسأل بهيئة من فقد صبره: "أين باستطاعتي رؤية السيد النائب؟".

– سمعت جيداً يا محترم.وفهمت تماماً ما طلبته مني. أنت لا تسألني لغزاً، على ما أعرف!" فاصل قصير، كما لو كان يريد الحصول على موافقة رسول، ليعود فيسأله: "هل الأمر عاجل؟" يسأل بلهجة خجولة قبل أن يتذمر رسول الذي يجيب قائلاً: "نعم".

– "دعني أنتهِ من هذا العمل، ومن ثم سوف ألتفت إلى أمرك" يقول العجوز، ثم يلتفت غاضباً نحو الصبي: "إذن، هل تعرف القراءة أم لا؟".

– نعم أستطيع القراءة، لكن أصبعك...

– ما به أصبعي؟

– إنه فوق الكتابة.

– طلبت منك أن تقرأ الكلمة التي فوق أصبعي، أيها الأبله! يخفض الصبي رأسه ويبتبت: "يو... يوسف... كا... كابولي، نعم إنه هو، أعتقد ذلك.

– تعتقد ذلك؟! لك أسبوع وأنت تزّن على أذنيّ، بهذا الاسم، والآن لديك شك! هذا خطير يا ولد، خطير جداً.

– لم أقل أني أشك في الاسم، بل قلت أعتقد أنه هو.

– بماذا تهذّر؟ حسناً. إذن ما هو رقم الملف.

– رقم الملف؟

- نعم، الأرقام!

- الأرقام؟... لا توجد أرقام. انظر بنفسك!

- كيف لا توجد أرقام؟ ارفع الضوء! يرفع الصبي الفانوس، يثور العجوز وقد أنهك: "إذن، كيف سأجد هذا الملف اللعين؟ يفتش بنظره في كومة من الأوراق. يغضب رسول: "قبل أن تعاود بحثك، هل بالإمكان أن تجيبني، إن كان النائب..

اسمع أيها الشاب، قضية هذا الصبي أهم من وجود أو غياب النائب! هنا قدر عائلة بكاملها موضوع على المحك. أنا أسجن نفسي منذ أسبوع كي أضع يدي على هذا الملف، والآن يجب أن أترك كل شيء من يدي كي أبحث عن السيد النائب! بداية، لم يعد يوجد نائب. ثم، أنت غير مرحب بك هنا. فنحن في مكتب أرشيف العدالة. وأنا، لست أكثر من كاتب بسيط يهتم الآن، بشكل مثير للشفقة، في هذا المكان" يتوقف للحظات، ليعود فيحني رأسه من جديد فوق قائمة الأسماء وهو يتمتم: "ما الذي تبغيه من السيد النائب؟".

- أتيت كي أسلّم نفسي للعدالة.

- آه، أنا آسف،لا يوجد أحد هنا لاستقبالك".

يقترب رسول منه وهو متفاجئ، لكنه منفعل أيضاً، يحاول التحدث إليه بهدوء، بصوته المتكسّر: "لم آتِ كي يُرحب بي. أنا أتيت..." يرفع صوته مشدداً على كل حرف: "... كي أقدم نفسي للعدالة!".

- وأنا فهمت. أنا أيضاً أقدم نفسي كل صباح للعدالة. وهذا الصبي أيضاً.

- لكن أنا، جئت كي أتوقف. أنا مجرم.

- إذن عد في الغد. لا يوجد أحد اليوم.

يعود ليغوص مرة أخرى في الدفتر الكبير. يمتلئ رسول غيظاً، يضع يده فوق الأوراق، وبحنجرته التي اعتراها الهزال يصرخ بصوت مبحوح: "هل سمعت ما قلته لك؟ هل فهمت ما أريد؟".

- أيه، نعم! أتيت كي تسلّم نفسك للعدالة، لأنك مجرم. أليس كذلك؟

يحدق فيه رسول، مذهولاً. وهو، بدوره، يهز رأسه قائلاً: "وماذا بعد ذلك؟".

- بعد ذلك، يجب أن توقفني.

- لكن، ليس باستطاعتي فعل شيء لأجلك. كما سبق وقلت لك، أنا مجرد كاتب في المحكمة. هذا كل شيء.

- أبي، أعطني دراهم، سأذهب لأشتري خبزاً".

يخرج صوت طفل من وراء الرفوف، الطفل الذي سبق ورآه رسول منذ قليل في الرواق، فيشد انتباه الثلاثة إليه. "سوف أذهب بنفسي..." يقول الصبي، ابن يوسف كابولي. "كلا. أنت تبقى هنا، نحن نبحث عن والدك" يأمر الكاتب الذي يذهب ليعطي الدراهم للطفل، يعود إلى الدفتر الضخم، وهو يدمدم "يقولون أني الكاتب، لكن في الواقع، أنا أقوم بعمل كل شيء هنا. لم يعد هناك محاكمات...لهذا يجب أن أهتم بالأرشيف..."يتابع تقليب الدفتر". أقسم لو لم أكن هنا، لأكلت الجرذان كل تلك الملفات. أو لكانت دمّرت من الانفجارات.

- "نعم، هذا صحيح. فالمكان هنا يعجّ بالجرذان!" يؤكد الفتى

على كلامه، وراح يرتب الملفات نزولاً عند طلب الكاتب.

مغتاظاً من رد فعل الكاتب، يخرج رسول سيجارة ويشعلها. ويقول بصوت يائس، مبحوح: "لقد قتلت شخصاً" لم يعر أي من الاثنين انتباهاً لاعترافه بجريمته. ربما لم يسمعوه. عاد ليقول بصوت أعلى: "لقد قتلت شخصاً".

ربما سمعاه الآن. يلتفت الاثنان نحوه، لكن، دون أن يتفوها بكلمة، يعودان ليتابعا بحثهما.

ربما لم أستطع التعبير جيداً. ما زال صوتي مكتوماً، وبالكاد مسموعاً.

يرفع صوته ويصرخ: "لكن هل تفهمونني؟" ينظر إليه الكاتب باستياء، ولا يقول شيئاً. يخيم الصمت من جديد، يعود الكاتب ليحني رأسه فوق الملفات، باحثاً في الأسماء، والأرقام، والأشخاص المشكوك بأمرهم... يتابع رسول كلامه كمن يتحدث مع نفسه: "أعرف بأني لم أحقق فتحاً. ولم أقترف إلا عملاً تافهاً. لا يهم. أنا قتلت، وأريد تسليم نفسي للعدالة"، ويجلس عند قوائم إحدى الخزائن.

وجود رسول العنيد، والذي يزداد ثقلاً، يربك الكاتب العجوز، فيغلق الدفتر: "فارزان، سوف نتابع البحث عن والدك غداً، اذهب وجهّز الشاي" يقول للفتى، الذي يضع من فوره الفانوس على الطاولة، ويسأل وهو متحمس: "شاي أخضر أم أسود؟".

– أخضر أم أسود؟" يعيد الكاتب السؤال على رسول الذي يجيب بهيئة متعبة: "أسود".

يذهب فارزان. يأخذ الكاتب العجوز الفانوس ويتجه نحو

الرفوف." هذا ال ـ فرزان المسكين. كان والده خبير محاسبة أيام الملكية، عائلة محترمة. لكن زمن الشيوعيين، جاؤوا وألقوا القبض عليه، وأخذوه إلى السجن، دون أن يقولوا له أي شيء. بماذا كان متهماً؟ لم يفهم أحد السبب في ذاك الوقت، وكما كل سجناء تلك الحقبة، لم يكن هناك من محاكمات. ففقدوا أثره. يقولون أنه أُعدم أو نفي إلى سيبيريا. لم يعرف أحد ماذا حلّ به. الآن، لم يعد لولده غير هاجس واحد: العثور على أثر والده. يريد أن يعرف بماذا اتهم، أنا أعرف بأنه لن يحصل مطلقاً على الجواب."يعود خلف مكتبه". أعتقد أنه في اليوم الذي ألقي القبض عليه، حدث أمر ما خطير في عائلته، يحاول هو معرفته، واكتشافه، هذا بالذات ما أنا مهتم به أيضاً، وليس شيئاً آخر: العدالة، الظلم، الخ... إنها ليست أكثر من خيارات، وليست مفاهيم" يتوقف للحظات كي يقرأ على وجه رسول تأثير أقواله المأثورة، ومن ثم يتابع: "منذ مجيئه إلى هنا، أصبح مساعدي..." وضحك ضحكة خافتة. "أرحب دوماً بالقصص المتعلقة بالعدالة. فمن خلالها نفهم بشكل جيد تاريخ البلد، وروح الشعب. لدي الآلاف منها. أحتاج فقط للوقت الكافي كي أستطيع إعادة كتابتها. لكنهم لا يتركون لي الوقت. انظر!". يشير إلى أكوام من الملفات المتراكمة في زاوية. "طلب مني كبير القضاة قوائم كل المجاهدين المسجونين زمن الشيوعيين، إلى جانب قوائم الشهداء. يقولون أن وزارة الشهداء هي التي تطلبها. وزارة الشهداء!" يعود ليغرق في الضحك، بسخرية هذه المرة، ناظراً نحو رسول الذي كان مأخوذاً ينظر بأسى إلى مصيدة فئران كانت فوق المكتب.

"إذن، أيها الشاب، من قتلت؟".

– امرأة.

– هل كنت مغرماً بها؟ يستفسر الكاتب دون أن يتوقف عن ترتيب الملفات.

25

– يغوص الكاتب داخل كرسيه ويحدق برسول بإمعان وهو يقول: قتل قواد لا يعد جريمة ضمن قوانين عدالتنا الإلهية المقدسة. لذلك، لا بد وأنك تعاني من أمر آخر". كان رسول خافض الرأس، يبتلع بصعوبة قطعة من الخبز. وكانوا هم الثلاثة، جالسين حول الطاولة، التي حولوها إلى طاولة طعام.

"خلاصة القول أنت تتعذب، تشعر بنفسك تتهاوى، لأنه لا يمكنك أن تفهم لماذا هناك الكثير من الأسرار تحيط بجريمتك؟ أليس كذلك؟".

– نعم، لكن...

– دعني أتابع: عند الاستماع إليك في البداية، اعتقدت أنك تتألم لأن ضربتك راحت سدى، لأنك لم تحصل على المال ولا على المجوهرات... التي كان من الممكن أن تنقذ عائلتك. ثم أدركت أنك لو حصلت على مال ومجوهرات «نانا...» ماذا؟ آه نعم، «نانا عليا» لكنت شعرت أكثر فأكثر بالندم، والعذاب... ومن ثم أدركت أن

المال والمجوهرات ليسا في الحقيقة أكثر من ذريعة. في الواقع، أنت قتلت قوادة كي تمسح صرصوراً عن الأرض، وقبل كل شيء، أنت قتلتها انتقاماً لصديقتك. لكنك تدرك الآن أن لاشيء قد تغير. فالجريمة لم ترو تعطشك للانتقام. ولم تجعلك تشعر بالراحة، بل بالعكس لقد خلقت لديك هاوية رحت تغرق فيها يوماً بعد يوم. باختصار، كنت ضحية جريمتك الخاصة. هل أنا محق؟

– "نعم، هذا صحيح، أنا ضحية جريمتي نفسها. وأسوأ ما في القصة هو أن جريمتي ليست فقط تافهة ودون جدوى، بل حتى أنها لم توجد أصلاً. لا أحد يتحدث عنها. اختفت الجثة بشكل غامض. كل الناس تعلم أن "نانا عليا" قد ذهبت للريف، آخذة معها ثروتها ومجوهراتها. هل سبق لكم وصادفتم ضمن محكمتكم قضية قانونية بهذه العبثية.

– أوه، أيها الفتى، لقد سبق ورأيت جرائم أكثر عبثية من جريمتك أنت. ولاحظت أن قتل قواد لا يمحي وجود الشر على الأرض، خاصة في أيامنا هذه، كما سبق وأشرت، فالقتل هو من أتفه الأفعال التي يمكن أن توجد في هذه البلاد.

– "لهذا السبب جئت كي أسلم نفسي للعدالة. فأنا أريد إعطاء جريمتي معنى".

– وهل حقاً أعطيت لحياتك معنى، كي تستطع إعطاءها لجريمتك؟

– لهذا السبب اعتقدت أني بارتكاب هذه الجريمة سأفعل ذلك.

– كما كل هؤلاء الذين يقتلون باسم الله كي تُغفر لهم خطاياهم! هذا ما يدعى بالبديل أيها الشاب، البديل! هل تفهم؟

– نعم. يهزّ رأسه بالإيجاب، من ثم يسأل الكاتب: "هل تعرف دوستوفسكي؟".

– كلا، هل هو روسي؟

– نعم. إنه كاتب روسي، لكنه ليس شيوعياً. لا يهم. كان يقول إن لم يكن لله وجود...

– أعوذ بالله! استغفر الله! ليحمك الله من هذا الكفر! أبعد هذه الفكرة الشيطانية عنك.

– نعم، ليغفر لي الله! هذا الروسي كان يقول ـ توبة، أعوذ بالله ـ إن لم يكن هناك وجود لله لكان باستطاعة البشر فعل أي شيء!".

بعد صمت متفكر يقول الكاتب: "لم يكن مخطئاً!" ويهمس في أذن رسول: "إذن كيف باستطاعة عزيزك الروسي هذا أن يشرح اليوم، كيف هنا، في هذا البلد الغالي،حيث الجميع يعتقد بوجود الله، الرحمن الرحيم، مسموح بكل التصرفات الوحشية؟

هل تقصد أن هؤلاء الناس..." يتدخل فارزان، وهو يتوه في ذاك النقاش.

"أنت، أيها الولد، اذهب واجلب الماء!" يطلب منه الكاتب هذا للتخلص من وجوده، ويتابع: "هل تعلم أنه إذا ما وُجدت الخطيئة، كما يقولون، فذلك كي يوجد الله".

– نعم، لكن، الآن، أشعر أن العكس هو الصحيح. فليسامحني الله! فهو إن كان موجوداً فذلك كي لا يمنع الآثام، بل كي يبررها.

– آه نعم، للأسف. فنحن دوماً إما نستخدمه أو نستخدم التاريخ، الفكر، أو الإيديولوجيا... كي نبرر جرائمنا، وخياناتنا...

نادرون هم الذين مثلك، يرتكبون الجرائم، ومن ثم يشعرون بالندم.

– آه، لا، أنا لا أشعر بأي ندم.

– "لا تشعر بالندم، حسناً. أنت تعي ذنبك، هيا انظر من حولك: من الذي لا يقتل؟ لكن بالمقابل كم من المجرمين قد توصل مثلك لهذا المستوى من وعي الضمير؟ لا أحد".

– "بالضبط. فضميري هو من يجعلني أشعر بالذنب".

إذن، ما حاجتك لمحاكمة، وحكم؟ كل هذا موجود من الجانب المثالي، لأجل هؤلاء الذين لا يعرفون جرائمهم، ولا يشعرون بالذنب. زد على ذلك، من الذي باستطاعته محاكمتك اليوم؟ لا أحد هناك اليوم، لا حاكم ولا نائب. الجميع في حالة حرب. الجميع يركض وراء السلطة. ليس لديهم لا الوقت ولا الاهتمام كي يأتوا وينشغلوا بقضيتك. حتى أنهم يخافون من المحاكمة. فمحاكمة الواحد قد تجر محاكمة للآخر. هل تفهمني؟" يقع رسول في الحيرة. يستأنف الكاتب كلامه: "ماذا تريد؟ السجن؟ ها هي روحك سجينة جسدك، وجسدك سجين هذه المدينة".

– إذن، إن كنت هنا او في مكان آخر، فهذا لا يغير من الأمر شيئاً.

– نعم، لن يتغير شيء.

– إذن، سأبقى هنا.

يعيل صبر الكاتب. يأخذ ملفاً ويرميه أرضاً ويصرخ قائلاً: "لكن هنا، لا يوجد أحد. لا أستطيع الاهتمام بك، لم يعد هناك سجن، لا حرس ولا حراسة... لا شيء. لا يوجد شيء! لم يعد هناك حتى قانون. هم على وشك تغيير قانون العقوبات. سيبنى كل شيء على

أساس *الفقه، والشريعة*". غاضباً، يحدق مطولاً في وجه رسول، وسط جو من الصمت الثقيل. وقبل أن يلتقط الملف الواقع عند قدمي رسول، يمد له يده: "أنا سعيد بمعرفتك، أيها الشاب. حان وقت صلاتي، سلام!" يضع الملف على المكتب، وينسحب للغرفة الأخرى.

يبقى رسول مشدوهاً، دون أي كلمة، دون صوت، أكثر بكماً من السابق.

أين أنا؟

ولا في أي مكان من المدينة!

يعود فرزان: "إذن ستبقى؟ معك حق. هنا، المكان حقيقة جيد. إنه ملجأ آمن... يقطن السيد الكاتب هنا مع عائلته. زوجته رائعة. وهي جميلة جداً أيضاً، وتطبخ مأكولات شهية...

– أهي تلك التي دخلت هنا قبل وصولي؟ امرأة بالشادور الأزرق السماوي؟

– آه لا! هي لا تخرج أبداً من هنا. إنها تخشى القنابل. وهي تخاف أن تبقى وحدها. إنها قليلاً...".

إذن هي ليست تلك المرأة الشيطانة. لكن لماذا يصّر الكاتب إذن، وبضراوة، كي أغادر هذا المكان؟

"أيها الأخوة!" هذا الصوت العميق الذي ارتفع، المتبوع بخطوات تتلمس طريقها وهي تسير، منعت رسول من الاستمرار في بناء شكوكه. يهرب فرزان إلى الغرفة المجاورة، ويشير على رسول أن يتبعه، لكنه لا يتحرك. يظهر أربعة رجال مسلحون.

– "الكاتب ليس هنا؟".

– إنه يصلي. يجيب رسول.

"وأنت، ماذا تفعل هنا؟" يسأل أحد الرجال الأربعة.

– اسمي رسول، وجئت كي أقدم نفسي للعدالة.

– ماذا فعلت؟ يستفسر أحدهم. "هل تعمل هنا؟" يتابع الآخر.

– كلا، جئت أقدم نفسي للعدالة. "يجيب رسول مذهولاً أمام هؤلاء الرجال الأربعة الذين ينظرون إليه بتوجس".

– هنا لا نوظف أحداً!

– لم آتِ كي أعمل. أتيت كي يحاكموني.

– يتأمله أحد الرجال وهو يمسد لحيته: "هل تريد أن تُحاكم؟" لماذا؟

– لقد قتلت أحدهم.

– تبادلوا نظرة ارتياب، بين بعضهم البعض من جديد. بارتياب. لم يعد هناك ما يقولونه. أخيراً، يتقدم أحدهم نحو رسول، ويقول: "سنرى ذلك مع *غازي صهيب*. هيا تعال!".

عند خروجهم من المبنى، يلتقي بهم الكاتب، يتبعه فارزان: "هل تبحثون عني؟".

– نعم، *غازي صهيب* يريد أن يعرف إن كانت قائمة الشهداء جاهزة؟

– ليس بعد.

– إذن عد إلى عملك، وحاول تجهيزها بقدر ما تستطيع من السرعة!" لكن الكاتب يبقى مسّمراً في مكانه، مصدوماً من الذعر أمام غباء رسول.

يصلون إلى مبنى ضخم، ويدخلون إلى غرفة وثيرة، ومثيرة

للإعجاب، مفروشة بمكتب فخم، يجلس الحاكم خلفه، الذي، ودون أن يعيرهم اهتماماً يتابع أكل شريحة من البطيخ الأحمر. تغطي قبعة بيضاء رأسه الحليق، وتمتد لحية طويلة على طول وجهه البدين. ينتظرونه لينتهي من الأكل. بعد أن يتخلص من قشر البطيخ بوضعه في طبق، يخرج منديلاً كبيراً كي يمسح فمه، لحيته ويديه. يطلق تجشؤاً للدلالة على عملية الهضم الجيدة، يشير لرجل كبير في السن كي يرفع الطبق، ثم يأخذ مسبحته، ينظر إلى رسول، ويسأل الآخرين: "ما المشكلة؟"

– لقد جئناك بقاتل.

يتحول نظره من رسول إلى رجاله، نظرة فارغة دون أي تعبير، عدا كلمة "إذن؟" التي لا يلفظها، يسأل: "أين أوقفتموه؟".

– نحن لم نوقفه. جاء بنفسه" ها هي إذن المفاجأة. يتفحص الحاكم من جديد رسول: "من قتل؟" لا يوجد جواب. أحد الرجال يهمس في أذن رسول: "من قتلت؟".

– امرأة.

ها هي مسألة عائلية أخرى، ليس لها أهمية تذكر. منزعجاً من بذرة بطيخ انحشرت بين أسنانه، يحاول الحاكم انتزاعها بلسانه. تبوء محاولته بالفشل. يعاود السؤال بلهجة متقطعة: "لأي سبب؟" يسود الصمت من جديد، ومن جديد أيضاً، يهمس الحارس بالسؤال في أذن رسول، الذي يهزّ أكتافه كي يقول أنه لا يعرف.

– هل كانت زوجته؟

– هل هي امرأتك؟

– " لا " يجب أخيراً رسول، متعباً من هذه الأسئلة غير

المباشرة، ومن نظرات الازدراء هذه. يأخذ الحاكم فاصلاً، لا كي يفكر، بل كي ينشغل مرة أخرى ببذرة البطيخ، تلك البذرة اللعينة. يحاول محاولة أخرى، لكن هذه المرة بسبابته. لم يفلح. يعدل عن ذلك. ويسأل: "من هي إذن؟".

– سيدة تدعى «نانا عليا» من ديهافغانان" يجيب رسول قبل أن يكرر الحارس السؤال.

– كي تسرقها.

– لا.

– كي تغتصبها؟

– ولا هذا أيضاً.

مرة أخرى يتوقف عن الاستجواب، ومحاولة أخرى *لغازي* مع البذرة، يدخل السبابة والإبهام هذه المرة داخل فمه. إنه لن ينجح، هذا مؤكد. سبابته رفيعة ونحيلة، بأظافر مقلمة بشكل جيد. إنه يتقن هذه التقنية بشكل جيد، وذلك بدفع السبابة بطرف الظفر، ويقوم بشفطها فوراً.

– "أين هم الشهود؟"

– لا يوجد أي شاهد.

غاضباً أكثر فأكثر من هذه البذرة اللعينة، يمزق الحاكم بعصبية زاوية من ورقة ملف، يثنيها، ويمررها بين أسنانه. جهد ضائع. تترطب الورقة وتلين فترتخي. يفقد أعصابه فيصيح: "هل لدى أحدكم كبريتاً؟" ويرمي بالورقة على سطح المكتب. يسرع رسول ليعطيه علبة كبريت، يأخذ عوداً، يزيل عنه الكبريت، ويشذبه بأظافره، ويعود ليعالج تلك البذرة الشيطانة. أخيراً يتخلص منها. مرتاحاً، يروح

يتأمل هذا اللاشيء الذي سبب له كل هذا الإزعاج، ويأمر الحرس قائلاً: "اتركوه! لا وقت لدي لأهتم بقضايا من هذا النوع".

– تعال" يحاول أن يقوده أحد الحراس من ذراعه. لكنه يبقى مسمّراً أمام مكتب *غازي*. سوف لن يتحرك، لا! سوف يهجم على الحاكم، سيمسك به من لحيته ويصرخ: "انظر جيداً إليّ! أنا قاتل، مثلك! لماذا أنت لا تتعذب؟" يتقدم خطوة، لكن يد الحارس تمنعه. "*غازي صهيب*، يجب أن تحاكمني" يطلب بشكل سريع. يبقى الحاكم للحظات يفكر، وهو يمسد جبهته، يبقى صامتاً لبرهة، ثم يستأنف الكلام، مسبّحاً بكلماته على نفس وتيرة التسبيح بحبات المسبحة التي بين يديه: "قضيتك هي قضية جزئية. فتّش عن أسرة المرأة، وادفع لها ثمن دمها. هذا كل شيء. هيا الآن، غادر مكتبي".

هذا كل شيء.

نعم رسول. هذا كل شيء. أنت تعرف هذا جيداً، لقد حذرك الكاتب.

26

–"نعم، لقد حذرتني" يومئ رسول برأسه، وهو يجلس أمام مكتب الكاتب الذي كان منهمكاً في استخراج اسم أحد الشهداء الذين أعدموا في سجون الشيوعيين. "اعتقدت أن بمقدوري تكليفه بمحاكمتي...و، من ثم، بقضايا الآخرين، وبكل مجرمي الحرب".

يرفع الكاتب رأسه، وينظر نظرة سخرية لرسول: "أين تعتقد أنك موجود؟".

- الآن، ولا في أي مكان.

- أهلاً وسهلاً!" يتمنى له الكاتب، وهو ينكب من جديد على عمله.

- هذا أيضاً يتعبني. عدم القدرة تلك في جعل الآخرين يفهمونني، أو في أن أفهم أنا العالم.

- هل تفهم أنت، نفسك؟

- "كلا. أشعر بنفسي تائهاً" يمر وقت، طويل، الوقت الكافي ليذهب بعيداً في عمق ليل الصحراء، ومن ثم يعود من جديد: لدي شعور أني تائه في ليل صحراوي لا يوجد فيه إلا معْلم واحد: شجرة ميتة. حيثما أذهب، أرى نفسي أعود دوماً لهذا المكان، عند جذع تلك الشجرة. أنا متعب من تكرار لانهاية هذا المسار المتعب.

- أيها الفتى، كان لدي أخ ممثل. كان يمثل مسرحية على مسرح كابول نانداري. كان دوماً فرحاً، يعيش حياة رغدة، علمني شيئاً غاية في الأهمية، قال لي: خذ دوماً الحياة كمشهد في مسرحية. وعند كل عرض من عروضها، يجب عليك التفكير بأننا نقدمها للمرة الأولى. وهكذا، في كل مرة نعطي معنى جديد للعمل الذي نكرره.

- لكني متعب من الدور الذي يجب أن ألعبه. أريد أن يكون لي دور آخر.

- تغيير الأدوار لا يؤدي إلى تغيير الحياة، فأنت تبقى دوماً في المشهد ذاته، فوق خشبة المسرح نفسها، للعب دور القصة ذاتها.

تخيل أن المحاكمة هي مسرحية ـ في الواقع، هي ليست غير ذلك، ويا لهذه المسرحية! ـ أستطيع أن أحدثك عنها بنفسي. باختصار، في هذه المسرحية، عند كل تقديم، يجب أن تلعب دور شخصية مختلفة: في البداية تكون المتهم. من ثم الشاهد، بعدها القاضي... في الأساس، ليس هناك أي اختلاف... وأنت تعرف كل هذا. أنت...

– لكن عندما نلعب دور القاضي، نستطيع أن نغير طبيعة محاكمة ما.

– لا، أنت محكوم باحترام قواعد اللعبة، سوف تقوم بتكرار التعابير ذاتها التي كررها قاضي آخر قبلك...

– إذن يجب تغيير المسرحية، المشهد، القصة...

– "سيتم نقلك!" يرفع صوته ويقول: "*نحن الدمى، والسماء من يحركنا/ هذه ليست حكاية رمزية، بل هي الحقيقة/ نلعب ونعيد الأدوار فوق مسرح الوجود/ ومن ثم نتساقط الواحد تلوَ الآخر في عمق المجهول./،* ليس أنا من يقول ذلك، بل عمر الخيام. فكر بهذا!" قبل أن يرميه رسول مجدداً فوق خشبة مسرح العدالة، يمد نحوه ملفّ «*الشهداء*» قائلاً: "خذ، الآن تستطيع أن تساعدني، أنت أيضاً. املِ علي الأسماء!

– لدي رعب من «*الشهداء*»!" يهزّ هذا الاعتراف الكاتب. ينظر مطولاً لرسول، من ثم يعاود سحب الملف، لكن رسول يمنعه: "مع ذلك فسوف أساعدك". ويبدأ بقراءة الأسماء. لم يكن قد قرأ عدة أسماء، حتى عاد رجال «*خازي*» للظهور من جديد. "ها هو، ألم يزل هذا هنا!" يقول أحدهم مشيراً إلى رسول. ثم يلتفت نحوه

ويقول: "بحثنا عنك في السماوات. هيا تعال معنا!".

يأخذونه عند «*غازي*» الذي يطلب منهم أن يتركوه وحيداً معه. إنه لم يزل وراء مكتبه، يتمدد وسط أوراقه، سبحته ومنديله. يسأل رسول دون أية مقدمات: "هل تعرف عامر سلام؟".

- «عامر سلام؟» أعتقد نعم.

- هل قابلته؟

- نعم.

- أين؟

- أعتقد عند «نانا عليا».

- منذ متى؟ "يسأل القاضي الذي ينحني فوق المكتب كي يقترب من رسول، جاهزاً للاستماع إليه.

- في اليوم التالي للجريمة.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- تعمل خطيبتي عند «نانا عليا». جاء «عامر سلام»...

- أين هي المجوهرات التي سرقتها من عندها؟

انتهى الأمر، ها هي القضية تأخذ شكلاً الآن. أخيراً اهتموا بها.

صحيح، بالتأكيد، لكن ما يهم القاضي الآن، هو المجوهرات، لا الجريمة، ولا الضمير، ولا الشعور بالذنب، ولا قضيتك...

هذا لا يهم، فقد استطعت فتح باب العدالة بالمجوهرات. وإشراك «عامر سلام» في هذه القضية هو السبيل الذي يجب أتباعه كي أصل للمرأة ذات الشادور الأزرق السماوي.

- هل غدوت أصماً أم ماذا؟ قسوة القاضي تجعل رسول يتوقف عن الاسترسال بأفكاره. "لقد سبق وقلت لك، أنا لم أسرق شيئاً،

فقط قتلت. هذا كل شيء".

– أنت تكذب! لقد ترك «عامر سلام» عدة قطع من المجوهرات مرهونة لديها. هيا أعدها إليه. وإلا، سوف يجعلك تقيئها! أنت لا تعرفه جيداً.

– سبق وقلت أني لم أسرق شيئاً.

يخلع «*غازي*» قبعته، ويجفف بمنديله حبات العرق التي ترشح فوق رأسه المحلوق. "هيا أبصقها! ليس لدي الوقت، لأضيعه في هذه القضية".

– لكن، سيد «*غازي صهيب*» أقسم لك أني لم أستطع سرقتها.

– إذن، أين ذهبت المجوهرات؟

– إنه، إنه لغز كبير...

– لا تأخذني بالخداع! أعد المجوهرات، وعد إلى بيتك!

– يجب أن تصغوا إليّ. فليس من أجل لاشيء جئت إلى هنا لأقدم نفسي للعدالة...

– فعلاً، لماذا سلمّت نفسك للعدالة؟ "يسأل القاضي، وهو يلاحظ أخيراً العبثية في هذا الاستسلام الغامض". لكن من أين أتيت؟

– هذه قصة طويلة.

– لا تهمني قصتك. هيا قل لي أنت من أي فصيل؟

– ولا من أي فصيل.

– "ولا من أي واحد!" يتعجب «*الغازي*». فوضع كهذا، فوق هذه الأرض المزقة، وعقلية كعقليتي، بالتأكيد لن يكون لهذا أي معنى.

– هل أنت مسلم؟

- ولدت مسلماً.
- ماذا يعمل والدك؟
- كان عسكرياً. لكنه قُتل.
- كان شيوعياً.

ها قد عدنا من جديد للنغمة ذاتها. دائماً وأبداً مثل تلك الأسئلة، الشكوك نفسها، والأحكام ذاتها. هذا يكفي!

كنت تريد أن تقص عليه قصتك، وحياتك، أليس كذلك؟ إذن، هيا العب هذا الدور. اذهب فيه حتى النهاية. "كان شيوعياً والدك، هاان؟" هل هذا سؤال أم حكم؟ "هاان؟".

- عفواً؟
- والدك، هل كان شيوعياً؟
- آه، كان هذا سؤالاً.

غاضباً، يفقد القاضي أعصابه: " أنت أيضاً كنت شيوعياً!

«*غازي صهيب*» جئت لهنا كي أعترف بجريمة: لقد قتلت امرأة. هذه هي جريمتي الوحيدة.

- كلا، يوجد شيء ما مريب في هذه المسألة. لا بد وأنك أكثر ذنباً من ذلك....
- سيد «*غازي*» وهل يوجد ذنب أكثر من اقتراف جريمة قتل كائن بشري؟".

يُسقط هذا السؤال منديل الحاكم الذي في يده ويصيح قائلاً: "أنا من يطرح الأسئلة! ماذا كنت تعمل زمن الشيوعيين؟".

- كنت أشتغل في مكتبة «بوهانتون».
- إذن فأنت أديّت خدمتك العسكرية زمن الاحتلال السوفييتي

يلتقط سبحته، "هيا قل لي كم مسلماً قتلت؟" من حسن حظك أنه يجهل أنك كنت في الاتحاد السوفييتي، وإلا سوف تكون هذه نهايتك.

- أنا لم أخدم عسكريتي.

- إذن كنت ضمن الشبيبة الشيوعية.

- كلا، أبداً.

- أنت لم تكن شيوعياً، ولم تؤدِّ خدمتك العسكرية، وما زلت حياً." التزم رسول الصمت. وحده صوت تسبيح السبحة بين أصابع القاضي كانت تُسمع في الغرفة. فجأة يعود لينفجر غضباً: "أنت تكذب! أيها الشيوعي الملحد!".

توقفت حبات السبحة عن الانزلاق، وبصوت الغضب الأسود ينادي على الحرس: "أبعدوا هذا الخنزير من هنا! اسجنوه في زنزانة إفرادية! غداً سوف تشوهون وجهه باللون الأسود قبل إنزال العقوبة فيه أمام العامة. ستقطعون يده اليمنى بسبب السرقة، ومن ثم تعدمونه! تسوطون جثته القذرة كي يصبح قدوة لكل العالم: هذه هي العقوبة المجهّزة للناجين من النظام القديم، الذي كان يزرع الشر والفساد!".

يهجم المسلحان على رسول، كي يوقفاه. فيصعق.

يتوقف النفس.

يتمرد القلب.

وتنهار الغرفة.

تعود حبات السبحة لتنزلق الواحدة تلوى الأخرى.

يعلو صراخ الغضب من الغرفة.

تخدش قعقعة الأصفاد الآذان.

27

من أين يأتي صوت هذه الأصفاد؟

من يديك، من قدميك.

يتحرك. يشعر بثقل في يديه وقدميه. كما في أجفانه التي يحاول أن يفتحها.

يغطي الظلام المكان. إنه ممدد فوق غطاء، في غرفة صغيرة. يبدأ شيئاً فشيئاً يكتشف السماء، التي تنقسم إلى أجزاء من وراء نافذة صغيرة مسيجة بشبك معدني، موجودة أعلى الحائط. ينهض، فيدّوي صوت صدى الأصفاد في الغرفة، خلف الباب، في الرواق الفارغ. يقترب رسول من الباب، يحاول فتحه بيديه المكبلتين.لم يكن للباب مقبض، يدفعه، فلا ينفتح. يخبط على الباب ويصيح. لا يأخذ أي جواب. لا شيء غير الأصفاد وظلام الليل. يتوقف، منهكاً. هل انتهى الأمر؟

هنا؟

يقعي. يتحسس الأصفاد حول كاحله.

ما إن عاد إليّ صوتي، حتى اعتقلت.

وها أنا الآن أشارف على الموت.

سأموت دون أن أستطيع التفوه بكلمة، بالكلمة الأخيرة.

وضع رأسه بين ركبتيه، لكنه لم يبكِ.

يسمع فجأة، صوتاً حاداً لباب يُفتح، وخطوات تتجرجر في الرواق. ينهض دفعة واحدة، ويلصق أذنيه على الباب. تقترب الخطوات، ومن ثم تقف. يُفتح باب الزنزانة، فيبهر ضوء قوي لمصباح يدوي رسول. يوجه ملتحٍ شاب بندقيته نحوه ويشير لأحد ما، باقٍ في الرواق، أن يقترب. يظهر رأس الكاتب. يقترب وبيده طبق، وباليد الأخرى مصباح ذو ضوء باهت. يندفع رسول لاستقباله. "لا تتحرك!" يزأر الحارس. يلتفت الكاتب نحو الرجل: "كرمى لله، اصرخ بصوت أقل حدة!" ويدخل إلى الزنزانة كي يعطي الطبق لرسول وهو يقول له: "طلبنا منك أن تبقى وتأكل معنا، فلم تقبل. يبدو أنك مستعجل للمجيء لهنا... هل أنت مسرور الآن؟".

- كلا.

- لكن هذا ما أردت، أليس كذلك؟

- بلى، لكن ليس بهذه الطريقة.

- كيف إذن؟ هل اعتقدت أنهم سوف يقودونك لفندق انتركونتيننتال، بسيارة مزينة بالأزهار، مصحوباً بفرقة موسيقية؟!

- أنا لا أتحدث عن طريقة الاستقبال، بل عن الحكم. هذا الحكم هو دون محاكمة. لا أريد مغادرة هذا العالم دون أن أقول شيئاً، دون أن يكون لدي الكلمة الأخيرة.

- من تفكر نفسك؟ تعتقد أنك نبي؟ هل يعني اسم رسول، «الرسول الكريم»؟ "يضع المصباح على الأرض". اجلس، وكل قليلاً!

- أين هو القائد «براويز».

- من هذا؟

– إنه المسؤول عن أمن المدينة، يتمركز في وزارة التربية والتعليم.

– وماذا في ذلك؟

– أريد رؤيته.

– لقد حلّ الليل. أعلنوا حظر التجول، هذا المساء. هناك اقتتال في الخارج. لا تجرؤ حتى الذبابة على الطيران. وأنا أريد أن أبقى قليلاً معك" يلتفت للحارس ويقول: "سنبقى وحدنا لعدة دقائق. تستطيع أن ترفع عنه الأصفاد؟ أقسم لك أنه لن يهرب. لا تقلق. فقد جاء لهنا من تلقاء نفسه.

– وسوف يذهب أيضاً من تلقاء نفسه!

– سيكون على مسؤوليتي. أنت تعرفني. هو أيضاً رجل مسلم. ارتكب خطأً، فدعه يفرج عن قلبه"

يفكر الحارس. ثم يرضخ وهو يطلب بتوسل سجائراً. يقدم له رسول العلبة. "آه البقرة، إنه يدخن مالبورو!" يأخذ سيجارتين، يعيد العلبة، ويذهب. يجلس الكاتب: "هيا، كل قليلاً" ويدفع بالطبق نحو رسول، الذي لم يكن جائعاً، أو لا رغبة له في الطعام.

هيا كلّ! تنفتح الشهية عندما نبدأ بالطعام. غذي نفسك قليلاً كي يروي الدم عقلك، فتفهم ربما، ما يُقال لك. لماذا تريد اللعب مع أشخاص كهؤلاء؟

– أنا لا ألعب. أريد أن أُحاكم لأني مجرم، وليس لأني ابن رجل شيوعي.

– إما أنك ساذج، أو أنك لم تعش أبداً في هذا البلد، أو أنك لا تعرف شيئاً في الدين الإسلامي *وبفقهه*. هل تعلم أنه طبقاً

للشريعة، قتل شخص ما هو إلا جريمة عرضية تُحل *بالجزية*: العين بالعين والسن بالسن. هذا كل شيء. إنه حكم بموجب قانون الرجال. وعائلة الضحية هي التي تقرر كل شيء. بينما إن كنت شيوعياً، فأنت «*فتنة*» أي مرتّد. لهذا فسوف تحاكم بحسب قانون كتاب «*الحدود*»[23] المساواة في الحكم، وهو جزاء منصوص عليه في قانون الله. هل تفهم هذا؟ أعتقد أنها ليست أحجية بالنسبة لك.

– أفهمك جيداً. لكن بدايةً، والدي هو من كان شيوعياً، وليس أنا! و....

– كلا، أنت لا تفهم شيئاً! منذ متى في هذا البلد نحاكم أحداً ما لشخصه؟ أبداً! أنت لست ما أنت عليه. أنت لست إلا ما هم والداك وقبيلتك. ربما يكون هذا الأمر معقداً قليلاً بالنسبة إليك. هيا، كل قليلاً!.

– حتى أنت، لا تأخذني على محمل الجد.

– بلى، آخذك على محمل الجد، لكني لا أفهمك، لأنك أنت بالذات لا تفهم تماماً ما الذي يأكلك من الداخل. أهو شعورك بالذنب؟ أم عبثية جريمتك؟

– لا هذا ولا ذاك. إنه الألم من الحياة.

– لا تخلط الأمور بعضها ببعض. هذا لأنك تعيش جريمتك بشكل سيئ، وشعورك بالذنب...

---

[23] كتاب الحدود: يتحدث في الفقع الإسلامي.

- أعيش جريمتي بشكل سيء، لأنها لا تفاجئ أحداً. وأحداً لا يفهمها. أنا متعب. متعب وتائه....

متعب وتائه، بهاتين الكلمتين المعلقتين في فكره جاءته الجملة غير الاستفهامية: *ما العمل*.

الوقت ليل، وفي العتمة لم يستطع الكاتب أن يرى تأثير هذه الكلمات في عينيّ رسول، كما رآها هو في عينيّ الحمار.

يجب أن يحكي له قصة *فايستام*، ربما سيفهم عليه العجوز.

هذه المرة، يركز رسول على نقطتين في القصة. في الأول يركز على الإحساس الغريب الذي شعر به وهو في حقل القصب في نهاية ذاك اليوم، لحظة استيقظ من قيلولة عميقة: "ضيق نفسي - في البداية كان مبهماً، ومن ثم أضحى محسوساً - اجتاحني، كان مصحوباً، بشكل غير مفهوم، بإحساس غريب بالانفصال. انفصال لا يأتي مني. كان هناك، في السماء، بين القصب، في الهواء، خارجاً عني... كان كل شيء ينفصل عن جسدي، عن روحي، بكلمة واحدة: عن كياني. كل شيء ابتعد عني. من أين أتى هذا الشعور؟ من السماء الفارغة؟ من حفيف القصب؟ من عبثية انتظار والدي؟... لم أفهم ذلك أبداً".

بالطبع، بعد ذلك، شرح له بكثير من التفصيل نظرة الحمار. في هذه المرة استطاع هو أن يرى مشاعر أخرى في هذه النظرة: "لم يكن يعبر الحمار فقط عن استغرابه: *ما العمل*؟ لكن أيضاً عن تعبه وهو يتوسل: هيا اقضوا عليّ!"هذا ما كان الحمار يلح عليه. لم يفهم ما الذي جرى له. شعر بنفسه محكوماً عليه أن يعاود السير على نفس

الطريق، بشكل مستمر. لهذا فقد أراد الانتهاء من الأمر. بحيث عرض علينا تنفيذ إعدامه، إنه بذلك دفعنا للتفكير بوضعنا الخاص، وبمصيرنا .

يعطي الكاتب قطعة من الخبز لرسول، ويأخذ هو قطعة، يغمس الخبز باليخنة ويقول: "إنها جميلة كحكاية. جعلتني أتذكر حكاية الملاّ نصر الدين. في يوم من الأيام، دخل منزله مسروراً وفرحاً. سألته زوجته عن سر هذا الفرح. أجابها الملا: «لقد أضعت حماري» ردّت عليه زوجته قائلة: وهل هذا ما يجعلك سعيداً؟ فأجاب: «آه بالطبع! أنا مسرور لأني لم أكن أمتطي الحمار لحظة أضعته، وإلا لكنت قد تهت بدوري!... » لا أعلم إن كان هذا هو الوقت المناسب كي نحكي القصص الغريبة. لكن روايتك جعلتني أفكر بهذه القصة. أنت تهت لأن الحمار قد تاه. واليوم سوف يحكم عليك بالموت لأن الحمار هو من علّمك ذلك! هذا حسن، إنه لأمر جيد أن نتعلم كل شيء، حتى الرغبة في الموت، من بهيمة. ينهض. "غداً، لحظة انبلاج الفجر، عن آذان الصلاة، سأذهب لأبحث عن قائدك ذاك. الآن، كلّ، ونمّ". يأخذ المصباح ويذهب، وهو يصيح في عتمة الرواق قائلاً: *"هؤلاء الذين انضموا لدائرة الصفوة والأخلاق/ والذين، من الأسياد، من غدا النور/ لم يعرفوا كيف يسافرون لآخر الليل/ حكوا قصة ومن ثم ناموا"* ولم يلبث أن غاب في عتمة الليل البهيم.

يعود رسول لمكانه. رائحة الطعام المثيرة للغثيان تملأ المكان. يخرج من باب غرفته الصغيرة، والطبق في يده. عند نهاية الرواق،

كان هناك ضوء شحيح يخرج من إحدى الغرف، يكسر العتمة، ويقود رسول نحو الباب المشقوق. يشاهد الحارس الشاب يدخن. يمدّ الطبق نحوه، فيشكره الآخر، ويعرض عليه تدخين نفس من الحشيش. "منذ ثمانية أشهر وأنا هنا. أنت سجيني الأول والوحيد. ألا يوجد لديك شيء أفضل تقوم به غير المجيء إلى هنا وإزعاجنا؟!... ماذا فعلت؟" يسأله الحارس وهو يقضم قطعة كبيرة من الخبز.

- لقد قتلت.

- هل قتلت والدك؟

- كلا

- أمك؟

- كلا.

- أخوك؟

- كلا.

- أختك؟

- كلا. لم أقتل أحداً من عائلتي. لقد قتلت امرأة عجوزاً.

- للانتقام؟

لا أعرف.

سكت الاثنان، ناعسين، تائهي النظرات في أعمدة الدخان التي جعلت جناحي عثة متهالكة ترتفع، كانت قد جاءت تحتفي بضوء المصباح.

28

يخترق شعاع من الضوء النافذة، يضيء جزءاً من الجدار المبقع بالرطوبة، المهترئ مع الزمن، الممتلئ بكتابات ورسوم السجناء. أحدهم قد تفلسف وكتب: "*كل شيء ينتهي في آخر المطاف*"، الآخر، كان عاشقاً دون ريب كتب: "*الحب ليس خطيئة*" وشاعر آخر: "*أنا، نفسي، حائر/ وبالأحلام مسكون/ العالم بأجمعه غارق في النوم/ أنا، عاجز عن الكلام، وهم غير قادرين على الاستماع*".

إنه يعرفهم. لقد سبق واستمع إليهم، قرأهم. لكن هذا التعبير الأخير هو ما يحيره أكثر من الجميع. ممن؟ من هو الذي كتبه؟ متى؟ ولمن؟

كتبه لأجلك أنت.

يقترب من الجدار، يلاطف الكتابة. لكن الخطوات القادمة من الرواق تجعل يده تتجمد فوق الحروف. يفتح أحدهم الباب، يدخل رجال مسلحون إلى الغرفة، يخفي الظل وجوههم. يتقوقع رسول على نفسه، لكنه ينهض ما إن يسمع صوتاً يعرفه يصيح: "كيف حاله «واتاندار،نا»؟" إنه براويز، يصحبه رجلان، والكاتب. يقفز رسول لملاقاته وهو يهتف: "سلام" يتفاجأ براويز عند سماعه: "ها أنت قد استعدت صوتك؟".

– نعم، منذ يومين.

– أخيراً، تستطيع أن تخبرني كل شيء. أريد أن أسمع كل شيء منك أنت.

– جئت لأقدم نفسي للعدالة.

– حكى لي الكاتب عن ذلك. يقول براويز.

يستأنف رسول حكايته: "في الليلة التي اقتادوني فيها لعندك، كنت قد اقترفت جريمة".

يقوم براويز بإشارة نحو رسول وهو يخرج من الزنزانة كي يتبعه: "لا تتزامن الأحداث أبداً بالمصادفة! لماذا قتلتها؟"

يتوقف براويز ليحدق به ويقول: "كما هي الحال معنا جميعاً".

– ربما. لكن..." ينقطع كلامه وقتاً كافياً ليجعل الكاتب يتدخل ويقول: "أيها القائد لقد قتلها كي ينقذ خطيبته".

– ماذا فعلت خطيبته؟ يسأل براويز رسول، الذي يجد صعوبة في التعبير عن هذا الموضوع. إنه يشعر بالخجل. يحتفظ بصمت يقولون عنه أنه طويل.

"كانت تريد أن تقوده...؟.

– نعم.

– خيراً ما فعلت إذن" يقولها برواييز بطريقة قاطعة، صعقت رسول، وأضحكت الكاتب الذي يسير خلفه. يتوقف رسول. ويفكر: خيراً ما فعلت؟ هو أيضاً لا يأخذني على محمل الجد، هو، رئيس الأمن، المجاهد، رجل القانون. فيقول: "كيف خير ما فعلت؟ إنها جريمة، جريمة عن سابق إصرار وتصميم..." أمام صمت براويز، يصمت هو الآخر من جديد.

يدخلون المبنى حيث مكتب أرشيف العدالة. عند مدخل إحدى الغرف الكبيرة، يتركهم الكاتب، وهو يهز رأسه لرسول، لا كي يقول له إلى اللقاء، بل ليقول "يا لغبائك!".

يترك باراويز نفسه ليقع فوق كنبة، متعباً ومحطماً، ويدعو رسول ليجلس بمواجهته. يستأنف الكلام كما لو أنه لم يتوقف عنه البتة: "أنا لو كنت مكانك، لفعلت الشئ نفسه".

– لكن بماذا يفيد ذلك، أنا لم أستطع تغيير شيء لا في حياتي، ولا في حياة خطيبتي. لم أفعل الخير لأجل أحد. ففي هذا العمل من المعاناة، ما يفوق الحسنات.

– كي تفعل الخير، لا بد من المعاناة...

– بل ما حصل هو أسوأ من ذلك أيضاً. فحياتي أضحت جحيماً. خسرت المال، وخسرت خطيبتي... إنها جريمة دون هدف... حتى الجثة قد اختفت. كل الناس تفكر أن «نانا عليا» قد غادرت. قل لي، هل توجد جريمة أغرب من هذه؟

– في البداية، قل لي لماذا لم تذهب حتى الأخير في جريمتك؟

– تماماً، هذا ما أسأله لنفسي. ربما لأني لم أستطع...

– أو ربما لم ترغب. لأنك لست سارقاً. أنت رجل شريف.

– إنه أيضاً خطأ دوستوفسكي.

– خطأ دوستوفسكي؟ ما الذي فعله أيضاً كاتبك العظيم هذا؟

– لقد منعني من إتمام عملي.

– كيف هذا؟

– ما إن رفعت الفأس كي أضرب رأس المرأة حتى عبرت رواية دوستوفسكي «*الجريمة والعقاب*» تفكيري. فصعقتني...

دوستوفسكي، نعم، إنه هو! لقد منعني من متابعة مصير راسكولنيكوف، وذلك بأن أغدو فريسة ندمي، وأرتمي في هاوية الشعور بالذنب، من ثم أنتهي في السجن...

– والآن؟ أين أنت الآن؟!

يخفض رسول رأسه ويتمتم: "لا أعرف... أنا، لست في أي مكان.

– سيد رسول، أنت تقرأ كثيراً. وهذا جيد. لكن فلتعلم شيئاً واحداً، وهو أن مصيرك ليس مكتوباً إلا في كتاب واحد، *اللوح المحفوظ*، الكتاب المخفي، المكتوب من... "يرفع إبهامه نحو السقف، حيث يتطاير بعض الذباب". لا تستطع الكتب الأخرى تغيير أي شيء في العالم، ولا في حياة أحد ما. انظر. هل استطاع دوستوفسكي تغيير شيء ما في وطنه؟ هل استطاع التأثير بستالين مثلاً؟

– كلا. لكن لو لم يكتب هذا الكتاب، لربما كان هو نفسه من اقترف جريمة. وقد منحني هذا الشعور، تلك المقدرة على أن أحاكم ذاتي، وأن أحاكم ستالين. أعتقد بأن هذا وحده شيء عظيم، أليس كذلك؟

– نعم. هذا شيء عظيم. "يجيب براويز، وهو يغلق على نفسه بصمت طويل. ليقول بعده: لهذا أنا أهنئك على محاكمتك وعلى تصرفك!" يبتسم "فأنت استطعت حذف عنصر مؤذٍ من المجتمع. لأن موت هذه المرأة باستطاعته أن يعطي الراحة لعدد لا بأس به من الناس. وهذا ما يفسر سبب اختفاء جثتها. ربما يكون هذا من فعل عائلتها. ولو لم تكن قد قتلتها، لكان قام أحد غيرك بهذا

الفعل، سوف يقوم به الله، قوادة كهذه قد يصادف وأن تقع على رأسها... من يدري! إذن يجب أن توافق على أنك قمت بفعل حسن لأجل الكثير من الناس.

– وأنا؟

– أنت، ماذا؟

– ماذا ربحت أنا؟

– يجب أن تعرف أنك قمت بشيء مهم جداً: وهو تحقيق العدالة.

– العدالة! وأي عدالة؟ من أنا حتى أقرر حياة أو موت شخص ما؟ القتل جريمة، إنه أبشع عملٍ ممكن للمرء القيام به.

– *«واتندار»*، يُعتبر القتل جريمة متى كانت الضحية بريئة. تلك المرأة يجب أن تعاقب. لقد أخطأت بحق عائلتك، أخطأت بحق *ناموسك*، لقد جلبت عليك العار. ما فعلته أنت يدعى انتقام. وليس من حق أحد أن يدعوك مجرماً. انتهينا، هذا كل شيء.

– أيها القائد، مشكلتي ليست كيف سيحكم عليّ الآخرون، مشكلتي هي أنا. هذا العذاب الذي يأكلني من الداخل، كما الجرح، جرح مفتوح، وعضال.

– في هذه الحالة، ليس أمامك إلا خياران: "إما أن تبتر العضو المجروح، وإما أن تعتاد على ألمك". يخلع القائد براويز قبعته، يدير رأسه، ويشير إلى مكان خلف جمجمته: "انظر هنا".

ينحني رسول للأمام وينظر؟

"المس"

يمد رسول يده، بخشية، تلامس أصبعه جمجمة براويز. "هل تشعر بشيء؟" يتردد رسول قبل أن يجيب، ثم يسحب فجأة يده.

"هل تعلم ما هذا؟ إنها شظية قذيفة" يعاود وضع قبعته. "لي عدة سنوات وأنا أضغطها للداخل. حدث هذا زمن الجهاد. كنت قادماً إلى المنزل لأرى زوجتي وابني. علم الروس بوصولنا إلى القرية، فقاموا بقصفها. ضرب صاروخ منزلنا. هذا الانفجار الضخم، جعل عائلتي كلها تستشهد، وبقيت قطعة صغيرة في جمجمتي. لم أرغب يوماً في انتزاعها. أردت العيش مع هذا الشيء، كي يمنعني الألم من نسيان أقربائي. هذه الشظية أعطتني الأمل والقوة في الجهاد. قال لي أحد الأطباء الفرنسيين أنه يجب إزالتها، فإن تركتها، لن أستطع العيش لأكثر من عشر سنوات". ينفجر من الضحك كي يخفي مرارته. "أنت أيضاً، لديك شظية، شظية في الداخل، جرح داخلي، جرح أعطاك القوة".

– قوة ماذا؟

– القوة كي تعيش، وتحقق العدالة"

يحمل شاب إليهما الإفطار، يسأله القائد إن كان هناك أخبار عن جانو. "لا يوجد أي خبر عنه. لم يجدوه بعد...

– كيف ذلك؟ هو لم يختفِ في البرية! فليبحثوا عنه في كل مكان!

– التقيت به منذ أربعة أو خمسة أيام" يتدخل رسول قائلاً.

– أين؟

– دعاني لآخذ كأس من الشاي في «تشيخانة» صوفي. هناك، قابلنا بعض المجاهدين، من الذين، أثناء الجهاد، قمتم معاً بعملية ضد قاعدة عسكرية سوفيتية.

– هل تذكر اسمهم؟

– كانوا من رجال القائد... ناوروز، أعتقد ذلك. يقلق براويز أكثر فأكثر. يطلب وهو مشغول البال، من الشاب الذهاب إلى «تشيخانة» صوفي ويستعلم الأمر. بعد فترة من التفكير يستأنف كلامه: "خذ مثلاً حالة جانو. إنه ابني بالتبني. دمّر الروس قريته، وقتلوا عائلته. كانت لديه قوة أسد كي يعيش، وهذا يرجع بالضبط لرغبته في الانتقام". يسكت، ويترك رسول يفكر في كلامه، ومن ثم يقول له: "جروحك أنت، هي جروح تصيبك من الآخرين. إنما جرحي، فأنا من قمتُ به لنفسي، وبدل أن يضاعف هذا من قوتي، راح يخنقني، ولم يقدني إلى أي مكان. أحياناً أفكر أني لم أرغب في قتل تلك العجوز، إلا كي أتأكد أني كنت ما زلت قادراً على ممارسة القتل، كما الآخرين..." يخفض رأسه. بينما براويز يقدم له الشاي، يتابع كما لو كان يتحدث مع نفسه: "عرفت أني لم أخلق لهذا. ذاك اليوم، أردت أن أقتل رجلاً آخر، ولم أنجح...".

– ربما هذا الرجل كان بريئاً؟

– بريئاً؟ لا أعرف. لكنه أهان خطيبتي، لقد طردها من مزار شاهي شامشيرا والي.

– "هذا كل شيء؟" يضع الشاي أمام رسول. "أنت لا تستطيع أن تقتل دون سبب".

– ربما أردت قتله كي أضع حداً لجريمتي المهدورة .

– وهذه الجريمة أيضاً كانت ستكون مهدورة، لأنك كنت سترتكبها دون سبب.

– أعتقد أن الأمر هو هكذا دوماً. نكرر عملاً ما على أمل أن نستطيع نسيان العمل السابق الذي حكمنا عليه بالفشل... هكذا تستمر الجرائم، إنها دوامة حقيقية وجهنمية. لهذا سلمّت نفسي للعدالة، كي تضع المحكمة حداً لكل هذا.

– «واتاندار» أنت تعلم أن لا معنى للمحكمة إن لم يكن هناك قانون، إن لم يكن هناك من يحترم القانون. ماذا نملك اليوم من قانون وسلطة؟.

– أنت أيضاً، تبحث عن الانتقام؟

– ربما.

– العين بالعين، وسينتهي العالم بأن يصبح أعمى، يقول غاندي.

– إنه على حق. لكن مهما فعلنا يبقى الانتقام مترسخاً فينا. الانتقام موجود في كل الأمور، حتى في المحكمة.

– إذن، سوف لن تنتهي الحرب أبداً.

– بلى. ستنتهي في اليوم الذي يقبل فيه أحد المعسكرات بالتضحية، ولا يعود يطلب الثأر. من هنا تأتي ضرورة إعلان الحداد، الحداد على أفعاله، على جريمته، وانتقامه. وحتى الحداد على التضحية. لكن من يستطع فعل هذا؟ لا أحد، حتى ولا أنت".

براويز على علم بكل شيء. وهو قادر على كل شيء. لا تتركه أبداً. أنت من يجب أن ينبهّه ويصحيه، ويجعله يعود إلى مهمته. ما ينقصه فقط هو تضحية ما، شريكٌ ما. وأنت سوف تكون هذا

"الشريك.." أريد من العدالة أن تحاكمني. أريد أن أكون الضحية. ران الصمت من جديد. نظرات براويز هي التي أجبرته على الصمت. إنها نظرة إعجاب واستفهام. يستأنف رسول كلامه: "بهذه المحاكمة، سينتهي عذابي... هذه المحكمة، ستقدم لي المناسبة لأكشف نفسي أمام جميع هؤلاء الذين، هم مثلي، كانوا قد ارتكبوا جرائم...".

– يكفي أن تحسب نفسك شخصية من شخصيات دوستوفسكي، أرجوك. فتصرف دوستوفسكي، له معنى في مجتمعه هو، في دينه.

هل تعلم من الذي أيقظ الغرب، إنه شعور المسؤولية التي ولدت من الشعور بالذنب.

– *ما شاء الله!* يتحرك براويز، فيقلب كأس الشاي. "الحمد لله الذي أعطاهم هذا الشعور بالذنب، وإلا ما الذي كان سوف يحدث بالعالم!" وينفجر في ضحكة ساخرة. "هل تريد فعلاً أن تقدم نفسك قرباناً لتهويماتك؟".

– أفضل أن أكون ضحية تهويماتي عن التضحية بالآخرين. أريد بموتي أن...".

صوت طلقات نارية، غير بعيدة عن دار *الولايات* تقطع عليه كلامه، ينتظر براويز البقية وهو يصب لنفسه الشاي:

– "أريد لموتي أن يكون تضحية...

– لم يعد الوطن يحتاج إلى أموات، ولا إلى شهداء...

– آه، لا، لا أريد أن أكون شهيداً...".

توقف رسول هنا، أنت بالفعل ذهبت بعيداً بعيداً.

لم يزل لدي أشياء أريد قولها.

إنها أشياء سمعناها آلاف المرات.

نعم، لكن ليس بالنسبة إليه. هو يستطيع أن يفهمني. هو يعرف أن وجود الله لا يحتاج إلى شهود، ولا إلى شهداء.

أرجوك، لا يوجد فائدة من الكلام. هيا انهِ موعظتك: "أريد لمحاكمتي، والحكم الصادر عليّ، أن يكونا شاهدين على هذا الزمن الغير عادل، زمن الكذب والنفاق...

– واتاندار، في هذه الحالة يجب أن نحاكم كل الأمة.

– ولم لا؟ سوف تُستخدم محاكمتي لمحاكمة كل مجرمي الحرب: الشيوعيين، أسياد الحرب، المرتزقة...".

يحلّ الصمت، ويستمر لفترة.لم يعد براويز يرتشف شايه. إنه تائه في مكان آخر، هناك، في المكان الذي كانت نظرته تتيه فيه، في البعيد، البعيد، إلى ما وراء الفجر الذي دعا نفسه للدخول من النافذة. ثم بغتة، لم يلبث أن ينهض: "«واتاندار» عد إلى حياتك، وانضم إلى عائلتك. اذهب إلى مكان آخر! هنا، هذه الحرب القذرة، مثلها مثل أية حرب أخرى، لها قوانينها وقواعدها". ينهض رسول أيضاً. "لكن أنت، بمقدورك تغيير القوانين". يحدق به براويز طويلاً، يمد له يده. "سوف أعلمك متى يحدث هذا. عد إلى بيتك!".

29

لم يجرؤ على الدخول إلى بيته، الذي كان يخرج منه قليل من أصوات الضحك والصراخ. لم يجرؤ على كسر هذا الفرح الذي يغمر سكنه. يفتح الباب بصمت. يرى ابنتي يارموحمد وطفلتين أخريين، يعبثْن بكتبه، يبنون بيوتاً بها، بوضع كتاب فوق الآخر، يتجولن من طابق لآخر والدمى في أيديهن البريئة، يلعبن:

"خالة، خالة، أعطني ناراً!

– ليس عندي، اصعدن الطابق الأعلى!

– خالة، خالة، أعطني ناراً!

– ليس عندي، هيا اصعدن الطابق الأعلى!

هذا الابتهاج يريح رسول، فيبقى على العتبة، رافضاً الدخول وهدم هذا العالم الذي لا أحد فيه يملك ناراً. يترك الطفلات يلعبْن أحلامهن. يعاود هبوط الدرج. لا يوجد أي أثر لرونا ولا ليارموحمد. يجد نفسه في الشارع، فارغاً من أي شعور. تخترق الشمس المتغطرسة جسده، تجعل الدم يغلي، تثير أحاسيس غريبة، نوع من شعور غريب بالدمار الداخلي.

كل جسد هو خراب ثقيل.

كل جسد يحتاج الأثير.

يحتاج القنب، مراراً وتكراراً، ليطير.

لم يكن في «*الساقيخانة*» أحد، عدا مصطفى، المنحني والمتكور على نفسه، قرب نارجيلة مطفأة. يلقي رسول بالسلام عليه. يستقيم هذا الأخير، ببطء، وهو لم يزل ناعساً، يحرك رأسه بإشارة لرد السلام، ويسأل، كما لو كان يريد ردّ المعروف لصديقه: "هل بدأت الحرب؟" "كلا" يجيب رسول. يدعوه الآخر للجلوس. "هل لديك القليل من الحشيش؟".

– لو كان لديّ، لما جئت هنا.

ينهض مصطفى بمشقة كبيرة قائلاً: "غادر الجميع" يذهب للزاوية الأخرى من الصالة، بعد موت «*كاكا ثروت*»...

– هل مات؟

– نعم، لقد قتلوه. في أحد الأيام، كان مطفأ من السكر، ذهب إلى الجامع، صعد إلى المنبر، انتزع مكبر الصوت كي يتلو الآية الثامنة عشرة من القرآن. أنت تعرف، تلك الآية التي يحب أن يرددها دوماً. قصة «*اليأجوج والمأجوج*»، ينزع حجراً من الجدار، ويتابع: "نحن، كنا هناك. كنا نسمعه، وسمعنا الأعيرة النارية التي أطلقت عليه". يدخل يده في الثقب، يبحث، ومن ثم، بأنين مخنوق، يسحبه. يمسك بعقرب من ذيله ويضعه في نار الأرجيلة. "لم يتبق لنا غير هذا للتدخين" يضحك بأسى. يفرك عود ثقاب، ويشعل الحيوان. وبعيون مغلقة، يملأ رئتيه بنفس من النارجيلة، عميق وطويل. يمد نبريج النارجيلة نحو رسول، قبل أن يتقوقع من جديد حول نفسه في إحدى الزوايا. متردداً، يسحب رسول نفساً قصيراً، ومن ثم نفساً آخر، أكثر طولاً. يحرقه هذا النفس، كما لو أنه يبتلع العقرب مع سمه. تنعقد حنجرته. تهتزّ عروقه كما الأفاعي

الصغيرة المجروحة التي تحاول أن تثقب جسده كي تهرب. يترك النارجيلة، يستند على الجدار، وينهض. كل شيء يدور حوله. كل شيء يغدو مظلماً. الباب على بعد خطوتين عنه، لكن الوصول إليه يستغرق دهراً.

في الخارج، لم تزل الشمس هنا، فوق الأعصاب، قاسية ومتغطرسة. فيسير رسول مخموراً أكثر فأكثر.

أين هو الظل؟

أين هي العذوبة؟

أين هي صوفيا؟

دوماً في السكر تفكر بها.

لا، بل في عمق أحاسيسي الشاعرية.

أو ضمن تعذيبك البغيض. أنت لا تحبها إلا من أجل هذا.

يصل أمام منزلها. يريد أن يطرق الباب، لكن يده بقيت معلقة في الهواء، مثل أفكاره.

ماذا تريد منها؟

لا شيء.

تراجع إذن.

لكن أريد التحدث معها.

لكن هل لديك المزيد لتقوله لها؟ لا شيء لتقوله، بصوتك أو عدمه، عدا اجترار أفكارك الرخوة.

كلا، سوف لن أثرثر بالكلام ذاته هذه المرة. أعدك بذلك. سوف آخذها، كما المرة السابقة، إلى هضبة «باغيبالا» عند كروم العنب، كي يشرف عشقنا على كابول كلها. سأقول لها أنها جميلة. وسوف

تحمّر خجلاً. سألقي بنفسي عند قدميها، وسأقول لها أني أركع تحت قدميها، ليس فقط لأجل جمالها النقي، لكن أيضاً لأجل ألمها. وسوف تقول لي بدورها أنه مرّ زمن طويل لم أقل لها كلاماً عذباً كهذا. سأقول أن لدي الكثير لأحكيه لها، لكن الحرب لم تترك لنا الوقت. سأقبلّها. ستمد يدها كي تمسك بيدي. سأطلب منها أن تأتي معي، نذهب لبعيد، بعيد. إلى وادٍ، لا أحد فيه يعرف بعد الكلام، ولا يعرف أي كائن فيه بعد معنى الشر. وادي يدعى «الطفولة المستعادة».

صوت الخطوات الآتية من باحة المنزل، تجعل رسول يبتعد عن الباب. تخرج امرأتان بالشادور، ودون أن تعيراه اهتماماً، تختفيان في إحدى الأزقة. من هما؟

هل هذه صوفيا وأمها؟

أتراهما لم ترياني، أم لم تتعرفا عليّ. أنا لم يعد لي وجود. أنا لا شيء.

ينادي: "صوفيا" لكن الصرخة لم تخرج، ضاعت بين حباله الصوتية، كما في السابق. يستند على الجدار، ويترك نفسه لينزلق على الأرض. يطوي ساقيه، يحتضنهما، ويسند رأسه .يغمض عينيه. ويبقى هكذا للحظات، لحظات طويلة كالأبدية.

ها هنا، سوف يبقى.

ها هنا، سوف يموت.

هنا في هذا المكان.

وها هو هنا منذ سنين طوال، منذ الأبد، عند أسفل هذا الجدار.

ها هو منذ سنين طوال، منذ الأبد، وهو لم يزل ينتظرها.

وصوفيا لن تراه إطلاقاً، ولن تعرفه أبداً....

"رسول" صوت داوود يجعله يرفع رأسه. يقف الصبي أمامه، وصفيحة من النفط في يده،. "صباح الخير، رسول".

– يا للمفاجأة! أنت لست على السطح؟

– هل تعتقد أن والدتي تتركني أعمل بهدوء؟ غالباً ما تكون صوفيا غائبة عن المنزل.

– هل تعمل؟

– نعم. ما زالت تعمل عند «نانا عليا» التي اختفت، ونازيغول تخشى البقاء وحدها. تقضي صوفيا وقتها معها، حتى في الليل. لكنها تأتي لرؤيتنا بين الحين والآخر." يضع صفيحة النفط على الأرض، " إنها ثقيلة...وأنت لم تعد تأتي لرؤيتنا؟

–أنت ترى، أنا هنا.

يفرك الصبي يديه بعضهما ببعض، يعاود حمل الصفيحة، "يجب أن أذهب، أمي تنتظرني"، ينتظر من رسول أن ينهض، "ألن تأتي؟".

– أريد أن أرى صوفيا.

– هي هنا.

– أعتقد أنها خرجت.

– ربما. تعال خذ كأساً من الشاي.

– لا، ربما في يوم آخر.

ما كاد داوود يدخل إلى البيت، حتى، وبعد فترة تردد قصيرة، يطرق رسول الباب. يفتح له داوود. "لا تقل لأمك ولا لصوفيا أني قد أتيت". يهزّ الصبي رأسه، ويخفض بصره، كما لو أنه يريد

تفريغ حزنه عند قدميه، على الأرض. يغلق الباب ويدخل، حاملاً معه يأس رسول كله.

ينطلق رسول، لكنه يتوقف بعد ثلاث خطوات، يخرج مالاً.

يهمس لنفسه: لست بحاجة إليها.

يدور على عقبيه، ويطرق الباب من جديد. ودوماً هو داوود من يفتح. يعطيه رسول الرزمة كلها: "أيضاً لا تقل شيئاً بشأن هذا. أعطها لصوفيا. قل لها أنك ربحتها من بيع حماماتك!" مذهولاً لرؤيته يملك مرة أخرى هذا الكم من الأوراق المالية، يبقى الصبي مسمّراً عند فتحة الباب، حتى يختفي رسول عن الأنظار، وسط الغبار المتصاعد لإحدى الشاحنات.

عندما وصل رسول إلى منزله، لم يلتقِ لا بيارمحمّد ولا بزوجته.

يدخل إلى غرفته. لم يعد هناك ذباب فوق طبق الجبن والزبيب المجفف. فالغطاء الذي يغطي الطبق أضحى الآن أسود تماماً، أسود من العفن. سريره، كما هي العادة، غير موضب، ولامبال. انتشرت هذه اللامبالاة في الكتب، في الثياب القذرة المتراكمة في إحدى الزوايا، في الإبريق الفارغ، المرمي على الأرض...

لماذا الكل غير مكترث بعودتي؟

يأخذ كأساً.

كل شيء يتجاهلني.

يرمي بالكأس فوق حشيته. ومن النافذة، يتأمل الباحة الفارغة، حتى من أصوات الأطفال.

لا شيء يعترف عليّ.

تعبر فأرة طائشة الغرفة.

كيف باستطاعتي العيش مع هذه اللامبالاة التي تظهرها لي أشيائي؟

يركل بقدمة الوسادة، ويبقى واقفاً وسط غرفته.

ليس هناك ما هو أسوأ من عدم انتمائنا إلى عالمنا الخاص. فلا شيء يريد امتلاكي.

ولا أحد يريد محاكمتي.

هذه التبرئة، التي تمحو ضمير الجميع، تسلبني جريمتي، وفعلي، وحتى تواجدي.

وسيستمر هذا الأمر، طالما بقي الغموض يلف العمل الذي قمت به. يجب أن أجد جثة «نانا عليا».

30

"اقتل كي تحيا، هذا هو مبدا كل القتلة، يا عزيزي رسول" يقول الكاتب وهو يدسّ ملفه تحت ذراعه، وبخطوات مسرعة، يتجه نحو باب مكتب الأرشيف. يتبعه رسول: "لم أعد أريد المزيد من النظريات، أنا أطلب منك فقط مساعدتي بفك ملابسات هذا الغموض".

يتوقف الكاتب بغتة: " هل تعتقد أني تحر؟ لا أعتقد أنك في فيلم بوليسي... أو في رواية لأغاثا كريستي! اذهب لترى محاميك، القائد براويز.

– ذهبت لرؤيته. لكنه مشغول جداً ومتأثر باختفاء ابنه بالتبني. يقولون أنه قد قتل، وأنهم قد قطعوا رأسه...

– *رقصة الموت*!

يصمتان. يوقفه رسول عند مخرج البناء: "لا يوجد غيرك يستطيع مساعدتي. أنت تعرف الكثير من الأمور. لا بد وأنك عاينت الكثير من الحالات، وسمعت الكثير من القصص...".

– هذا صحيح! لكنني لم أسمع أبداً بحكاية كحكايتك! في حالتك هذه لا أستطيع فعل شيء.

– بلى. ساعدني كي أرى جثة «نانا عليا».

– لكن ما الفائدة من هذه الجثة اللعينة؟

– كي أثبت أني قتلت.

– لا حاجة بك إطلاقاً لإثبات أمر كهذا. كل الناس تعلم أنك قتلت. وإذا أردت أن تجرجر تلك الجُثة وتتنقل بها في الشوارع، فهيا أسرع. ففي هذا الصباح بالذات، في مقبرة "ديهافغانان وجدوا ثلاث جثث مقطعة الرؤوس، كانوا قد أخفوها في أحد القبور. هيا اذهب وقل أنك أنت الجاني!".

لم ينطق رسول بكلمة.

عند وصولهما لباحة مقر الحكومة أوقفهما حارس من حرس *غازي صهيب*، الذي يسأل ما إن يرى رسول، : "ماذا تفعل هنا؟".

– بالأمس، تحدث القائد براويز مع *غازي صهيب*، لقد قضي الأمر وانتهى، يجيب الكاتب، من ثم يتوجه بالسؤال نحو رسول: "سوف نناقش طلبك في يوم آخر. الآن أنقذ نفسك!".

– حسناً، لكن... لا أعرف أين اذهب.

– عد إلى بيتك أيها الشاب!".

يتدخل الحارس: "كلا، انتظر! إنه سجين هنا".

– ليس بعد الآن.

– كيف ليس بعد الآن؟ الحاكم يبحث عنه. كيف بإمكانه الخروج دون إذنه؟ يدفع رسول بعقب بندقيته: "هيا، تحرك من هنا!".

مرتبكاً، يقترب الكاتب من أذن رسول ويهمس: "أنت مجنون تماماً! فلو بقيت صامتاً، لارتاح العالم".

– عدت إلى منزلي، فرفض كل شيء التعرف إلي، انفصل الجميع عني، كتبي، سريري، ثيابي... الكل رفضني. ذهبت عند خطيبتي، هي الأخرى لم تتعرف عليّ...

– "لا تقلق! هنا سوف يتعرف عليك الجميع" يقول الحارس وهو يقبض رسول من ذراعه، ولا يعود يتركه. يقوده بخطوات سريعة حتى مكتب *غازي صهيب*.

دخولهم المفاجئ يُفزع حمامة كانت تسير نحو سكرتير الحاكم كي تأكل. تجفل، وتطير في كل مكان، مرعوبة، تصطدم بالزجاج، ومن ثم تتجه نحو الباب.

يصيح غازي: "أغلقوا هذا الباب بسرعة! ويتابع وهو يشير نحو الحمامة: "هيا امنعوا وثيقة الإثبات من الهرب!" يهرع الحارس كي يغلق الباب.

عند رؤيته لرسول، يغضب الحاكم ويسأل الحارس والكاتب: "أين كان هذا مختفياً؟".

– "لقد غادر زنزانته" يقول الحارس. وهذا ما جعل أيضاً *غازي*

يستشيط غضباً. " كيف غادر زنزانته؟ من الذي أعطاه الأمر بذلك؟" يتمتم الكاتب: "القائد براويز استدعاه إليه، و...".

– من هو «*الغازي*» هنا؟ أنا أم هو؟ هيا خذه من أمامي! فليرجع إلى زنزانته! قيدوه!".

يلتفت رجلان، يجلسان أمام مكتب الحاكم، نحو رسول. أحدهما كان حارس مزار شاهي شامشيراي والي، والآخر، رجل عجوز، هو ذاك الرجل الذي كان يُطعم القمح لحمام المزار. ينتفض الرجلان عند رؤيتهما لرسول، ويسارع العجوز نحوه وهو يقول: "كلا، *غازي صهيب*، كلا، هذا الرجل هو شاهدي. لقد كان في المزار، وقد رآني..." يُفاجأ الحاكم، فيشير نحو الحارس ليترك رسول، من ثم، يوجه الحديث للكاتب وهو يشير نحو العجوز: "في البداية، يجب أن تفتح ملفاً لهذا الرجل".

– ما هي تهمته؟

– "سرقة الحمام، حمام المزار" يجيب الحاكم، ويؤيد كلامه حارس المزار: "يأتي كل يوم لإطعامهم القمح"، "إعطاء القمح، هو خطيئة. بعد ذلك يسرق الحمام، هل تعلم لماذا؟" يخاطب الحاكم من جديد: "كي يشويها ويأكلها. جيرانه هم من قالوا لي. قالوا لي أن رائحة الشواء تفوح كل يوم من بيته،...".

– طأنا، لم آكل مطلقاً حماماً مشوياً. لا حول بالله! حمامات مزار شاهي شامشيرا والي؟ لا حول بالله! إنه يكذب!" يصرخ العجوز وهو يهجم على الحارس: " أنت تعلم أن الافتراء هو أحد أكبر الخطايا؟".

– "إذن، ماذا كانت تفعل هذه الحمامة في جيبك؟" يسأل

حارس المزار، من ثم يقول *لغازي*: "أنا وجدتها بنفسي في جيبه" تطير الحمامة في الغرفة. يتضايق العجوز فيقترب نحو الحاكم: "كانت تنقر القمح في جيبي. حمامات مزار شامشيرا والي تحبني، إنها تثق بي. انظر!" يصفّر، فتطير الحمامة وتحط على كتفه "إنها تثق بي" يلتفت نحو الحارس ويناشده قائلاً: "لا تكذب يا أخي! أنت حارس المزار، ألا تخجل، أمام *غازي صهيب* وأمام الله، أن تتهم أخاً مسلماً لك؟" ويتوسل رسول: "لقد رأيتني أنت، في ذاك اليوم، قل لهم ماذا كنت أفعل هناك...".

- "هل هذا الشاب مشترك أيضاً في هذه القصة؟" يسأل *الغازي*.

يتقدم رسول خطوة كي يقول: "لم أره سوى مرة واحدة، منذ يومين ثلاثة. عندما ذهبت مع خطيبتي كي نصلي. و...".

- *غازي صهيب*، معك حق، يتدخل حارس المزار قائلاً، "إنهما شركاء. فقد جاء ذاك الرجل وهو مسلح كي يسرق أموال الصدقات، وقد أراد قتلي أيضاً...".

- "لماذا تكذب؟" يصرخ رسول، وهو يحاول الاقتراب نحوه، يمنعه الحارس. "نعم، لقد ذهبت لهناك كي أقتله، لا كي أسرق. أردت أن أنتقم، لكني لم أستطع...".

- أنت موجود في كل مكان! أنت من؟ أنت ماذا؟" يقول *الغازي*، وهو يمد نفسه من فوق مكتبه.

- "*غازي صهيب*، اسمح لي أن أقول لك" يتدخل مرة أخرى حارس المزار، وهو ينهض قائلاً: "إنه...اعذرني، *غازي صهيب* ـ فليملأ الرب فمي بالتراب ـ هذا الرجل هو قواد. نعم، لقد جاء إلى المزار ـ ليملأ الرب فمي بالتراب ـ مع عاهرة. أنا طردتها، وهو،

جاء ليسرق مال المزار. لم يأت كي يصلي، لم يذهب لهناك إلا من أجل السرقة!" تطير الحمامة أمامه. يهجم الحاكم على رسول: "مع امرأة خاطئة؟ هذه *فتنة!* هل تعلم أنه بسبب امرأة خاطئة، خسر شاهي شامشيرا والي حياته". يلتفت نحو الآخرين. "يقولون أن القديس، حتى وهو مقطوع الرأس، كان يقاتل ببسالة، ممسكاً بسيف في كل يد. وعندما وصل إلى كابول، ألقت حوله إحدى النساء الخاطئات شباكها. انهار القديس وسلّم لها روحه. قيل في *الأحاديث: "لا تترك أي امرأة خاطئة تدخل حرم مكان مقدس".* "هذا، أخذ إحدى الخاطئات إلى المكان المقدس! والآخر يسرق الحمام في المكان المقدس! ماذا تفعلون بالإسلام؟" يقطع كلامه بفاصل، كي يقول للكاتب: "اكتب! اكتب أنه سوف ينال عقاب السارقين" مشيراً نحو العجوز، " فهو متهم بسرقة الحمام من المزار المقدس. فلتقطع يديه". يفتح العجوز فمه مرعوباً كي يتكلم. تترك الحمامة كتفه وتطير، تدور دورة في الغرفة، وتعود لتحطّ فوق مكتب *غازي*. يقترب الكاتب من الحاكم، ويهمس في أذنه: "غازي صهيب، اسمح لي أن ألفت انتباهك، أنه، وبحسب *الشريعة*، لا يعد البتر لشخص سرق ممتلكات لا صاحب لها، في مكان عام، جزاءً مقبولاً شرعاً.

- لأي سبب؟

- *غازي صهيب*، سُئل الإمام علي إن كان جزاء البتر يجير على سارق الحيوانات التي لا مالك لها، وفي مكان عام، أجاب الإمام بالنفي.

- هل تريد إن تعطيني درساً في الشريعة؟

– استغفر الله! كان هذا للتذكير فقط، أيها المبجّل *غازي صهيب*.

– "إذن، ألفت انتباهك، أنا أيضاً، لشيء ما: هنا، أنا *الغازي*. وأنا آمر أن تبترَ يديَّ هذا الرجل." يمد الكاتب بورقة وقلم نحو الحاكم: "لهذا، أنا اطلب منك، أن تتكرم وتكتب ذلك بيدك".

– أنت أيضاً تعصي أوامري؟ وزيادة على ذلك، لا تحترم كلامي؟

– أنا بعيد عن كل تفكير غير محترم، أيها المبجّل *غازي صهيب*. لكني أخشى اليوم، الذي لن يعود فيه لكم وجود هنا ـ ليحفظك الله سالماً آمناً ـ فيتهمونني أنا، بكتابة أمر مخالف للشريعة.

– مخالف للشريعة؟ أوامري أنًا مخالفة للشريعة؟ هيا خذ أغراضك واغرب عن وجهي، بسرعة البرق!.

يريد الكاتب الكلام، لكن الحاكم يشير للحارس كي يرميه للخارج. يغتنم العجوز هذه الفرصة كي يجثو على قدميه أمام *الغازي*. لكن هذا الأخير يقاطعه فوراً: "اخرس، اخرس! الحكم تحت سيطرة الغضب غير مستحسن"، ثم لأحد الحراس: "ضعه في السجن، وهاتوه غداً!".

يخرج الحرس مع العجوز، يتبعهما الكاتب. ويبقى رسول.

"جلبت المجوهرات؟" يسأل القاضي. وهو يقترب منه ببطء. يهز رسول رأسه بالنفي.

– كيف، لا! لماذا إذن غادرت السجن؟

– لأنهم قالوا أنه لم يعد لي هناك شيء لأفعله .

– نعم؟ يزمجر القاضي، ومن ثم يصرخ للحارس، يعطيه الأمر بإعادة رسول إلى السجن. "في زنزانة منفردة! وغداً أرسلوه إلى البتر، ومن ثم إلى الإعدام!".

31

يتردد الفجر في البزوغ من خلف القضبان، صامتاً ومبهماً. وبينما كان المؤذنون يدعون المؤمنين للصلاة، وأسلحة الانتقام تستيقظ، وصوفيا في سريرها تعانق براءتها، ورازموديين ينقذ شرف العائلة في «مزار شريف»... كان رسول يحاول نسيان هذا العالم الذي تجرد منه. يجلس في زاوية من زوايا الزنزانة. لا ينتظر أحداً. لا يسمع شيئاً. يقرر أن يعود أبكمَ. وحتى أصماً.

نعم، لن أسمع، ولن أتحدث بعد الآن.

"نحن لسنا قادرين على الكلام

لو بمقدورنا فقط الإصغاء!

يجب قول كل شيء!

يجب الإصغاء لكل شيء!

لكن

صُمت آذاننا،

خرست شفاهنا،

وأُغلقت قلوبنا"

يجب كتابة هذه القصيدة هنا، في هذه الزنزانة، يحفرها على الجدار. يبحث في الأرض عن حجر صغير، أو قطعة خشب صغيرة. لم يجد شيء. إذن، لم يبق أمامه غير الأظافر. يبدأ بتحديد

الكلمات فوق الطلاء المقشور. يؤلمه هذا. إنه يتألم. يضغط أكثر، فينزف. لم يتوقف عن الكتابة، يبقى يكتب حتى يسمع اقتراب خطوات، ووقوفها أمام زنزانته، صوت طقطقة مفاتيح في الرواق، ثم يرتفع صوت أجش يأمر: "اخرج!" يتوقف عن الكتابة ويبقى جامداً في مكانه، هادئ الأعصاب، وعيناه معلقتان فوق الكلمات.

يدخل الغرفة مسلّحان، يمسكانه من ذراعيه، ويرفعانه.، يقودانه دون أية كلمة حتى قاعة الجلسات. نسمع من خلف الباب ضجيج الجمهور، "قاتل" "شيوعي" "المال" "الانتقام"... الكلمات التي سبق وسمعها ألف ومائة مرة، والتي كانت في السابق ترعبه، أو تسليه، لكنها اليوم تجعله أبكمَ. فهو لم يعد يسمعها.

يفتحون الباب.

يدخل رسول.

ويحلّ الصمت في القاعة.

الجميع هنا، جالسٌ على مقاعد خشبية، في جميع أنحاء الغرفة. الكل ملتحٍ، يرتدي عمائم سوداء أو بيضاء، والكلّ ينظر إلى رسول. إنه هادئ. يمسح بنظره الغرفة ويتوقف عند فرزان، الذي، بابتسامته الدائمة فوق شفتيه الحزينتين، يقدم الشاي. براويز أيضاً كان حاضراً، وحيداً في زاوية من الزوايا، كامداً وكئيباً، وعيناه مثبتتان في الأرض. بالقرب من *غازي*، جلس عامر سلام. بصدره المنفوخ، ويديه البدينتين، يستند على عصا، ويسبّح بالسبحة. يروز رسول بنظره، وهو يحرك رأسه، من الصعب معرفة إن كان هذا كي يقول له: "ها نحن أخيراً!" أو أنه فقط يصلي.

يرتشف «*الغازي*» شايه بصوت عـال، ويقلـده الآخـرون. يغـادر فرزان القاعة، ناظراً لرسول مـرة أخـرى نظـرة أكثـر حزنـاً. يضـع *الغازي* كأسه ويشير لكاتب جديد، يجلس بالقرب منه، أن الجلسة قد افتتحت. ينهض الكاتب، يغلق عينيه، ويتلو سورة مـن القـرآن الكريم. عنـدما تنتهـي تـلاوة السـورة، يطلـب *الغـازي* مـن رسـول الاقتراب وهو يقول له: "هيا قدّم نفسك!" ينظـر رسـول نظـرة قلـق نحو براويز، الذي يبقى صامتاً. يعيل صبر القاضـي: "طلبـت منـك أن تقدّم نفسك!" يخيم الصمت. أخيراً ينهض براويز ويقول: "هـذا الفتى مريض... لم يعد يملك صوتاً". يغضب غازي: "كيف لم يعـد يملك صوتاً؟ بالأمس كان في أحسن حال. واليوم، هو غير قادر على الكلام!" يتوجه نحو الجمهور: "أيها الإخوة المسلمون، لقد انتصرنا على الشيوعيين بفضل الجهاد". فجأة، ترتفع كل الأصوات مـرددة "الله وأكبر" ثلاث مرات. يتابع الغازي: "لكن الآثمين، النـاجين، من هـذا النظـام لا يزالـون يمارسـون نشـاطهم بـين شـعبنا المسـلم، يستمرون في ارتكاب جـرائمهم، وينشـرون الفسـاد. وهـذا الشـخص الذي أمامكم، هو من بينهم. فمنذ بضعة أيـام قتـل بوحشـية أرملـة عجوزاً عـاجزة عـن الـدفاع عـن نفسـها، كـي يسـرق لهـا أموالهـا ومجوهراتهـا. لكـن لحسـن الحـظ، أن مسـؤولي سـلامة حكومتنـا المجاهدة، والتي هي تحت سيطرة القائـد براويـز، الـذي هـو هنـا الآن، استطاعوا إلقاء القبض عليه".

يُفاجأ براويز، تبحث نظراته القلقة عن نظرات رسول الذي كان يحدق بعناد بالأرض. يتقدم كي يتكلم، لكن *الغازي* يشـير للكاتـب

أن يتلو سورة أخرى من القرآن. يصمت الجميع. عند انتهاء التلاوة، يستأنف *الغازي* الكلام. "هل فهم المتهم معنى الآية الثالثة والثلاثين من السورة؟" ينظر إليه رسول دون أن يجيب. "كان الأجدر بك، بدل أن تتعلم لغة الروس، أن تتعلم لغة الله. أيها العاق! قال الرب: "*إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله، ويسعون في الأرض فساداً، أن يُقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم، أو ينفوا من الأرض، ذلك لهم خزي الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم*".

يجأر الرجال: "الله أكبر!" ودوماً لثلاث مرات. يرتشف القاضي رشفة شاي: "رسول، ابن... ما هو اسم والدك؟" ينتظر لمدة دون جدوى، ثم: "لا يهم. رسول ابن... البالغ وهو في كامل قواه العقلية، اعترف أنه قتل أرملة، في السادس عشر من شهر صفر عام 1372 هجرية، وسرق مالها ومجوهراتها. لذلك أقرّت المحكمة ذنبه بالسرقة والقتل، وهي تحاكمه وفق *الشريعة* الإسلامية بالجزاء العظيم، وهذا يعني البتر ومن ثم الإعدام...".

بينما كان يردد الرجال ثلاث مرات «*الله أكبر*» ينهض رجل ويعترض: "هذا ليس عدلاً!" وكجواب على اعتراضه، تعلو أصوات أخرى تملأ القاعة: "بل هو عادل!" "إنه قانون *الشريعة!*" "إنه مثبَت، إنه مثبَت!" "إذن فهو عادل!"... يحاول المحتج إيصال صوته: "هذا عادل، اقطعوا له يديه، هذا هو العدل..." ويتلو آية من القرآن، وهذا ما أسكت الجلبة، فتابع: "غازي صهيب، اليوم، كما سبق وقلت، وبفضل الله..." *تضج القاعة: "الله أكبر.."* يتابع

الرجل: "يسود في دولتنا حكم «الشريعة» التي هي في الأساس جوهر دولتنا الإسلامية. أتريدون أن نتبع هذا القانون؟ إذن يجب على كل شيء أن يكون مستنداً إلى *الفقه*. بداية، هذا الرجل لا يملك صوتاً....

- "بلى، هذا «*الفتنة*» يستطيع الكلام، لكنه يتظاهر بالبكم" يقول «*الغازي*» ثم يتوجه نحو الحارس بقوله: بالأمس كان هذا «*الفتنة*» يتكلم، وكنتم أنتم حاضرين".

- نعم، غازي صهيب، نحن شهود على أن هذا «الفتنة» كان يتكلم بشكل جيد".

يلتفت «*الغازي*» نحو الرجل ويقول له: "لهذا، فالأفضل ألا تدخلوا في لعبته، هيا تابعوا!

- حسناً، سنضع جانباً بكمه. لكن، بما أن الضحية هي امرأة، مقتولة من قبل رجل، فبحسب قانون الشريعة، لا يجب أن يعدم المجرم، لأن ثمن دماء المرأة يساوي نصف ثمن دماء الرجل. ينهض آخر كي يحتج: "هذا غير ممكن".

- بإمكاننا إعدام المجرم إن دفع أهل الضحية النصف المتبقي من ثمن دمائها لأهل المتهم.

- وإلا تتم تبرئة القاتل، إن هو أعطى فتاة لأهل الضحية...".

من جديد ترتفع الأصوات: "أين هي عائلة الضحية؟".

- يجب أن نثأر لها!

- إن لم نثأر لها، فسوف نرزح تحت ثقل الدماء.

- العين بالعين.

– لحظة، من فضلكم. يطلب «*الغازي*» الذي يأخذ مبادرة الكلام وهو يسبّح بسبحته: "هناك اتهامات أخرى، أكثر خطورة أيضاً. فمنذ بضعة أيام، أحد المسلمين، وهو حارس مزار شاهي شامشيرا والي، قد كشف أمام المتهم، وأمام شهود أن هذا «الفتنة» قد ذهب إلى المكان المقدس بصحبة عاهرة. وزيادة على ذلك، فإنه قد هدّد الحارس بمسدس كي يسرق مال الصدقات، وقد اعترف المتهم أمام الشهود أنه كان يريد قتل الحارس.

– "هذا الرجل يستحق الموت" يصرخ أحد الرجال. "إنه يهدد رجلاً بريئاً؟!" يتعجب آخر. "إنها لخطيئة!" يوافق الحضور. "يريد قتل حارس شاهي شامشيرا والي؟! لا حول *بالله!*.

– إنها جريمة!

– إنها إهانة لله ولرسله!".

فقد رسول الشعور بكل شيء، أمام هذا الضجيج، كان هادئ الأعصاب. نظر فقط لثوان إلى براويز الذي كان يتابع الحضور بصمت. استطاع صياح القاضي أن يهدئ القاعة: "لم يكن من دون سبب، أن قلت لكم في بداية جلستنا، أن المجرم كان رجلاً تابعاً للنظام القديم. اعترف لي هذا الرجل، من بنفسه، أنه قد انشق عن ديننا الحنيف".

تغدو الصيحات مجلجلة: "الشيطان!

– الملحد!

– المارق.

– إنه يستحق الإعدام!".

من جديد يسيطر صياح القاضي على القاعة: "نعم أيها الإخوة، تشاهدون الآن أمامكم رجلاً، بحسب القرآن، هو «فتنة» هو تجسيد للشر على الأرض. إذن يجب أن ينال العقوبة المنصوص عليها في الشريعة للمنشقين واللصوص. لهذا، ففي يوم الجمعة، تماماً بعد آذان الصلاة، في منتزه زارنيغار، وأمام العامة، سوف تقطع في البداية يده اليمنى، وقدمه اليسرى. وسوف تعلّق هذه الأعضاء المبتورة فوق عوارض، على مرأى من الجميع.

ثم، هذا «الفتنة» سيعدم، ويُعرض جسده لثلاثة أيام أمام الناس، كي يصبح درساً للجميع. أما العاهرة التي كانت ترافقه، وذهبت معه فقط كي تلطخ تربة الضريح المقدس، فسوف ترجم. وهكذا نقضي على الشر في مدينتنا الهانئة...

- *الله أكبر*" لثلاث مرات.

ها هي ذي محاكمتك إذن يا رسول، هل أنت راضٍ؟

أنا لا أسمع شيئاً. ماذا يقولون؟

لا شيء.

يقترب براويز من رسول، حزيناً ومتألماً، ويوجه الكلام نحو الحضور: إخوتي المسلمين، أقرّ أن كلام «*غازي صهيب*» المتعلق بصلب القضية، هو كلام مقنع. لكن اسمحوا لي أن أقدم بعض الملاحظات. فنحن لم نوقف هذا الرجل، لا أنا ولا قوة القانون. بل جاء من تلقاء نفسه ليعترف بما فعل.

- "لماذا جاء من تلقاء نفسه؟ هناك إذن سبب ما!" يصيح *الغازي*، وصدره محشو بالغرور.

- هذا صحيح، غازي صهيب، هناك سبب لهذا. وسوف أشرحه لك" يستأنف براويز، "لقد قابلت هذا الرجل عدة مرات. في المرة الأولى، رجالي هم من أتوا به إلى مكتبي. فقد اشتكى عليه صاحب منزله، لأنه لم يكن يدفع إيجار غرفته. في ذاك اليوم، كان فعلاً قد فقد صوته. هذا واضح الآن. في المرة الثانية، عندما استعاد صوته، جاء ليعترف لي أنه قد قتل امرأة. لقد قتل قوادة كي ينقذ خطيبته من بين براثنها. وبالنظر لشخصيته، فقد بدا لي آنذاك، أنه من الضروري فتح تحقيق بالأمر، فوجدت أن هذه الجريمة هي بلا ضحية، ولا شهود، ولا إثبات. لا يوجد منها أي أثر.

- "بالطبع، فهو كأي مجرم، دمّر هذا الشرير كل الأدلة"، يقول *الغازي*. يلتفت براويز نحو رسول ويتابع: "لو كان في نيته فعل هذا، لما جاء إلى هنا بنفسه، سيد *غازي صهيب*! إذا ما نظرنا إلى كل هذه الجرائم التي ترتكب في هذه الأيام، فحتى الطفل الصغير باستطاعته محو آثار جريمته بسهولة في هذه المدينة.. هل استطعنا الإمساك بقاتل فتياتنا. هل وجدنا أي أثر لهذا القاتل الذي يسمم دون رأفة أو شفقة نساءنا وأطفالنا؟" يسكت ليتيح الوقت للآخرين كي يتساءلوا ويدركوا الوحشية التي فيها يعيشون. هل كان بإمكانهم فهم ما يقول براويز؟

"الآن، لنفترض أن هناك ضحية، فليس من شأني تذكيركم، أنه، وبحسب فقهنا، لا توجد جريمة قتل إلا عندما يكون الضحية *معصوم الدم*، بريئاً ومحمياً. وهذا لا ينطبق في حالة هذه القضية. فالضحية قوادة، إذن هي مُدانة بالرجم". لم يصدر أي احتجاج. "حالة هذا الشاب، الذي قدّم نفسه للعدالة، كي يُحاكم ضمن

محاكمة علنية، يبدو لي مثالياً. إنه درس باهر. فلو أن، كل واحد منا في هذا الوقت، يعمل مثل هذا الرجل، ويضع أفعاله قيد التساؤل، لاستطعنا أن ننتصر على الفوضى التي تسود في هذه الأيام بين الأخوة، في هذا البلد".

– ماذا تقصد أن تقول بهذا الكلام؟

– أنت تقارن المجاهدين بهذا «الفتنة».

– حتى أنت يا براويز؟

– من أنت؟ هل أنت أحد المجاهدين، أحد المحررين، دليل الشعب، أو محامي هذا المنشق القاتل؟

– ليذهب إلى الجحيم، هذا الشيطان!

– اللعنة عليك، يا براويز!"

يقف براويز وسط القاعة ويقول، دون أن يعير الآخرين آذاناً صاغية: "لا توجد جريمة. أصغوا إليّ، إنها جريمة متخيلة، وهمُ جريمة، لا لشيء إلا كي تجعلنا نفكر بأعمالنا!

– هل هو مجنون؟

– لا، يا إخوتي الأعزاء، ليس فقط هو غير مجنون، لكنه في الواقع هو واضح تماماً، إنه يعي جرائمنا!" ينهض الجميع، ويزعقون بصوت واحد. لكن براويز يتابع: "اسمعوني! هذا الشاب يطلب منكم العدالة وهو..." بقدر ما يزداد صراخ براويز، بقدر ما يغضب الرجال. في النهاية، يهجمون عليه ويحيطون به. إنها الفوضى.

يضحك رسول.

لا تضحك، وإلا وضعوك في الملجأ، بين المجانين.

لكن أين أنا، إذن؟

32

في الزنزانة، كل شيء مظلم.

حطّت ذبابة على يده. ينفخ، تتحرك، وتطير.

قذارة!

لم كل هذه الضراوة والكراهية ضد حشرة صغيرة؟

لأنها لا تقوم إلا بالهجوم في هذا العالم.

إنها لا تهاجم. إنها تعيش في عالمها، لأنها هي بالأصل من هذا العالم. هذا أنت الذي أتى من عالم آخر. هذا أنت من يهاجم في هذا العالم الذي لم يعد ملكك. انظر إليها، انظر بأي خفّة تعيش عالمها.

لأن لا ضمير لها.

ليس لها ضمير لأنها لا تحتاجه. تعيش خفتها، وموتها... بكل بساطة.

عادت الذبابة لتحط على يده. يحاول أن يتحرك، لم يستطع تحريك ذراعيه. هل هي السلسلة التي تمنعه من رفعِ يده، أم الذبابة؟ إنها هي، الذبابة، دون أدنى شك. إنها تشله. تشوش عليه العالم.

يمد رقبته كي يقترب من الحشرة، وينفخ من جديد. مستحيل. جسده متصلب، ثقيل، كالحجر. يتبادلان النظر. يُخيل له أن

الذبابة سوف تقول له شيئاً ما، بلغة غير مفهومة. كلمات موزونة، قريبة من الغناء: تـات، تـا، تـا... تـوام، تـوام... آزي.. مـن ثم تتحرك، تطير وتحط على الجدار. عندئذ يستطيع رسول رفع يده، التي غدت خفيفة. تتفكك السلاسل دون أي ضـجيج. يـنهض كـي يلتقط الذبابة. لا يرى فوق الجدار غير صورته، كما لـو أنهـا لوحـة جصّية. يلمسها. الجدار شبه سائل، وقابل للاختراق. تمـر يـده. لا يقاوم. يمتصّه الجدار. الآن، يعبر جسـده كلـه مـن خلالـه. لحظة ويصبح في الداخل، يتجمد. يصبح مجرد صورة على سطح الجـدار، تشبه الذبابة، يمزق صوتها صمت الجدار تات، تـا، تـا... تـوام، توام... آزي...

"الله أكبر". يصـحّي آذان الصـلاة رسـول، ويجعلـه يبتعـد عـن جدار النوم. يعي الآن أنه هنا، على الأرض، مقيد اليدين والقدمين.

يصمت صوت المؤذن الأجش، ليغرق كل شيء في الصـمت. عـدا غناء الذبابة الذي لم يزل يدوّي مراراً وتكراراً في رأسه، كما لو كـان طقساً دينياً: تات، تا، تا،... توام، توام، آزي...، وبسلام. إنهـا لم تعد تزعجه.

تُفتح الكوة الصغيرة في بـاب الزنزانـة الصـغيرة. "هيـا انهـض، لديك زيارة". يقول الحارس. لا يتحرك رسول. "رسول!" إنه صوت رازمودين. ينهض رسول على مهل، ويرى عيني ابن عمه القلقتين. يقترب من الباب. "مـاذا فعلـت أيضـاً؟" يرفـع رسـول كتفيـه كـي يقول: لا شيء مهم. لكن رازمودين ينتظر كلمـة، ينتظـر أن يسـمع صوته. لكنه، كالعادة، لم يسمع شيئاً. يتـوتر. "قـل لـي أي شـيء

كان، اللعنة!" يدوي صدى كلماته في الرواق. "هيه، بهدوء!" يصرخ الحارس. "كنت في مزار شريف. أخذت دنيا ووالدتك. ذهبنا مباشرة لبيتك، لكنك لم تكن موجوداً. فأخذت والدتك وأختك إلى الفندق. بحثت عنك في كل مكان في المدينة. لم يعرف أحد مكانك، لا صوفيا، ولا يارموحمد... الكلّ قلق عليك. أخيراً، أخبرني بعض من رجال براويز أين أجدك..." يقطع كلامه، على أمل أن يسمع رسول، ولو لمرة واحدة. لكن دون جدوى. يستأنف: "لماذا اخترعت قصة كهذه؟ هل فقدت عقلك؟" يبقى رسول محتفظاً بهدوء أعصابه. "اعمل شيئاً ما قبل فوات الأوان، لأجل أمك وأختك، لأجل صوفيا..." يبتعد عن الباب كي يتحدث مع الحارس: "دعني أدخل يا أخي إلى الزنزانة.

– كلا، هذا ممنوع.

– اعمل معروفاً. سوف ينالك على هذا جزاء. خذ!

– كلا... لكن... طيب، فقط لدقائق.

– أعدك بذلك.

يفتح الحارس الباب، يدخل رازمودين: "لم أستطع أن أقول شيئاً لعمتي. أنت تعرف ما الذي سيحل بها، إن هي عرفت بتوقيفك..." يمسك رسول من كتفيه، ويهزه قائلاً. "كيف سأقول لهما؟ هل تريد أن تصاب أمك بذبحة قلبية؟ هل تريد أن تُجن دنيا، وصوفيا، من الأسى؟ لماذا أنت أناني هكذا؟" كل شيء قد انتهى، يا رازمودين، كل شيء. فرسول لم يعد يملك «الأنا» ولا الكبرياء. إنه يجسد الآن معنى التخلي تماماً. "غداً سوف تُعدم!"

كلما جرى الأمر أسرع، كلما كان هذا أفضل، هكذا يكون باستطاعة رسول العبور لأماكن أخرى! "لماذا تسخر مني؟" إنه لا يسخر منك، إنه بكل بساطة، يضحك. يضحك لملاك الموت. "لماذا لا تريد أن تأخذ الحياة بجدية؟ تبدو كشخص هارب من ملجأ المجانين!" هل هناك جدية أكبر من هذه؟ غداً سيكون يوماً رائعاً بالنسبة إليه، صدقه، سوف يأتي الجميع. يا للموت الرائع!

نعم، سوف أعيش أخيراً موتي، بخفة.

محبطاً من نظرة رسول الضاحكة، ومن صمته الفرح، ينهض رازمودين وهو يقول: "سوف أجلب والدتك ودنيا إلى هنا، فربما استطاعتا تغيير رأيك".

ينهض رسول، إنه يمنعه. يشير برأسه أن لا، بنظرة توسل، كما لو كان يريد أن يقول: "كلا رازمودين، أرجوك دعهما في سلام!".

يقفان وجهاً لوجه، يهمس رازمودين "إن لم تعرفا الخبر اليوم، فسوف تعرفانه في الغد".

لن يهمه الأمر، بعد موته.

"لكن لماذا؟ كل هذا لأنك قتلت قوادة حقيرة؟" يقول رازمودين، وهو ينحني نحوه. "انظر حولك، لا يوجد غير القتل! رجال براويز كانوا يضحكون وهم يحكون لي عن الأمر".

إن استطعت أخيراً إضحاك الناس فهذا أمر جيد، حتى ولو كان الضحك على جريمتي!

يركع رازمودين: "هل ما زلت تعتقد أن بإمكان محكمة أن تغير

هذا البلد الداعر؟ أنت تحلم، يا ابن العم. آنت تحلم..." يبتلع دمعة، ينهض، يمسك رسول من كتفيه ويهزه من جديد: "عد إلى نفسك، اصحُ، يكفي هذا الآن! دع جانباً أحلامك تلك!" يغمض رسول عينيه، تتحرك يداه المقيدتان، ويتمسك بابن عمه.

لقد صحوت، يا رازمودين.

يقفان وجهاً لوجه، لفترة طويلة، لحين وصول الحارس: "يا أخي، يجب أن ترحل، هذا وقت عشائه".

يترك رازمودين رسول. يتبادلان النظر للمرة الأخيرة: "لن أتخلى عنك. سوف أرى القاضي، سوف أرى الجميع. لن أدعك تهدم حياتك".

يغادر الزنزانة مصمماً، لكنه قلق. يغلق الحارس الباب، ومن ثم الكوة الصغيرة.

تتجول ذبابة فوق الجدار.

33

تات، تا، تا،...توام، توام... آزي...

من أين تخرج هذه الكلمات التي لا معنى لها؟ لا بد وأنه قد سمعها في مكان ما. ربما في فيلمٍ هندي. هذا لا يهم. إنه شيء مريح. يكسب قذارة الذبابة جمالاً.

ها هو يصّفر الأغنية كي لا يعود يسمع العالم.

وهو لم يعد يسمع شيئاً. لا محرك سيارة توقفت قرب النافذة. ولا صوت أقدام رجال يدخلون الرواق ويقتربون من الزنزانة. ولا ضجيج المفاتيح في قفل الباب الذي ينفتح. ولا الصوت الفظ الذي يأمره صائحاً:

"قف!".

يبقى جالساً.

يخترق الضوء الزنزانة حاملاً معه الوجه القاسي لعامر سلام الذي يطلب البقاء وحده مع رسول لبعض الوقت. عندما يصبحان وحدهما، يمسك عامر سلام رسول من ياقته، وبعد عدة شتائم، يسأله أين هو المال والمجوهرات التي سرقها.

يهزّ رسول كتفيه كي يشير بعدم اهتمام أنه لا يعرف. يلحّ الآخر. ويقسم أنه سوف يستخرجها من أحشاء والدته، ويوجه المسدس نحو بطن رسول، الذي لم يزل ينظر إليه بهدوء ودون خوف، مشيراً إلى رقبته كي يجعله يفهم أنه لا يستطيع الكلام. عندها، يفقد عامر سلام أعصابه، يطلب أن يجلبوا إليه بقلم وورقة، ويعطي مهلة خمس دقائق لرسول كي يكتب أين هي الأموال والمجوهرات. "إن لم يكن هناك من شيء تكتبه بهذا القلم، فسوف أشعل به فرج خطيبتك!" يقول هذا، ويغادر الزنزانة.

يأتون إليه بقلم وورقة، فيكتب: "دعوا عائلتي بسلام. سوف أعيد كل شيء لحظة أصل إلى المقصلة". ويعطي الورقة للحارس.

بعد خمس دقائق، يعود الحرس. يخرجون رسول من الزنزانة، وهو مقيد القدمين واليدين.

قبل أن يصعدوا إلى الشاحنة، يسأله أحد الحراس إن كان قد توضأ. يشير رسول بنعم وهو يبتسم. تعبر الشاحنة باب دار الحكومة، تنعطف في الشارع، وتنطلق بسرعة. يسمع رسول وهو متقوقع على نفسه، صوت صدى اسمه يدوي في البعيد.

في الشارع المقفر، يلحظ رازمودين يركض وهو يصرخ ويحرك يديه كي يوقف الشاحنة. يرمقه رسول بهيئة هادئة .

تسير الشاحنة. ينظر رسول لبعض المارة يسرعون في الاتجاه نفسه، نحو منتزه زارنيغار.

لم تبدُ السماء في الفترات الأخيرة أبداً، بهذا الصفاء، وهذا البعد. ولا الشمس بهذا الضياء، وهذا القرب.

تقف الشاحنة قرب المنتزه. ينزل الجميع.

يبدو رسول مأخوذاً بغناء العصافير. تتوه نظراته في أغصان الأشجار للبحث عنها، كي يزقزق معها: تات، تا، تا، توام، توام...آزي..."رسول!" تهرع امرأة بالشادور الأزرق السماوي نحوه، وترفع طرف حجابها. إنها صوفيا، تبكي، والرجال المسلحون يبعدونها. يدفعون رسول ليتقدم عند إشارة الكاتب الجديد. ورسول لا يكترث، وغير مبالٍ بكل هؤلاء الذين ينظرون إليه، حتى ولا بالفتى فارزان الذي كان يهزّ له رأسه ويحييه بابتسامته الحزينة.

"لا تأخذوه لهناك!" كان هذا رازمودين الذي كان ما يزال يركض، لاهثاً، خلف الموكب. "بأمرك، أيها القائد!" يسخر أحد المسلحين منه كي يمنعه من الاقتراب. لكن رازمودين يبقى يردد بيأس هذه الكلمات: "صدقوني، الذي يحدث هنا شيء مريع!".

يدفع الرجال رسول للأمام، يتبعهم فرزان وصوفيا. لكن، يتجمد الجميع فجأة، لحظة يشاهدون المشنقة دون حبل، وحولها يتجمع حشد من الناس الصامتين.

"ماذا هذه المشنقة دون حبل؟" يسأل الكاتب. "لقد قُطع!" يقول أحد الحراس.

يحثون الخطى وينضمون إلى الحشد أسفل المشنقة. "يا إخوة، دعونا نمر، معنا المحكوم عليه، ابتعدوا، ابتعدوا!".

يلتفت الحشد نحو رسول، يفسحون لهم الطريق، وإذ بهم يشاهدون جثة رجل لم تزل تنتفض على الأرض. كل شيء يتوقف لحظتها: الزمن، الهواء، الدموع، والكلمات...

ينهار رسول على الأرض بالقرب من جسد براويز، والحبل في عنقه. يتمتم الحشد، يتحرك، يبتعد. يتقدم مسلحون آخرون ويدفعون الناس بعنف كي يشقوا طريقاً للقادة الذين يصلون مصحوبين بضوضاء كبيرة. يختفي كل شيء تحت حذائهم العسكري. لم يعد رسول يرى شيئاً. لم يعد هناك غير صوت، صوت واحد فقط، إنه صوت صوفيا.

34

"أنت جميلة" يهمس رسول في أذن صوفيا. تحمّر خجلاً. يرمي نفسه عند قدميها كي يعلن أخيراً: "أركع عند قدميك ليس فقط لأجل جمالك النقي، لكن من أجل عذابك أيضاً! "تتأثر، لكنها تتمالك نفسها، وحدها يدها تتحرك، وتدخل شعر رسول كي تضيع فيه". مضى زمن طويل لم تخبرني فيه مثل هذا الكلام العذب.

– لدي الكثير لأقوله لك، لكن الحرب لم تترك لنا الوقت الكافي.

يقبلها بحياء على وجنتيها. تخبئ رأسها، تمد يدها لتمسك بيد رسول الذي يسألها :"هل تذهبين معي؟"

– نذهب إلى أين؟

– للبعيد.

– إلى مزار الشريف؟

لا، بل أبعد من ذلك... إلى وادي الطفولة المستعادة!

– أين هو هذا المكان؟

– إنه بعيد، بعيد جداً. إنه ليس في الغرب ولا في الشرق، لا في الشمال ولا في الجنوب.

– إذن، هو غير موجود.

– سوف أشيده لأجلك.

– وكيف سيكون؟

– وادٍ رائع الجمال، لا أحد فيه يتكلم. ولا أحد فيه قدسبق له واختبر تجربة الشر .

– إذن سنكون خدّجاً؟

– "وسنبقى دوماً!" ويغرق الاثنان في الضحك.

"يجب أن أذهب" تقول وهي تنهض.

"ستعودين عند نازيغول؟

– كلا. لقد ذهبت مع عامر سلام.

– إلى أين؟

– لا أعرف" تقترب من رسول: "آمل أن لا يأتيا إلى وادي الطفولة المستعادة!

– كلا. فهذا الوادي لنا وحدنا فقط!

– إذن، إلى لقاء قريب!" ترتدي الشادور الأزرق السماوي، وتغادر الزنزانة.

يبقى رسول واقفاً، يحلم. "لديك زيارة أخرى". يقول له الحارس. يدخل عندها الكاتب، وملف ضخم تحت ذراعه. "كيف حال الفتى الشاب؟" يومئ رسول برأسه، وهو يشعر بالطمأنينة.

يريد الكاتب الجلوس، لكن رسول يمنعه: "لا تجلس هنا، أرجوك. فهنا يوجد ذبابة، ذبابة حقيرة..." ينتاب الكاتب الفضول، فيصلح من وضع نظارته، ويبحث بنظره على الأرض، ينحرف جانباً، ويجلس بكثير من الحرص. "هذه الذبابة...

مسجونة معي"، يقول رسول وهو يشير للذبابة، المستلقية بالقرب من الكاتب. "الآن أصبحت تهتم حتى بحياة ذبابة؟".

– في الليلة السابقة حلمت حلماً غريباً. حلمت بهذه الذبابة التي كانت تغني لحناً من أغنية أعرفها، شيء مثل: تات... تا، تا، توام... توام... آزي. نعم هذه هي، لكن لم أفهم تماماً معناها.

– إنها أغنية هندية.

– دون شك. وماذا تعني؟

– تعني أنت أيضاً تكون ذلك!.

– هذا جميل!

– الآن حتى الذباب يغني لك. الحياة حلوة! أنت إذن مسرور أن محاكمتك تجري كما تمنيتها؟

– الآن، هذا سيان عندي.

– كل شيء سيان عندك؟ قلبت العالم رأساً على عقب، وكل شيء سيان عندك؟ بسببك أعدم نفسه أحد أهم القادة المجاهدين، أقصي القاضي، لا تتحدث الجرائد إلا عنك ليلاً ونهاراً، جاء ابن عمك بكل الصحفيين الغرباء، وكل موظفي الأمم المتحدة، يسأل: وحضرتك، ماذا تقول في ذلك؟".

يهز رسول رأسه دليل عدم الموافقة.

– "ليس أنا من قلب كل شيء. بل دوستوفسكي.

– حسناً، ها قد عدنا مجدداً! توقف مع هذا الدوستو... خاصتك! أنت لم تقتل لأنك كنت قد قرأت عن هذا. وقرأت عن

ذلك لأنك كنت تريد أن تقتل. هذا ببساطة كل شيء. لو كان دوستوفسكي حياً لأتهمك بالانتحال!"

ينظر إليه رسول مطولاً، وبعمق. "لا تنظر إليّ هكذا. أنا لم أطرح عليك أحجية!" يقول الكاتب وهو يفرد أوراقه على الأرض. "على كل حال، لقد أعادوني إلى منصبي، ويريدون ملفك... على فكرة، هل تعلم ماذا وجدوا في جيب القائد براويز؟".

تتساءل نظرات رسول الفضولية. "وجدوا رسالة مكتوبة بيده تقول: *قوموا بدفني، ولا تثأروا لي!*" يا له من رجل! يا للرجل الشجاع! هل تعلم سبب انتحاره؟ يبدو أن رجاله قد وجدوا قاتل ابنه بالتبني. لكن، في المقابل، زوجة وابن هذا القاتل قد قتلا أيضاً. لنترك هذا الموضوع، هيا املِ عليّ، ما الذي يجب علي أن أكتبه؟".

يحلّ الصمت.

"اكتب كل شيء! لقد حكيت لك كل شيء.

– كل شيء؟ لا أعتقد. على كل حال، كنت قد بدأت بكتابة بعض السطور. سأقرأ. وإن *كان هناك من خطأ، أشر عليّ بذلك:*

«ما كاد رسول يرفع الفأس كي يضرب رأس المرأة العجوز حتى عبرت رواية الجريمة والعقاب في ذهنه. صعقته. ارتعشت ذراعاه، تمايلت ساقاه. أفلتت الفأس من يديه، فاخترقت جمجمة المرأة وانغرزت فيها. انهارت العجوز فوق السجادة الحمراء والسوداء دون أن تصدر أي صوت. يتطاير حجابها المطّبع بأزهار التفاح في الهواء قبل أن يسقط فوق جسدها الممتلئ والمترهل. اهتّزت بتشنجات،

تنفست نفساً واحداً، أو ربما اثنين، حملقت عيناها الجاحظتان في وجه رسول المنتصب وسط الحجرة، مقطوع الأنفاس، أكثر شحوباً من جثة. سقط الباتو الذي يرتديه من على كتفيه الناتئين، وهو مستغرق في النظر في تدفق الدماء، تلك الدماء التي كانت تسيل من جمجمة العجوز، وتندمج بلون السجادة الحمراء، مغطية كذلك مساراتها السوداء، لتسيل بعد ذلك ببطء نحو اليد اللدنة للمرأة التي لم تزل تمسك بقوة رزمة من الأوراق المالية. والتي سوف تتلطخ لاحقاً بالدم». بالمناسبة، لماذا لم تأخذ المال؟".

انتهت

يثير عتيق رحيمي بنقله نهج رواية " الجريمة والعقاب " لدوستوفسكي إلى النهج الأفغاني، مسألة الأخلاق والجريمة في مجتمع اشتعل بين فكي: الحق بالتسلح، والعدالة القبلية.

إنه عبور عبثي ممزوج بابتسامة مريرة، وهذا ما يدل عليه حقيقة هذا التناقض. من خلال ' أفغنة ' الأسماء، والأجواء الأفغانية، ينقلنا رحيمي من خطوات راسكولنيكوف بطل الجريمة والعقاب ويجعلنا نتماهى بخطوات رسول بطله الأفغاني.

من الجملة الأولى للرواية نتماهى مع بطل رواية دوستوفسكي راسكولنيكوف، ثم لا يلبث الكاتب أن يدخلنا في متاهة محاكمة كافكا، لينتقل بعدها إلى عبثية مورسو في رواية الغريب لكامو وينهي مع بعض المفارقات لبطل ديدرو في ' جاك المؤمن بقدره'.

في مقابلة لرحيمي للحديث عن كتابه هذا ، أورد قولاً للفيسلسوف لاكان كي يشرح الازدواجية التي اشتغل عليها في روايته : " الشعور بالذنب يسبب نوعان من الأمراض النفسية : إما العصاب، لأولئك الذين لم يزالوا منغلقين داخل هذا الذنب ويرفضون الخروج منه، أو الذهان، لأولئك الذين يرفضون الدخول إليه.

في روايته ' حجر الصبر ' عالج حالة من العصاب. بينما في هذه الرواية هو يعالج حالة من حالات الذهان.

كتب عتيق رحيمي هذه الرواية وفاءً لأخيه الذي كان يدرس في الاتحاد السوفياتي من عام 1986 حتى عام 1989 .أصبح شيوعياً، وتطوع مع القوات السوفيتية أثناء وجودها في أفغانستان. وقتل عام 1990 على يد المجاهدين الأفغان.

لكنها أيضاً رواية لكل هؤلاء الذين لا يستطيعون العودة إلى ديارهم. وهي نوع من التأمل والتفكير في العدالة في بلد، التي بحسب رحيمي، لا يشعر فيها الشيوعيون ولا المجاهدون ولا طالبان بأي ذنب بما اقترفوه. " لا أحد يشعر بالذنب تجاه التاريخ الدموي لهذا البلد" .

